

يوسف السباعي
السقا مات





(والصابرين فى الباساء والضراء وحين الباس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

« قرآن كريم »

يطلب من :

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

الإهداء

إلى عمى العزيز :

طه السباعى باشا

اهدى كتابى هذا .

لا لأنه — بفضل اللقب — صاحب معالى .. او صاحب سعادة ..

(فانى لا ادرى كيف يستطيع اللقب البشرى ان يشارك الله سلطته فى منح المعالى أو السعادة . ! ولا ادرى كيف يمكن أن يفضل انسان على غيره لأنه صاحب سعادة !) .

ولكنى اهديه له لأنه — بفضل الله — صاحب نظافة .. نظافة فى الذهن ، واليد ، والقلم ، واللسان .

انى اهديه له .. رغم انه سياسى .. وباشا .. و « حماى » .

يوسف السباعى

كتبت هذا الإهداء إلى « طه السباعى » قبل ان تلغى الثورة الألقاب ، وقد زال عنه اللقب الذي لم اقم له فى إهدائى وزنا . ولم يبق له إلا ما رايته يستحق الاعتبار ، انه لم يصبح « صاحب سعادة » ولكنه ما زال كما وصفته صاحب نظافة .. فى قلبه وفى خلقه وفى عمله .



مقدمة

التقيت ذات يوم بالأستاذ « أحمد بك عباسى » كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، فأنبأنى أن الوزارة كانت توشك أن تقرر بعض كتبى لمدارسها ، لولا أن اللجنة المختصة رأت أن الكتب تحوى بعض عبارات بالعامية تتنافى مع الغرض الذى قررت من أجله الكتب .

ورغم أنه لم يدر بخلدى أن اكتب كتبى بحيث لا تتنافى مع مطالب وزارة المعارف ، بل رغم أن ذكر وزارة المعارف لم يطف بذهنى قط وانا اكتب هذه الكتب ، إلا أننى أحسست بشىء من الخيبة وانا أسمع قول استاذنا الفاضل ، إذ كان يسرنى ويرضى غرورى ولا شك أن أجد الوزارة تقرر بعض هذه الكتب .

وعلى هذا فلم أكد أبدأ هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التى تترفع عن اللغة العامية ، وعزمت أن أقيم سياجا منيعا يحول دون تسرب الألفاظ العامية التى تأبى إلا أن تفرض نفسها فرضا فى سياق الحديث . وأخذت فى الكتابة محاولا اجراء الحوار بين ابطال القصة باللغة الفصحى ، ولكنى لم اكد أكتب بضع صفحات ، ولم أكد « أحمى » فى الكتابة .. حتى وجدت أبطال القصة ينطقون على الرغم منى فى الحديث باللغة العامية .

وحاولت عبثا ايقافهم عند حدهم .. وردهم عن غيهم .. وتهديدهم بأن وزارة المعارف الفصيحة .. لن تقرر الكتاب فى مدارسها وأنهم سيسقطون الكتاب بهذا اللغو العامى ، والهذر اللا فصيح .

ولكنى أخفقت فى محاولتى ولم أستطع إلا التسليم .. قائلا لنفسى : إنى اكتب للعامة أكثر مما اكتب للخاصة من الفصحاء والبلغاء .. وان هؤلاء العامة فى أشد الحاجة إلى زاد من الأدب الذى يفهمونه .. والكتابة التى يسيغونها .. اكثر من أولئك الخاصـــة الذين لديهم تراث من الفصاحة والبلاغة يفيض عن حاجتهم .

ومع ذلك فانى أجد هؤلاء الخاصة أكثر اساغة لأدبنا الطبيعى غير المتكلف .. اذكر أنه عقب قراءتى لقصـــة « زقاق المدق » للأســـتاذ « نجيب محفوظ » واعجابى بها .. ان أعطيتها لعمى « طه السباعى باشا » وهو من أبلغ الأدباء ، وعندما انتهى منها سألته عن رايه فيها فاجابنى بأنها من أبدع ما قرأ ، ولا يعيبها إلا ان الحوار جرى باللغة الفصحى .. ولو كان باللغة العامية لبلغت منتهى الروعة .

وانى لأذكر ايضا أن حوار « عودة الروح » وهى أروع ما كتب « توفيق الحكيم » يجرى باللغة العامية ، رغم أن كاتبنا الكبير قد ترفع بعد ذلك عن اللغة العامية واخذ يجرى حواره باللغة الفصحى ، او على الأصح ، بأبسط درجات اللغة الفصحى التى تكاد تقارب العامية .

ولست اشك أننا فى فترة صراع بين العامية والفصحى ، وان الكتاب فى هذا الجيل حائرون بينهما ، ولا أدل على ذلك من إخراج الأستاذ « محمود تيمور » إحدى رواياته فى ثوبين : ثوب فصيح وآخر عامى .

وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع .. بين الفصحى والعامية .. ولا بجدال هناك فى أن الغلبة — فى الحوار — للعامية ، لأنه من المستثقل المجوج أن نحاول انطاق أشخاص القصة باللغة الفصيحة .. وهم لا يمكنهم فى حياتهم الطبيعية أن ينطقوا بها .

على اية حال لا يراد بمقدمتى هذه اعتذار ولا تبرير .. فالكاتب يحب ان تنطلق افكاره محررة من كل قيد ، والألفاظ فى اللغة توابع

للأسلوب والأفكار .. ومن الخير ، ونحن نهدف إلى أن يكون أدبنا القومى ادبا عالميا الا نجعل من اللغة قيدا يثقل قدرتنا على التعبير الصادق غير متكلف .

ان هدف الكاتب ، أو الفنان بصفة عامة ، هو الوصول إلى اغوار النفوس ونقل مشاعره إليها .. والفنان الناجح هو موقظ الأحاسيس .. محرك المشاعر .. مهما كانت وسيلته ، وأيا كان أسلوبه .

وكل ما أرجوه أن اكون قد حققت بكتابتى هدف الفنان .

والسلام عليكم ورحمة الله .

الفصل الأول

سارق الجوافة

حدثت هذه القصة حوالى عام ١٩٢١ فى حى الحسينية وما زال مسرح حوادثها قائما كما هو ، وقد تكون كف السنين بدلت وجهه بالفناء والهدم ، والبناء والتنظيم .. إلا أن الكثير من علاماته المميزة ما زالت قائمة على حالها لم يخن عليها الدهر ، ولم يبدلها الزمن .

واشهر هذه العلامات واشدها ارتباطا بقصتنا صنبور المياه الحكومى ، القائم فى إحدى زوايا درب السماكين ، أمام كشك صغير تربع فيه « سيد الدنك » .. المانح المانع ، الآمر الناهى فى مياه الحى ـ الحاكم بأمره فى صف طويل عريض من النسوة ذوات الصفائح ، والرجال ذوى القرب .

وكم أود لو وضعت القارئ فى مسرح القصة وجعلته يتجول فى أزقته وحواريه ، ويراها رأى العين .. ولكنى اشك كثيرا فى أن قارئ هذا الجيل يستطيع الوصول بسهولة إلى هذه الربوع القديمة التى دالت دولتها وادبر عزها وعفى جمالها وزال سؤددها ، وأضحت قصورها أطلالا بالية ودمنا عافية .. ومع ذلك فليس أحب إلى من التطوع بقيادته إلى هناك واصطحابه فى جولة قصيرة سريعة ، تعطى له مجرد فكرة سطحية عابرة عن المكان ، الذى أوشك أن أزج به إليه ، واضعه فيه ، خلال فترة قراءته لهذه القصة .

نبدأ من شارع فاروق فى منتصف المسافة بين ميدان فاروق وميدان

العتبة (هذا الميدان قد توالت عليه أسماء عدة .. ويبدو لى أن من الخير أن أسميه باسمه القديم خشية أن تبدل اسمه الجديد باسم آخر ما بين كتابتى هذه القصة وظهورها » حيث يقاطع الشارع الكبير شارع ضيق يسير فيه الأتوبيس الذاهب إلى بيت القاضى ، وهو شارع البغالة .

لنجعل وجهتنا إلى العتبة ، ثم ندلف يسارا فى شارع البغالة ونسير فى الطريق الضيق المزدحم .. المليء بحوانيت البقالة والنجارين ، وبائعى القباقيب ، والصرماتية ، والعطارين .. ولنكافح فى شق طريقنا .. بين عربات الكارو ، والحمير ، وعربات اليد ، وباعة العرقسوس .. ولنتجاوز الدروب المقاطعة ، ومنها درب البزازرة ، ودرب عجور .. ولنتجاوز كذلك المسجدين القائمين على يسارنا .. وبذلك نكون قد قطعنا شارع البنهاوى ، ووصلنا إلى الساحة الممتدة الفسيحة المترامية على مدى البصر ، فنجد على يميننا « باب الفتوح » وهو أحد أبواب قاهرة المعز ، القائم فى سمك وضخامة ، وقد علته الأتربة ، وبدا عليه البلى والقدم ، وترامى حوله بقايا برسيم وروث بهائم ، وحشد من الغادين والرائحين ، والصبية اللاهين العابثين .. والباب يؤدى إلى وكالة الليمون والزيتون ، وإلى الطريق المفضى إلى النحاسين وبيت القاضى وسيدنا الحسين .

أما فى الواجهة فتمتد الساحة حتى تنتهى بمقابر باب النصر التى يخترقها شارع رئيسى يسمى شارع النجوم ، وهو مفض فى النهاية إلى شارع العباسية ، وقلم المرور ، وتحدد الساحة فى الميسرة بشارع مرتفع يحده جرف مبطن بالطوب ، وهو شارع القصاصين وينتهى بضريح صغير منعزل هو ضريح « ابن هشام » حيث أزيل ما حوله من قبور لتوسيع الساحة وبقى هو قائما وحده ليدل على سخف الأحياء فى التفريق بين قيم الأموات الذين سواهم الله فى باطن الأرض .

لندع الساحة ، وباب الفتوح ، وباب النصر جانبا .. ولندلف يسارنا فى أول درب يقابلنا فى الساحة ، درب قد كتب عليه لافتة

تنبىء باسمه ، وهو « درب السماكين » ، وهو الدرب الموازى لشارع الحسينية ، الذى يليه مباشرة على يسار الساحة .

الدرب طريق عادى ، من طرق الأحياء الشعبية القديمة بضيقه وقذارته ، وبحوانيته القائمة على جنباته ودوره البالية العتيقة المتربة الجدران ، العالية الأبواب ، المتقاربة النوافذ حيث يد الساكن تكاد تمسك من خلالها بيد جاره .

وأرض الطريق قد كسيت بكتل البازلت المربعة المقلقلة التى جعلت الطريق اكثر وعورة مما لو ترك على حاله .. واكوام القمامات قد تراكمت على جوانبه ، تحيط بها المياه القذرة الآسنة .

كل هذه المظاهر يتشارك فيها درب السماكين مع درب عجور ، ودرب البهلوان ، ودرب اسمه ايه ، وبقية دروب القاهرة النظيفة المحترمة .. ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لدرب السماكين مجموعة من الظواهر المميزة والعلامات البارزة ، التى تميزه عن بقية الدروب .

أول هذه الظواهر — كما سبق القول — حنفية المياه القائمة على يمين الداخل بعد مسيرة بضع خطوات من مدخل الدرب ؛ والحنفية بكشكها وصاحبها .. تحتل زاوية داخله فى مبانى الطريق ، بحيث تكون الزاوية شبه ساحة صغيرة يحتشد فيها طلاب المياه .

فاذا عبرنا الحنفية وجدنا سورا مهدما يخفى ربوة خربة ، متربة مليئة بالقمامات والصفائح القديمة ، وفى ركن من الربوة تربعت بضع قدور سود للفول المدمس وبجوارها وقف نفر لا تقل ملابسهم وجلودهم سوادا عن قدر الفول .

ذلك هو « مستوقد الحسينية » القائم فى ظهره « حمام الحسينية » الذى شيد مدخله فى شارع الحسينية الموازى لدرب السماكين .

ويلى المستوقد بضع دور عتيقة وحوانيت ومدرسة أولية .. تقوم على أزقة قصيرة مغلقة ، متفرعة من الدرب الأصلى كأنها نجوات شبيهة بحرف U .

فإذا دابنا فى السير داخل الدرب صادفنا على اليسار منزل شامخ البناء ، متين الجدران . ذو باب ضخم مصفح بالحديد ، قد انفرج عن مدخل عالى السقف .. ضيق الساحة ، وبدا فى ركن منه كوم أسود ، يصعب تمييزه لأول وهلة فى ظلمة المدخل .. ويخيل للانسان فى بادىء الأمر ، انه منضدة « عتقى » وادواته .. ولكن بامعان النظر يتضح انها أفران « بطاطة » قديمة قد وضعها الحداد المواجه للمنزل فى مدخل المنزل ، حتى لا يزدحم بها حانوته .

لنعبر المدخل وندلف من الباب القائم على يمينه والمفضى إلى فناء متسع خرب .. مليء بأكوام الحجارة والأتربة .

ومن الفناء يبدو لنا المنزل وما جاوره خرابا فى خراب وقفرا فى قفر ، ويلفت نظرنا مئذنة عالية ، تنبىء عن مسجد يجاور المنزل ، اما المنزل نفسه ، فهو مثل لعزيز قوم ذل .

إن الجدر الشامخة المتينة قد تشققت ، حتى لتوشك أن تتقوض أركانها ، والنوافذ قد تهاوت مصاريعها ، وفاضت من حناياها ظلمة دئنية كأنما هى نوافذ كهف خرب .. والشرفة المتسعة فى الطابق الأول على يسار الداخل قد تآكل ســـلمها الرخامى واحاطت به اكوام من صناديق خشبية فارغة قد أعدت لرص الكتب الصفراء التى صفت على حافة الشرفة .. والتى أخذ الحمالون فى اخراجها من داخل المنزل .

اجل ! ان ما بقى صالحا للسكنى من المنزل الشامخ الضخم قد استؤجر كمخزن للكتب ، وبذا حفظ المنزل إلى حد ما من المذلة والاهانة .. واستبقى له أثرا من طيب أصله .. وسابق مجده .

وقد يلقانا صاحب مخزن الكتب بالترحيب ، وقد لا يلقانا أصلا .. ولن يضيرنا ذلك .. فليس بنا كثير حاجة إليه .. ان الذى يهمنا فعلا هو ذلك الصبى « السقا » الذى حمل القربة على ظهره واخذ يصب مياهها حول شجرة « تمر حنة » عالية مورقة .. هى كل ما تبقى من اثر الحديقة البائدة .. التى كانت تشغل الفناء .

هذا هو مسرح القصة كما يبدو الآن .. خرب مقفر .. محطم

مهدم .. ليس به من سمات مجد باد ، ومظاهر عز غبر ، غير بقايا باهتة نلقاها هنا وهناك .

ثمة شيء واحد .. نستطيع أن نجزم بأنه لم يتغير ، وأنه على حاله كما كان منذ ثلاثين عاما .. ذلك هو الصبى « السقا » والشجرة المورقة .

لنرقب الصبى مليا وهو يميل بجذعه الأعلى ويفتح فوهة « القربة » فتندفع منها المياه إلى حفرة تحيط بجذع الشجرة ، وسرعان ما تغيض المياه فى باطن الأرض لتمتصها الجذور ، فتزداد الشجرة ايناعا وخضرة .

لنثبت أعيننا جيدا على الصبى والشجرة .. على الشيء النضر الوحيد بين خراب بلقع ، والأثر اليانع الباقى فى رسوم حائلة .

لنمعن فيه البصر .. ولنغمض أعيننا عن كل ما سواه .. ولنعد بأذهاننا القهقرى فنعبر بها ثلاثين عاما فى زمن غبر ثم نتوقف بها ونمشى الهوينى .

الصبى والشجرة .. كما هما .. حتى لكأننا لم ننتقل من يومنا قيد شعره ، ولم نخض فى ربوع الماضى قيد خطوة .

ولكن ما حولهما قد تبدل ، فصار عجبا .

ثلاثون عاما إلى الوراء قد بدلت المكان تبديلا تاما .. فجعلت قفره نضرة ، وخرابه ازدهارا ، وقدمه جدة ، وموته حياة .

إننا لم نعد فى مخزن الكتب .. فالمكان قد عاد إلى سابق مجده وقديم عزه ، وأصبح كما كان .. قصر « ابراهيم بك جاد الكريم » .. أو كما كان أهل الحى يطلقون عليه « السراية الكبيرة » .

نحن الآن فى عام ١٩٢١ فى أوائل شهر سبتمبر .. والوقت ما زال مبكرا وضوء النهار لم يستتب له الأمر ، وفلول الليل تتسابق إلى الفرار من جحافل الشرق المحتجبة وراء الأفق .

والصباح ندى رطيب ، والسحب متناثرة فى السماء كأنها أكوام القطن المندوف ، و « درب السماكين » صامت ساكن لا أثر فيه للحياة إلا فى المستوقد والجامع ، و « السراية الكبيرة » قد خيم عليها الصمت

وقام جدارها الحجرى الضخم ، وبابها الخشبى السميك البنى اللون المصفح بالنحاس قد انفرجت ضلفتاه عن « عم جاب الله » الحارس الأسود وقد قبع فوق سجادة الصلاة وانهمك فى التسبيح والتمتمة وقد أغمض عينيه وبدت عليه أقصى آيات الخشوع والإيمان .

فإذا تجاوزنا الردهة المظلمة العالية القبة القائمة وراء الباب والتى قبع فيها « جاب الله » يؤدى فرائض دينه .. واتجهنا يمينا أفضى بنا باب صغير إلى الحديقة المتسعة المترامية الأطراف .

والحديقة فى هذه الوقت من السنة تعتبر فى قمة مجدها وفى أوج انتاجها .. فهى ـ كمعظم حدائق القصور فى ذلك الحين ـ حديقة فاكهة أكثر منها حديقة زينة .. فالعين لا تقع فيها على ساحات منبسطة من الحشائش واحواض الزهور ، إذ تتكاثف الأشجار المثمرة فى كل نواحيها ، يتخللها هنا وهناك أنواع من الشجيرات ذات الزهور العطرة كشجيرات الورد ، والفل ، والياسمين البلدى ، والياسمين الهندى ، مما يجعل نسمات الخريف تهب عطرة كأنفاس الأحبة .

وأبرز الظواهر فى الحديقة تكعيبة الكرم الممتدة بحذاء السور والتى تكون مربعا ذا ضلع ناقص يتممه بناء القصر ؛ والظاهرة الثانية هى حوض رخامى متسع ملىء بالمياه يتوسط المربع ، وحول الحوض تناثرت اشجار الفاكهة من خوخ ورمان وبرقوق ومشمش وجوافة ومانجة ؛ عدا النخيل القائم فى الأطراف و « التوتة » التى تظل المدخل .

والحديقة فى مجموعها اشبه بالأحراش الطبيعية المتكاثفة الأوراق الشديدة الخضرة وقد تكون يد التنسيق والتشذيب قصرت عنها ، ولكن يد الطبيعة عوضتها خيرا فدفعت فيها من قوتها نضرة عجيبة فتشابكت غصونها ، وأينعت ثمارها وتفتحت اكمامها ، وتفجرت براعمها من قوة العصارة وفرط النمو .

وكانت مياه الحوض الرخامى قد أوشكت أن تغيض بعد ان بدأ تصريفها فى أول الليل فى قنوات تسقى الحديقة وكان يسمع لصوت تدفقها من الحوض وانسيابها فى القنوات خرير خافت لطيف .

والندى قد كسا الشجر وتلالأت قطراته على الورود الحمر المتناثرة أوراقها على الأرض وفى القنوات ، وعلى جدار الشرفة ودرجاتها الرخامية البيضاء .

والقصر مغرق فى السكون لا يسمع منه صوت ولا حركة ، وقد أغلق بابه ونوافذه إلا واحدة تستنشق نسيم الصباح غفا صاحبها عن اغلاقها فى آخر الليل .

وهكذا بدا المكان كله فى إغفاءة إلا من الحارس الذى يؤدى الصلاة ، والصبى « السقا » .

كان الصبى ـ سيد الدنك ـ يؤدى عمله اليومى الذى كلفه به أبوه منذ بضعة أسابيع .. عندما قرر اخراجه من الكتاب وتعليمه « الصنعة » ، وكان هذا الواجب اليومى الذى يؤديه « كسقا » مستقل هو حمل القربة الصغيرة إلى حديقة السراية وسقى شجرة « التمرحنة » التى كانت مغروسة فى ربوة مرتفعة لا تبلغها مياه القنوات المتسربة من الحوض .

ووقف « سيد » يصب مياه القربة فى الحفرة المستديرة حول الشجرة الصغيرة ، وبدا الصبى فى عملية الصب ماهرا حاذقا ، رغم حداثة عهده بها ورغم صغر سنه التى لم تتجاوز التاسعة .

كان الصبى نموذجا متقنا مصغرا لسقا ، وقد وقف بجسده النحيل الأسمر .. محنى الهامة واضعا القربة الصغيرة فوق ظهره وقد ارتدى السطيح (١) الجلدى الذى صنعه له أبوه من سطيح قديم له .

وقف « سيد » مرتديا السطيح حاملا القربة على ظهره ، وقد

---

(١) جاكتة جلدية بلا اكمام ، أو على الأصح ، صديرى جلدى يرتديه « السقا » فوق جلبابه ليقيه البلل ، وتشد القربة عليه بسيور جلدية تسمى الحمالات .

امسك بيمناه فوهتها المائلة إلى أسفل ، وانثنى بجذعه قليلا مصوبا الفوهة تجاه الحفرة وترك المياه تتدفق حتى أفرغت القربة ما فى جوفها وامتلأت الحفرة بالمياه وفاضت .

وقد يشعر الإنسان بالرثاء والعطف وهو يبصر بالصبى الضئيل النحيل فى مثل هذه اللحظة المبكره من النهار وعبيد الله ما زالوا فى مضاجعهم يغطون فى النوم ، وهو يحمل القربة تكاد تنقض ظهره ، ويبدو كانما قد حمل من العبء ما لا طاقة له به .

ولكنه لا يكاد يطالع وجهه حتى يبصر به علامات حبور وغبطة تؤكد أن الصبى هانىء سعيد ، وأنه قرير بعمله لا يشعر منه ثقلا ولا ضرا .

وقف « سيد » وقد أفرغ « القربة » فتهدلت فارغة على ظهره ، وبدا وجهه أسمر دقيق التقاطيع ، حلو القسمات ، وأخذ ينفض بيده قطرات الماء التى بللت كمه وذيل جلبابه وتلفت حوله بنظرة فاحصة وجرى بصره بالنوافذ فلم يجد بها عينا ترقبه ، ثم هبط إلى مدخل الحديقة فلمح « عم جاب الله » ما زال قابعا على سجادته منهمكا فى صلاته .

واطمأن « سيد » إلى انعدام الرقابة فسار فى خفة إلى شجرة جوافة مثقلة بالثمار الصفراء المتلئة ، وكان فى أسفل الشجرة من الثمار الناضجة المتساقطة ما يكفى لاشباعه .. ولكنه كان يكره الغنيمة السهلة ، فسرعان ما خلع القربة والسطيح وقفز ممسكا بأحد الفروع المنخفضة ، ثانيا جذعه السفلى ، مبدلا قدميه على جذع الشجرة ، صاعدا عليها كالقردة واخذ ينتقل من فرع إلى فرع حتى استقر على فرع محمل بالثمار ، ولاحت له فى نهاية الفرع ثمرة تكاد تكون أكبر ما حملته الشجرة فصمم على اخذها ، وبدأ تسلقه على الجذع رويدا رويدا ، فلم يكد يصل إلى حافته ويمسك بالثمرة حتى تهاوى الجذع تحت ثقله وهوى به إلى أسفل .

لم يهو « سيد » إلى الأرض .. فقد حال بينه وبين الوصول إلى الأرض سد قام بينهما هو جسد « عم جاب الله » الذى بلغ مسامعه

صوت تسلق الشجرة وخشخشة الأوراق ، فقام ليحقق شكوكه فى الشقى الصغير الذى تعود سرقة الثمار يوما بعد يوم .

وفوجىء « جاب الله » بالصبى يهوى بالفرع على راسه ، فضج بالصراخ والسباب ، ولم يكد يتمالك نفسه ليقبض على الصبى الساقط ، حتى كان قد تناول القربة والسطيح وانطلق هاربا يعدو خارج الدار .

انطلق « سيد الدنك » يعدو بالقربة والسطيح ، ووراءه « جاب الله » الأسود .. يهرول بجلبابه الأبيض وعمامته ، ولم يكد يصل إلى الباب الخارجى حتى توقف مبهوتا فقد وجد أباه « المعلم شوشة الدنك » يقف على الباب بعربته المحملة بالقرب .

وصاح به أبوه فى دهشة :

ــ ما بالك ؟

وتلفت « سيد » خلفه ، فلم يجد « جاب الله » قد وصل بعد فأجاب :

ــ لا شىء .. لقد انتهيت من سقيا الشجرة .

ــ ولم تهرول هكذا عاريا ؟ ان السقا الأصيل لا يخلع السطيح والقربة ويحملهما هكذا فى يديه .. السقا لا يخلع حلته أبدا .. ولو سار بدونهما فإنه يصبح كالعسكرى الذى يحمل بذلته على كتفه .. هل رأيت عسكريا يفعل ذلك ؟

وكان « سيد » ما زال يتلفت خلفه فى ذعر وهو يدعو الله ان يحجز « جاب الله » داخل الحديقة ، وأجاب على سؤال ابيه بقوله :

ــ لا ...

ــ إذا فلم تخلع عنك بذلتك الآن ؟

وقبل أن يجيب كان « جاب الله » قد وصل .. وهو يجدف بساقيه الطويلتين الشبيهتين بالمجاديف .

وكان سبابه و « برطمته » يسبقانه ، وبعد لأى وطول سباب ، عرف المعلم « شوشة » ما كان من أمر ابنه .

واستمر « جاب الله » فى شكواه :

ـــ كل يوم مثل هذا .. يتسلق الشجر ، ويكسر الفروع ويتسلف الحديقة :

ـــ لا تغضب يا عم جاب الله .. ساعلمه كيف يتأدب فى بيوت الناس .. انه لم يعد صغيرا .

ونظر إلى ابنه نظرة وعيد واردف مهددا :

ـــ وإذا كان يصر على أن يبقى صغيرا .. فساعيده إلى الكتاب . ان الخطأ خطئى . لقد ظننته قد اضحى رجلا ، واردت ان أعلمه الصنعة منذ الآن . ارتد السطيح وساعدنى فى دفع العربة أيها الأحمق .

وارتدى « سيد » السطيح ، ثم اخذ فى دفع العربة مع أبيه إلى داخل الحديقة وسارا بها فى ممر بين الأشجار حتى وصلت إلى الحوض الرخامى فحمل الرجل القرب وافرغها الواحدة بعد الأخرى داخل الحوض بعد أن سد البالوعة التى تفرغ المياه فى القنوات .. وأخيرا امتلأ الحوض وافرغت القرب .

وادار المعلم « شوشة » العربة ودفعها إلى الخارج وحيا « عم جاب الله » مودعا :

ـــ لا مؤاخذة يا عم جاب الله .. لن يعود الولد لمثلها مرة أخرى .. ساحضر الدور الآخر فى الضحا إن شاء الله .

وعاد « المعلم شوشة » إلى الحنفية مرة أخرى ليعيد ملء القرب .. وسار « سيد » بجواره ، وهو ينظر إليه من آن لآخر نظرة فاحصة محاولا أن يستشف بها دخيلة نفسه .

اتراه حقا غاضبا عليه ؟ .. امن اجل جوافة او جوافتين يغضب عليه ؟ .. لا .. لا .. انه لا شك يدعى الغضب كعادته .. وهو كذلك لن يعيده إلى الكتاب .

الكتاب .. لعنة الله عليه وعلى اهله اجمعين .. انه لن يطيق الذهاب إليه والرسف فى اغلاله بعد أن تذوق حلاوة الحرية والانطلاق .

لقد علمه ابوه الصنعة ووضعه فى مصاف الرجال ، وهو لن يتنازل عن مركزه بحال من الأحوال .. كانت القربة تثقل عليه فى اول الأمر ..

اما الآن فقد تعود حملها ، ولم تعد تثقل على ظهـره .. حقيقـة انه يستيقظ مبكرا كل يوم ، ولكن الكتاب أيضا كان يضطره إلى مثل هذا التبكير ، فارق بين تبكير وتبكير ، فيما مضى كان تبكير إلى السجن ، اما الآن فتبكر إلى الحرية . انه يرتدى السطيح ويحمل القربة الفارغة ويتجه مع أبيه إلى الحنفية ، فلا يكاد يملأ القربة حتى ينطلق بها إلى السراية ، وانطلاقه وحيدا فى مثل هذا الوقت المبكر كان حلما طالما داعب نفسه .

إن الجوافة والبلح ، وتكميبة العنب ، كلها قد اضحت تحت أمره ، كان فيما مضى يتطلع إليها وهو واقف بجوار أبيه يرقبها خلال ملء الحوض وبنفسه ألف حسرة .. كان « عم جاب الله » يعطف عليه احيانا ببعض « السقط » ، ولكن « سيد » لم يكن ممن يرضون بالحسنة .. ويقتنعون بالسقط .. بل كانت بنفسه لهفة على أن يشب على التكعيبة ويقفز فوق شجرة الجوافة ويتسلق النخلة .. تلك كانت أمنيته التى طالما تاق إليها .

ولقد حققها الله له أخيرا عندما قرر أبوه ذات يوم أن يخرجه من الكتاب ، وأن يبدأ تدريبه العملى باصطحابه معه فى جولاته الساقية التى يوزع خلالها المياه على دور درب السماكين .. ومنعطفاته .. ثم بدأ بعد ذلك يوكل إليه بعض الأعمال المستقلة .. كان اولها واهمها سقيا شجرة التمرحنة فى السراية الكبيرة .

ولم يحاول أن يسأل عن السر فى إسناد هذه العملية بالذات اليه ، بل حمد الله فى سره .. ولم يحاول أن يبدى اغتباطا ظاهرا ، خشية ان يفضح ابوه امره ويكشف نواياه .

واليوم — وقد فضحه عم جاب الله — لا يدرى ماذا يخبىء له القدر .

على اية حال لا يظن القدر يخبىء له خيرا ، فاقل ما يجزيه به ابوه — إن لم يعده إلى الكتاب — هو ان يحرمه من سقيا التمرحنة ، وبالتالى من دخول الحديقة وحيدا .

لعن الله الطمع .. لقد أخرجت آدم من الجنة تفاحة ، وأخرجته هو من حديقة السراية .. جوافاية .

ووصلت العربة المحملة بالقرب الفارغة إلى الحنفية ؛ وصاح « شوشة » بالمعلم « على دنجل » .. المتربع فى كشكه وراء الحنفية :

— الدور الثانى يا معلم .

— اصبر قليلا حتى املأ هذه الصفائح .

وكانت بضع نساء قد وقفن أمام الحنفية يحملن الصفائح الفارغة متوازنة على قمة رءوسهن دون أن تسندها يد .

ووقف « شوشة » يرقب المعلم « على » وهو يملأ الصفائح الواحدة بعد الأخرى ، وطافت برأسه بضعة خواطر ما لبث ان اجاب عليها بقوله « الحمد لله » .

أجل !! الحمد لله على كل حال .. لقد كان هذا المقعد وراء الحنفية اولى به هو .. لا « على دنجل » الذى لم يحمل فى حياته قربة ولم يملأ زيرا .. انه لا يعرف عن صنعة السقايين ، أكثر مما يعرف هو عن القراءة والكتابة .. ولكنها حظوظ وقسم .. لقد أمضى حياته كلها « مطيباتى » يصفق بيديه ويهلل بحنجرته ، ان له فى الزفف والأفراح ماضيا مجيدا ، فهو يجيد برم الشوارب ، وعوج اللاسة ، والرقص على الوحدة إذا ما استدعى الأمر ذلك ، ومع ذلك فلم يكد يخلو مقعد الحنفية من صاحبه « المعلم برعى » بعد موته حتى عينت الشركة « دنجل » مكانه ، وهو لا يعرف السطيح من القربة ، ولكنها الواسطة التى تذلل كل صعب ، والتى تجعل المطيباتى يستوى على عرش السقايين ، وتترك الوريث الشرعى يتجول بالقرب فى الحوارى والأزقة والدروب .

واستعدل « دنجل » اللاسة على رأسه ، وبرم بأصابعه شاربه ، وصاح بصوت متهلل ، وهو يصفق بيديه :

— يا صباح الفل .

والتفت « شوشة » ليرى صاحبة التحية ، ثم هز رأسه وتمتم لنفسه :

— طبعا .. انها « عزيزة نوغل » لقد اضاع الرجل كرامة المهنة ، وغلب عليه طبع المطيباتى .. بمجرد ان راى المرأة الرجراجة المتثنية .. إن لعابه يكاد يسيل ، وهو يملأ لها الصفيحة .. ويكاد يخترق بعينيه ثوبها المغلق على صدرها البارز المكتنز .

أهكذا يكون تصرف شيخ السقايين ؟ ! يجب أن يكون اثبت من ذلك واكثر رزانة .. إن أمامه حشدا من النسوة والرجال ، ممن لا يخفى عليهم أمر « عزيزة » وسمعتها وسيرتها .. انه سيسىء إلى السقايين ويشين سمعتهم .. ولكن لا .. إن « دنجل » لن يكون سقا .. أبدا .. فهو دخيل على المهنة .. ولا كل من جلس امام الحنفية سقا .. « ولا كل من ركب الحصان خيال » .

واخيرا انتهى ملء الصفائح ، وحل دور « شوشة » فى الملء ، فتقدم إلى الحنفية فى عبوس ، واخذ يملأ قربه .. الواحدة تلو الأخرى ، حتى انتهى منها جميعا دون أن ينبس ببنت شفة .

وتقدم « سيد » بعد ذلك وملأ قربته الصغيرة . وصاح « شوشة » ، وهو يدفع العربة أمامه ، وقد سار ابنه بجواره حاملا قربته :

— تمانيه وواحده صغيره .. الدور التانى .

وتحرك ركب المياه و « سيد » لا يفتأ يرقب وجه ابيه العابس بين آونة وأخرى .

لولا هذا العبوس والصمت لما كان هناك أب مثله ، ولكن حتى مع هذا العبوس والصمت يراه خير اب .. بل خير إنسان .. لشد ما يعجب به ويحترمه ويحبه .. واكثر ما يقوى هذه المشاعر فى نفسه إحساسه بأنها مشاعر متبادلة وبأن أباه ايضا يعجب به ويحبه ويحترمه .

اجل ! انه لا يعامله كما يعامل آباء الحارة ابناءهم .. فهو لا يسبه ولا يضربه ، ولكنه يبين له الخطأ من الصواب ، ويشرح له ما خفى عنه وينصحه ويرشده ، فإذا ما اخطأ .. وهو غالبا ما يخطىء .. لأن الخطأ دائما احب وأسهل من الصواب ، لامه فى رفق ، فإذا كرره ، وهو غالبا

ما يكرره ، زجره فى شدة .. فإذا لم يزدجر أوقع عليه عقابا نفسانيا .. كأن يخاصمه أو يحرمه من بعض مزايا الرجولة التى كان يمنحها له .. ولم يكن أقسى على نفسه من هذين العقابين .

وتوقفت العربة أمام الدار الأولى .. دار « أم عبد الله » القائمة فى مواجهة احدى الأزقة المسدودة التى يمتلىء بها الدرب .. وتقدم « شوشة » إلى الباب الخشبى المغلق فدق « سقاطته » الحديدية بضع دقات متوالية .. وبعد برهة سمع صوتا نسائيا من وراء الشبكة الخشبية لنافذة سفلية تجاور الباب ، يصيح بلهجة ممدودة منغمة :

ــ مين ؟

واجاب « شوشة » بصوته الأجش :

ــ السقا .

وعاد الصوت يصيح :

ــ يا واد يا عبد الله .. افتح لعمك شوشة .

وفتح الباب صبى صغير يناهز عمره عمر « سيد » ولم يكد يبصر « سيد » وهو يتقدم أباه بالقربة حتى هتف به مرحبا :

ــ ازيك يا سيد .. تلعب بلى ؟

وأجاب « سيد » فى لهجة الرجل الجاد :

ــ بلى .. اصطبح وقول يا صبح .. وسع الطريق .

وتقدم « سيد » يعبر الفناء المظلم الصغير ، وصعد بضع درجات ، ثم دلف من باب على يمين الداخل ولمح « أم عبد الله » جالسة على شلتة وأمامها « كنكة القهوة فوق وابور السبرتو » فحياها بنفس اللهجة الرزينة .. محاولا جهده أن يخشن من صوته :

ــ صباح الخير يا خالتى « أم عبد الله » .

ــ صباح الخير يا خويه .

وتبعه صوت أبيه قائلا بنفس اللهجة :

ــ صباح الخير يا خالتى « أم عبد الله » .

ـــ خير عليك « يا معلمْ شوشه » .. عايزه قربه زياده فرغها فى طشت الغسيل ، واملا الصفيحه كمان .

واتجه « شوشة » يسارا فى صمت ، ودلف من باب المطبخ وعبر الدهليز المظلم المفضى إلى الحمام .. وبحاسة التوجيه .. ـــ إذ كان النظر متعذرا تماما ـــ أخذ فى ملء الأزيار والصفائح والطشت وغيرها من مستودعات المياه الخالية .

ووضع « سيد » قربته فى أول شت صادفه ، ثم استدار إلى الخارج ، وفى الفناء لقى « عبد الله » مرة أخرى .

وعاد « عبد الله » يسأله فى إصرار :

ـــ تلعب بلى ؟

ـــ العب .

ـــ امتى ؟

ـــ بعد التشطيب .

ـــ يعنى بعد الضهر ؟

ـــ ايوه !

ـــ طيب .. اكون انا جيت من الكتاب .

ـــ نتقابل فين ؟

ـــ عند السبيل .

وكان أبوه قد انتهى من تفريغ القربة ، فتبعه إلى الخارج وسار يدفع معه العربة إلى بقية الدور .

وانتهى الدور الثانى ، ولم يعد « شوشة » بعده إلى الحنفية ليملأ الدور الثالث ، بل اتجه إلى نهاية الدرب ، ثم دلف يمينه واوقف العربة بجوار الرصيف بعد بضع خطوات ودخل دكانا وضعت على واجهته لافتة كبيرة .. كتب عليها « فول الأمرا » .

كان مدخل الدكان قد سد معظمه بمنضدة طويلة .. وضع عليها قدر نحاسى احمر لامع ، وفى أسفله دروة صفراء سوداء ، حجبت وابور

الغاز الذى أخذ يئز بشدة ، ومن فوهة القدر تصاعد بخار أبيض .. ووراء المنضدة وقف « عم سلامة » بكبشته ذات اليد الخشبية الطويلة .. وهو لا يكف لحظة عن الدندنة .. وبجـوار القدر قد وضـعت قصعتان ، بإحداهما سلطة توطة ، وبالأخرى سلطة لبن ، وبجوارهما صينية نحاسية صفراء فرشت بعروق البقدونس ورصت فوقها الطعمية الساخنة ، وأمام المنضدة وخارج الحانوت وضـع قفص رصت عليه الأرغفة .

وراء « عم سلامة » وقف « زكى الحدق » صبيه ، وقد أخذ يدفع بيده أسطوانة وابور الغاز الكبير المتصلة بالوابور بأنبوبة رفيعة .. طويلة ، وفوق الوابور استقرت طاسة كبيرة مليئة بالزيت ، قد طفت فوقه أقراص الطعمية .

وقلب « زكى » الأقراص ، ثم رفع الناضج منها فوضعه فى مصفاة من الصاج بأسفلها طبق لتلقى الزيت المتساقط من أقراص الطعمية ، وبين آونة وأخرى يتلفت « عم سلامة » لينقل محتويات المصفاة إلى الصينية التى أمامه المفروضة بالبقدونس .

وبجوار « زكى » من الداخل وقف « حريشة » يجهز المواد الأولية ويخرط البصل والكرات فوق الفول المنقوع مع بقايا العيش المكسر ، ثم يصب الخليط فى الجرن الحجرى المثبت فى أحد الأركان ويرفع القائم الحديدى فيدفعه فى جوف الجرن ، ثم يأخذ فى طحن الخليط .. محركا اليد فى جوف الجرن بحركة دائرية طاحنا الخليط بين حديد اليد وحجر الجرن .

هذا هو « مطعم الأمرا » وتلك هى محتويات مطعم الأمرا .. عدا بضع مناضد خشبية تناثرت داخل الدكان جلس عليها .. جزء من الأمرا أنفسهم .. أما الجزء الآخر فقد ضاق به المكان فتربع فى الهواء الطلق على حجر الرصيف .

و « عم سلامة » قد سبق الأمريكان فى ابتكار طريقة « ساعد نفسك » فليس لديه جرسون يقوم بالخدمة ، بل هو يلزم زبائنه من الأمرا بالتوجه

إلى صينية متسعة رصت عليها الأطباق فيأخذ كل منهم ما يلزمه منها ويتقدم إلى « سلامة » فينقده الثمن ويأخذ منه ما يريد ويحمل طعامه إلى المنضدة أو على قارعة الطريق ، فإذا ما انتهى من الأكل كان عليه أن يتقدم إلى الحوض ليغسل الأطباق ويضعها مكانها قبل أن ينصرف .

ووزع « شوشة » التحيات يمينا ويسارا على الجالسين ، وكان جلهم معرفة وأصدقاء .. فعلى باب الدكان كان يستقر « محمود مسطرين البنا » الذى كان يأبى الجلوس على المناضد لاعتقاده أن « عم سلامة » يضع رسم جلوس عليها بخصم جزء من الفول ، فهو لا يشك أن كمية الفول المغروفة لزبائن الرصيف أكثر من تلك المغروفة لزبائن المنضدة ولذا فقد طلق المنضدة ثلاثا .

وبجواره .. على الرصيف أيضا .. يجلس « حسين القرداتى » ومعه سلامة (القرد) وزكية (المعزة) وكان دخول الدكان محرما عليهم اتقاء ما يثيرونه من مشاكل بين الزبائن لا سيما وأنه لم يكن هناك كثير استلطاف بين « سلامة القرد » و « سلامة الرجل » ، وقد حاول « عم سلامة » كثيرا أن يقنع « حسين » بتغيير اسم قرده منعا للاهانات التى تحدث له نتيجة الخلط بين الاسمين ، ولكن « حسين » لم يقتنع بتاتا ، وقال له فى دهش : انه لا يستطيع أن يتصور كيف يكون (قرده) أى شىء غير « سلامة » ، وان خيرا له إذا كان متضررا من تشابه الأسماء أن يغير اسمه هو . !

وفى داخل الدكان كان يجلس « على الحمى المبيض » و « محمود الخشت الجزار » و « زكى زين الخضرى » وثلة أخرى من جيران « شوشة » فى درب عجور .

وتقدم كل من « شوشة » و « سيد » فأخذ طبقا واتجه به إلى « عم سلامة » ، ودون أن ينبس « شوشة » ببنت شفة ملأ له « سلامة » طبقه فولا ، ثم رش عليه بعض الزيت من احدى الزجاجات الموضوعة بجواره ، وغرف له فوق الفول بعضا من « سلطة القوطة » ووضع

له نصف ليمونة ثم سلمه الطبق فعاد به إلى منضدته بعد أن تناول رغيفا وجلس يأكل بطريقته العبوس الصامتة .

وجاء دور « سيد » ، وقبل أن يمد يده بالطبق صاح بعم سلامة :

ـــ الفول كويس ؟

ـــ ورد .

ـــ مستوى ؟

ـــ زبده .

ـــ طيب هات طعميه .

ويبدأ « عم سلامة » فى عد الطعمية ، ولكن « سيد » يراجع نفسه بعد لحظة ويصيح بالرجل :

ـــ والا أقول لك . . هات فول .

ويعيد الرجل الطعمية إلى الصينية فى صبر وأناة ، ويبدأ فى غرف الفول ، ثم يهم بوضع الزيت عندما يصيح به « سيد » :

ـــ لا . . زيت حار وحياة أبوك .

ـــ عينيه يا معلم سيد .

ويشعر « سيد » بكثير من الفخر وهو يسمع الرجل يناديه « بمعلم » ويشد السطيح الجلد على جسده ويصلح حمالات القربة الفارغة .

فإذا ما انتهى « سلامة » من وضع الزيت وهم بوضع سلطة القوطة صاح « سيد » :

ـــ لا . . سلطة لبن أنا ما أحبش سلطة القوطة .

ـــ أمرك .

ويضع « سلامة » سلطة اللبن وهو يذكر أن الشقى الصغير قال له بالأمس وهو يهم بوضع سلطة اللبن عكس ما قال اليوم وأنها مسألة إمارة لا أقل ولا أكثر .

وبعد أن وضع له السلطة ونصف الليمونة أمسك « سيد » بالطبق والرغيف وهمس بصوت أقل تواضعا :

ـــ اديني طعمايه بقى .

وضحك « عم سلامة » وناوله « الطعمياية » فدفع بها فى فمه واكلها قبل أن يراه أبوه .. لقد كان يعلم جيدا ان اباه لا يقــر هذه الطريقة ، ولكنه يحب الطعمية ويحب الفول ، وهو يرى أن أباه دائما يختار صنفا واحدا من هذه الأصناف ، ويكره ان يكلفه اكثر مما يحتمل .

ويذهب « سيد » للأكل ، ويواصل « سلامة » عمله وهو يترنح طربا بين آونة واخرى بجسده السمين الأبيض ، وشاربه الكثيف المتهدل على شفتيه وعينيه المنبعجتين « المبكررة » وأجفانه المسبلة ، والفوطة البيضاء الملوثة بماء الفول والزيت والطماطم مرسلة على صدره وبطنه ، والطاقية البيضاء غاطسة حتى أذنيه .

وانتهى « شوشة » وابنه من الاكل وغسل كل منهما يديه وطبقه واعاده إلى موضعه على صينية الأطباق ، وقبل أن يغادر الدكان صاح « سيد » فى صوت الرجال مخاطبا « حريشة » و « زكى الحدق » صبى « عم سلامة » :

ــ عنكم يا رجاله !

واجابه الصبيان فى صوت واحد :

ــ عشت يابو السيد .

ثم عاد يهمس فى صوت خافت لا يسمعه سواهما :

ــ النهارده بعد الضهر عند السبيل .

وسأله « حريشة » وهو يدير اليد فى الجرن :

ــ فيه إيه ؟

وأجاب سيد باختصار :

ــ بلى .

واعترض « زكى » وهو مستمر فى قلى الطعمية :

ــ مافيش معايه ولا بليه .

ــ اسلفك .

وأسرع بلحاق ابيه خارج الدكان وهو يصيح :

ـــ سلامه . . أمك فى العش والا طارت ؟

واحمر وجه « عم سلامة » السمين الأبيض وبدا عليه الغضب ، والتفت « شوشة » إلى ابنه ناهرا ؛ ولكن « سيد » هز كتفيه واردفه يقول فى غير اكتراث :

ــ قصدى . . سلامه القرد .

وضحك « حسين » القرداتى وقرع الرق فى مرح ومجون ، ونظر إلى « سيد » بعينه الواحدة الباقية به :

ــ رد على أخوك يا سلامه .

وبعد فترة قصيرة أردف يقول لسيد مقهقها :

ــ بيقول لك . . أبوك السقا مات .

وهم « سيد » بأن يجيب . . ولكن اباه جذبه من يده ناهرا ، ولكنه رفض ان يخرج من المعركة منهزما ؛ فصاح وهو يهرول وراء ابيه :

ــ امك تمشى ع الحيط . . يحموا أبوك فى كنكه .

وصاح حسين مقهقها :

ــ قديمة .

وعاد « سيد » يجيبه وهو مستمر فى هرولته :

ــ ويعنى أبوك السقا مات . . جديدة . . يابن القديمة .

وضج الجالسون فى المطعم بالضحك ، وتعالت كلمات الاعجاب بسيد من كل جانب .

ووصل « شوشة » بعربته حتى وصل إلى الحنفية ، وملأ الدور الثالث ، وحاول « سيد » أن يملأ قربته ، ولكن أباه قال له في لهجة مقتضبة :

ــ كفايه دورين .

كان « شوشة » يتبع فى تدريب ابنه برنامجا موضوعا . . بداه باصطحابه جالسا على العربة بجوار القرب . وبعد بضعة أيام امره بالسير بجواره ، وبعد بضعة أيام أخر امره بدفع العربة معه . . ثم بدأ يحمله القربة الصغيرة فارغة وبعد بضعة أيام ملأها له وتركه

يفرغها فى أول بيت ، وبعد ذلك اصطحبه إلى « السراية الكبيرة » وأمره بسقى التمرحنة .. كواجب يومى مستمر .. ثم أضاف إليه بعد بضعة أيام أخر دورا ثانيا فى بيت « أم عبد الله » .. وهكذا كان يتدرج به فى التدريب .

وكان الدور الثالث سيفرغ فى السراية .

ولم تكد العربة تصل إلى بابها حتى أمر « شوشة » ابنه بالوقوف فى الخارج .

ووقف « سيد » أمام الباب ، وهو يهز رأسه آسفا .

أهكذا قد حرم عليه الدخول إلى الجنة .. ولمه ؟ .. من أجل جوافاية لا هنا ولا هناك ؟

لا . لا . يجب أن يعطيه أبوه فرصة أخرى . هذا ظلم .

وعندما انتهى أبوه من تفريغ القرب فى الداخل وخرج يدفع العربة من الباب الكبير .. رفع إليه « سيد » رأسه متسائلا :

ــ لماذا لم تدعنى أدخل معك ؟

ــ لأنك لا تؤتمن على الدخول .

ــ كيف ؟

ــ الا تدرى كيف ؟ !

ــ لا ...

ــ لأنك سرقت الجوافه من الشجره ، وأول رأسمال السقا .. هى الأمانه .

ــ ولكن ما فعلته ليست سرقه .

ــ ما هى السرقة إذا ؟

ــ هى أن تأخذ ما للمحتاج لغير المحتاج .

ــ ما شاء الله .. من قال لك هذا ؟ .

ــ شىء بالعقل .

ــ السرقة هى أن تأخذ ما ليس لك .

ـــ من قال هذا ؟
ـــ ربنا .
ـــ لا أظن ربنا يقول هذا !
ـــ استغفر !
ـــ أستغفر الله العظيم .. ولكنى مع ذلك أصر على أنه لا يقول هذا .
ـــ ماذا يقول إذا ؟
ـــ أعتقد أن أخذ ما للغير إذا كنا فى حاجة إليه أكثر منه لا تعتبر سرقة .. انها مساعدة منا لله فى توزيع نعمه .. وإقرار عدالته .. فنحن فى الواقع لا نأخذ ما للغير ، ولكنا نأخذ ما لله الفائض عن حاجة الغير ، انها معاونة لله لا أكثر ولا أقل .. أفيغضب ذلك الله ؟

ـــ الله ليس فى حاجه إلى معاونة احد .. وهو أدرى بتوزيع ماله على عبيده ، ونحن أعجز عن أن نحكم على حاجات سوانا .. إن فينا من الأنانية ما يعمينا إلا عن حاجتنا .. فما من بشر يحس بحاجة غيره .. وما من بشر يحس بالفائض عن حاجته .. فهو أبدا فى حاجة ، وغيره فى غير حاجة .

ـــ على أية حال لا أظن أهل السراية فى حاجة ماسة إلى الجوافاية التى كنت ساكلها .

ـــ ولا انت ايضا فى حاجة ماسة إليها ، ولكن المسألة أن الله وهبها لهم ولم يهبها لك .. ولكل ما وهبه الله .. وواجبنا فى هذه الحياة هو أن نخلص فى عملنا ، ونتقبل بعين قريرة نتيجة هذا العمل .

ـــ وهذا ما كنت أنويه فعلا ، لقد أخلصت فى الصعود على الشجرة ، وأؤكد لك انه لم يكن بالعمل الهين ، بل كان يحتاج إلى جهد كبير ، وكنت أنوى قبول الجوافايه .. نتيجة هذا العمل .. بعين قريرة ، ولكن لم يحدث قسمة .

ولم يستطع الأب العبوس أن يمنع ضحكته وقال لابنه :

ـ نتيجة هذا العمل .. كان يجب ان تكون دق عنقك فهذا ليس عملك الطبيعى ، بل هو عمل شرير خرجت به عن جادة الصواب .

ـ على أية حال .. هذه هى المرة الأولى ، ويجب أن أعطى فرصة اخرى .

ـ حسن .. ساعطيك فرصة اخرى .. ستستمر على سقى التمرحنة .

واحس « سيد » بالغبطة تملأ جوانحه .. وشعر بامتنان كبير لشجرة التمرحنة .. انها فى حد ذاتها لا شىء ، لانها لا تجديه نفعا ، فهو لا يهتم كثيرا بالتمرحنة ، ولا بالورد او الفل او غيره من الأشياء التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

ولكن اباه يوليها اهتماما خاصا .. فهو لم يتركها مرة واحدة بلا سقيا .. وقد كانت سقياها أول واجب كلفه به ، وأول امتحان لرجولته ، واختبار لمقدرته .. وكانما يود أن يغرس فى قلبه نفس اهتمامه بها ورعايته لها .

ولقد نجح « المعلم شوشة » إلى حد ما فى غرضه ، إذ بدأ « سيد » يعتبر الشجرة ذات مركز خاص ، ويضعها فى مصاف الشجر المثمر من أمثال الجوافة ، والعنب ، والرمان .. قد تكون حقا غير ذات نفع مباشر له .. ولكنه كان يراها السبيل إلى بغيته .. لقد كانت بالنسبة إليه مفتاح الجنة .

حيا الله التمرحنة ، وشجرة التمرحنة وساقى التمرحنة .

الفصل الثانى

فى قبضة زمزم

انتصف النهار ، وانتهى « المعلم شوشة » من توزيع المياه على درب السماكين ، واحس « سيد » بحركة فى أمعائه ، وهى اول بوادر الجوع ، وبداية النداءات المطالبة بالطعام فى باطنه .

ورفع راسه إلى ابيه مترجما حركة أمعائه سؤاله على سبيل التذكير والاطمئنان :

ـــ احنا رايحين نتغدى ؟

وأجابه الرجل بايماءة من راسه كانما يبتاع الكلام .

ويحه .. لم لا يتكلم ؟ إن « سيد » فى حاجة إلى الدردشة ، والاخذ والعطا فى مسالة الأكل من باب التصبير ، وتهدئة الأمعاء .

ولم يحتمل « سيد » الصمت .. كان لسانه يتململ فى فمه .. كان ما سلب من نشاط لسان ابيه وضع فى لسانه .

ومرة اخرى رفع راسه إلى أبيه ، وهما يدفعان العربة امامهما ، وعاد يسال :

ـــ حانتغدى ايه ؟

ـــ إيه رأيك انت ؟

سؤال طيب .. انه خير وسيلة لفتح باب الدردشة .. وانطلق

« سيد » يقول بحماس :

ــ عندنا تلات غدوات : الأولى فى مطعم الأمرا ، سمك مقلى .. أو كسبريه بالطماطم والبقدونس والبصل .. والغدوه التانيه فى مسمط « خالتى زمزم » طبق فته بشربة الكوارع .. وكوارع إذا امكن .. أو لحمة راس وممبار .

وصمت « سيد » برهة ليزدرد ريقه ، ونظر إلى ابيه من جانب عينيه ليرى وقع حديثه عليه ومدى استعداده لقبوله ، ولكنه لم يستطع ان يستبين من وجهه الجامد العبوس شيئا فعاد يتمم حديثه قائلا :

ــ أما الغدوه التالته ففى دكان الاسطى مخيمر .. مكرونه بالصلصه هايله ، وكشرى بجبته ، عجيب .. وكبده بالشطيطه مدهشه .

وتطلع « سيد » مرة اخرى إلى وجه ابيه ، عله يجد صدى لرغباته ، ولكنه لم ير سوى العبوس والجمود .

وأخيرا لم يجد بدا من سؤاله ، فهتف صائحا فى حماس :

ــ أيه رايك ؟

ــ احنا حناكل جبنه وبطيخ مع ستك « أم آمنة » فى البيت عشان هيه قالت لى من كام يوم إن نفسها فى اكلة جبنة وبطيخ .

جبنة وبطيخ ! لشد ما جاء الجواب مخيبا لآماله .. لقد كان فى واد وأبوه فى واد آخر .. كان فى وادى الكسبرية ، وفتة الكوارع ، وكبدة الشطيطة .. وكان أبوه فى وادى الجبنة والبطيخ .. وشتان بين الواديين .

« ست أم آمنة » نفسها فى الجبنة والبطيخ ؟ ! وما ذنبه هو ؟ لتأكل هى جبنة وبطيخا ، او جبنة وشماما ، أو جبنة وزفتا .

وزفر « سيد » من انفه زفرة شديدة ، وهما يقتربان من درب عجور .. ولاحت لعينيه لافتة ، فوق حانوت على ناصية الدرب كتب عليها « مسمط الحاجة زمزم » وأسفلها كتب « ادخلوها بسلام آمنين » ، وأسفل اللافتة استقرت « الحاجة زمزم » على دكة خشبية فى مدخل

الحانوت ، وعلى سيمائها ما يناقض الآية المكتوبة على اللافتة ، او ما يشعر بفرط حاجة الداخل إليها .

لم يكن يبدو على « الحاجة زمزم » ما يوحى بسلام ولا امن .. كانت امراة شر بكل ما فى معنى الكلمة .

استقرت « الحاجة زمزم » متربعة على الدكة ، وتهدلت من حولها كتل اللحم المحيطة بها .. وقد بدت طيات فوق طيات ، كل طية تستقر متهدلة فوق الطية التى اسفلها ، وهى فى جلستها على شكل هرم تتكون قاعدته من الأرداف والأفخاذ ، والسيقان ، وقد انبعجت أطرافها ، وبرزت إلى الخارج من فرط الضغوط بين الشحوم ، وبين خشب الدكة نتيجة لثقل الجسد الواقع على القاعدة .

والطبقة الثانية التى تلى القاعدة تتكون من بطنها ، ومن محيط الشحم الملتف حول خصرها ، وهذه الطبقة فى ذاتها مكونة من بضع طيات متعرجة متتالية كانها الصاج المعرج ولكنه صاج لين طرى .

والطبقة الثالثة التى تلى طبقة البطن تتكون من صدرها وشحم ظهرها الذى يظهر ببروز وراء قفاها وتحت ابطيها كانه سنام الجمل ، وهذه الطبقة ليست متصلة المحيط ، بل تتكون من ثلاث كتل رئيسية هى الثديان وسنام الظهر وشحم الابطين .

وعلى قمة الهرم تستقر الرقبة والراس ، وفوق ذلك كله تبدو « الأمطة » الحمراء تعصب الراس ، وكانها علم احمر ينذر بالخطر الكامن اسفله .

ذلك هو الوصف العام « للحاجة زمزم » باعتبارها هيئة طبيعية مستقرة فى باب المدخل ، فإذا حاولنا أن ندخل فى التفاصيل لفت نظرنا فى القاعدة قدمان مخضبتان بالحناء قد أحاط بهما خلخالان وبدت قاع القدم مشققة اشبه بالخف لم يجد معها دعك باللوفة أو صقل بالحجر .. فإذا كانت لدينا الجراة فى أن نحاول ان نكشف عما فوق الخلخال وجدنا أطراف سروال شيت احمر يبدو « مكشكشا » من أسفل الجلباب الأسود الذى يستر الهيئة الهرمية الشحمية . فإذا تركنا الساقين —

اذ لا اظننا بمستطيعين الكشف عن أبعد من ذلك ــ وصعدنا فوق درجات الهرم وجدنا فتحة الجلباب تتسع حول العنق وفوق الصدر ويستقر فوقها كردان ذهبى تتدلى منه سلاسل وشراشيب ذهبية ، وفى الرسغين قد صفت الأساور والغوايش ، وبدا ظاهر اليد أخضر من كثرة ما نقش من وشم عليه .

أما الوجه ففيه اثر من جمال بائد .. اثر باهت شاحب يشير إلى انه هنا كانت امراة .. كما تشير بقايا الطلل من حجارة منهارة إلى انه هنا كان إيوان .

وكما تحاول مصلحة الآثار تجديد الأطلال بخلقها من جديد ووضع حجر جديد مكان كل حجر بال .. فقد حاولت « الحاجة زمزم » أن تفعل بوجهها ما نفعل المصلحة بأطلالها . فمكان الأسنان المتساقطة قد وضعت طاقما جديدا ، ومكان الرموش الهاوية والأجفان المقروحة قد خطت بالكحل خطا اسود عريضا ، ومكان الحواجب المتآكلة قد رسمت حواجب جديدة ، واسفل المنديل الأحمر الذى عصبت به راسها أطلت ضفيرتان مستعارتان غليظتان سوداوان .

و « الحاجة زمزم » تأبى إلا ان تجعل من جمالها مفخرة ، رغم أن لديها من المواهب ما تستطيع الفخر به غير ذلك الجمال الضائع الموهوم .. لديها المسمط ، ولديها الخلاخيل والأساور ، والبيت الملك ، كل ذلك يهيىء لها ثراء ، تستطيع ان تفاخر به اهل الحى .. ولديها السطوة والسلطان والفتونة . فهى بحمد الله ــ فى « درب عجور » كما كان الحجاج بين اهل الكوفة لا يقعقع لها بالشنان ولا يغمز جانبيها كتغماز التين ، ولديها لسانها .. الطويل السليط المؤذى .. الذى تستطيع أن تناضل به أمة من اللئام والسفلة فتقهرها .

لديها كل تلك المواهب ، ومع ذلك فهى تصر على التعلق بالجمال الزائل وهى تأبى إلا أن تحتل فى درب عجور مركز « فتـــاة الحى » بالدراع ، فهى تهاجم كل امراة جميلة .. لم تنج من لسانها واحدة ، ومن

لم تجد بها عيبا اتهمتها بأنها عاهر .

كانت « الحاجة زمزم » تزن حوالى مائة وخمسين كيلو ، منهـــا مائة كيلو أنانية ، فقد كانت ذاتها هى محور كل حركة وكل فكرة وكل تصرفه يصدر عنها .. وكان يبدو كأن كتل الشحم التى تراكمت على جسدها قد اختلط فيها الشحم بمواد متفجـــرة .. فهى أبدا تفـــرقع بالسباب والشتائم وتفيض بالمرارة والحقد .

هى حائرة بين رغبتها فى تصيد الإعجاب بشخصها ، وبين اطلاق شرورها وأحقادها التى تفيض بها نفسها .. لا تكاد تتصـــنع الرقة والدلال حتى تغلب عليها سلاطة لسانها وسفالة خلقها ورغبتها الكامنة فى الشر والأذى .. فهى ترق للقوى فى مواجهته فلا يكاد يوليهـــا ظهره حتى تنهشه بلسانها .. أما الضعيف فتفرغ فيه أحقادها غائبا وحاضرا .

تلك كانت « الحاجة زمزم » ، خالة « المعلم شوشة » السقا ، والزوجة السابقة « لإبراهيم الفرارجى » الذى قد فر منها فرارا وترك لها الحى بأكمله .. بعد أن سودت عيشه وأزهقت أنفاسه ، وتزوج من « حسنة » المسكينة بائعة الفول النابت .

وكادت المرأة تجن عندما هجرها الرجل لا لحبها له .. بل لحبها لنفسها .. فقد كانت تجد فى نفسها شيئا ممتازا عن بقية النساء .. وكانت تأبى أن تقارن نفسها بســـواها ، وكانت لا تكف عن تعـــداد محاسنها والتنقيب عن معايب الغير .. فكيف بها وهى ترى زوجها يفر منها ويفضل عليها اقبح نساء الحى واوضعهن .

كانت صدمة قاتلة لها زادت من حقدها ومرارتها .. فأصبحت مخلوقة لا تطاق .. تعاكس ذباب وجهها ، وتشاكس طوب الأرض .

وكانت « زمزم » تحس بعد هجر زوجها أن الدنيا تناصبها العداء .. فناصبت الدنيا العداء ، ووقفت تناضل فى الحياة وحدها بلا زوج ولا ابن ، ولكنها كانت صلبة العود شديدة المراس .. فاستطاعت أن تصمد ..

واتسع مسمطها وربحت تجارتها وأضحت ذات ثراء لم يبلغه أحد من أهل الحى .

وكان « سيد » يرى اباه شديد النفور من « الحاجة زمزم » ، رغم ما كانت تبديه له « الحاجة » من مودة ظاهرة ، ورغم ادعائها أنه ابنها ، وأن « سيد » ابن ابنها .

وكان « سيد » يكره نفور أبيه من « الحاجة » فهو يراها ذات نفع إذ انها لا تفتأ تخلع عليه المنح بين آونة واخرى ، ما بين قطع المبار والملاليم التى تنفحه بها بين آونة واخرى .

كان « شوشة » يكره منحها ، فقد يعلم أن « زمزم » لا يمكن أن تمنح بقصد المنح ، وأنها لا تدفع إلا لتأخذ اكثر مما تدفع ، وبالفعل صدق ظنه .. إذ تبين له أنها تريد أن توطد الصلة وترفع الكلفة حتى يحمل إليها المياه مجانا فى سبيل أكلة بين آن وآخر وبضعة ملاليم تمنحها لابنه .

لقد كانت تقول انها أمه وأنه ابنها .. لأنها كانت تعلم أن الابن لا يعطى أمه المياه بالثمن ، ولكن « شوشة » لم يخدع بالعطف الظاهر وأصر على التباعد عنها وحرم على ابنه أن يأخذ منها مليما واحدا ؛ وفى المرات القلائل حين كان يهفو إلى أكلة لحمة راس ، كان يصر على دفع ثمنها على « داير مليم » .

وعندما وصلت العربة بحذاء الجانوت تمهل « شوشة » قليلا وبدا كأن فكرة طارئة طافت بذهنه .

ودعا « سيد » ربه أن يهدى اباه ويدخله المسمط ، ورفع راسه إلى السماء وتمتم بصوت خافت :

— لحمة راس . وفتة كوارع يارب .. اللهم ابعد عنا الجبنة والبطيخ .

وفى نفس الوقت انطلقت صيحة من كوم الشحم الرابض على الدكة :

— اتفضل يا معلم شوشه .. اهلا وسهلا .

ولم يدر « سيد » ما الذى غير راى أبيه فجأة ، أهى دعوته إلى

الله ؟ أم دعوة الحاجة زمزم له ؟ فقد توقف الرجل وترك العربة بجوار الرصيف ، وأمسك بيده ، واتجه إلى المسمط .

ولم تكن بالطبع إحدى الدعوتين هى التى غيرت رايه ، بل كانت فكرة خطرت له عندما تذكر مماطلة « الحاجة زمزم » فى دفع القرب المتأخرة ، وعزمه على أن يأخذ الثمن فتة وكوارع ولحمة راس حتى لا يعطيها فرصة الاحتيال عليه .

واستمرت المراة فى ترحيبها :

ـــ أهلا وسهلا بالمعلمين .

واحس « سيد » بنشوة وهو يخاطب بصيغة الجمع مع أبيه ، ورد على تحية « الحاجة » بخير منها قائلا فى لهجته الرجالى :

ـــ اهلا وسهلا بشيخة المعلمات ، وفتوة الحسينية .

وفجأة تناولت « الحاجة » حجرا من كوم حجارة وضع بجوارها ، ورفعت يدها ثم قذفته بشدة فمر فوق راس « سيد » كالصاروخ ، واستقر على راس كلب يهم بالاقتراب من المسمط ، وحمد الصبى ربه انه لم يكون المقصود بالجحر .. فقد ظن وهى ترفع يدها بالحجر فجأة أن وصفه لها « بشيخة » قد أغضبها ، وأنها فهمته بمعنى الكبر فى السن .. لا الكبر فى المقام .

وعدا الكلب يعوى هاربا من المنطقة الحرام .. ورفعت « الحاجة » يدها عن كوم من الأسلحة الخفيفة ، سلاح الكلاب ، والقطط ، وما إليها من أطفال الحي الأشقياء الذين يحلو لهم أحيانا معاكستها . وقبضت بيدها على السلاح الثقيل .. سلاح الزبائن العصاة ، الذين يساومون فى الدفع أو يماطلون فيه وهو « شومة ثقيلة » .. تقرع بها « الدكة » بين آن وآخر على سبيل الإنذار والتحذير .

ودخل « شوشة وابنه » يخوضان فى كوم العظام المتراكم على مدخل المسمط ، والمحرم ـــ بلا ريب ـــ على الكلاب والقطط .. وحييا « جاد » صبى « الحاجة زمزم » والمتولى شئون المسمط ، وهو قزم معوج

الساقين ، بارز الذقن لا يقل شرا وسفالة عن معلمته .. وهو المخلوق الوحيد الذين يمكن أن يحتملها ويداوم على العمل معها ، فقد استطاع أن يصمد فى العمل معها قرابة الخمسة عشر عاما منذ أن كان صبيا فى الثانية عشرة . وقد تبدل جميع عمال المسمط عداه ، إذ كان يربطه بالحاجة رابطة متينة من سوء الخلق والكره المتبادل جعل كليهما لا يستغنى عن الآخر .

كان « جاد » يتخيل رأسها فى كل رأس يشجه ، ولسانها فى كل لسان يقطعه ، وكان يشعر بلذة من عملية الشج والقطع ، ويدعو الله فى كل ضربة ساطور .. أن يضعها أمامه فوق « الأرمة » ويمكنه من زمارة رقبتها .

وكانت « الحاجة » بدورها تتخيله فى كل كلب عاو هشمت رأسه . وفى كل زبون مضروب حطمت ضلوعه ، وكانت تدعو الله أن يريها « جادا » كومة من العظام ، كذلك الكوم المستقر أمام مدخل الحانوت .

وهكذا كان يجمعهما — غير حاجة كل منهما إلى الآخر — شعور من الحقد والبغضاء .. كان كل منهما ينميه فى الآخر ويبقيه دائم اليقظة .. فكما يشعر بعض الفنانين برغبة دائمة فى الحب ، وحاجة إلى ما يوقظ حسه ، ويرهف مشاعره .. كانت « زمزم » و « جاد » يشعران برغبة دائمة فى البغض وحاجة إلى ما يوقظ حقدهما ، ويؤجج غضبهما . لقد كان كلاهما فنانا فى الشر ، عبقريا فى الأذى .

ووقف « جاد » وراء القزان الكبير الذى يتصاعد منه البخار . بفكه السفلى العريض ، وذقنه البارز ، وحواجبه الثقيلة ، وأنفه المعوج الشبيه بالمنقار .. وقد بدا شديد الشبه بالشياطين والزبانية .. ثم أخذ يجهز بعض الطلبات على الأرمة الخشبية ووضعها فى الأطباق الصغيرة .. ودفع بها إلى صبى وقف ينتظر بجواره ، وقد بدا صورة طبق الأصل منه وهو ابنه « حنفى » الذى يعاونه فى خدمة الزبائن .

ولم يكن الحانوت مزدحما ، فقد خلا إلا من بضعة زبائن تناثروا

فى الأركان واقبل كل منهم يتناول طعامه فى سكون عدا واحد بدا وجهه غريبا على « شوشة » وابنه « سيد » .

كان الزبون الجديد كهلا يرتدى جلبابا من « الدمور » المخطط ، وجاكتة قديمة ، نحلت ياقتها وكيعانها وأطراف أكمامها ، وبرزت البطانة من عدة مواضع ممزقة فيها ، وفى قدميه حذاء بال أجرى ، لا يعرف له لون ، قد جدد نعله بقطعة من كاوتش سيارة ، وربط إحدى فردتيه بقطعة من الدوبارة ، وتدلى لسان الأخرى من الفتحة الخالية من الرباط ، وارتدى جورب صوف كاكى طويل من جوارب السلطة ، قد تهدل من ساقيه الرفيعتين المساوين ونزل فوق الحذاء .

والرجل على كبره يبدو لطيف الملامح ، بشوش الوجه ، تهدل شاربه الأبيض على شفتيه فأخفى العليا ، وأبرز السفلى وتناثرت الشعيرات حول ذقنه ورقبته .. فكست وجهه شبه وبرة بيضاء .

ومع كل مظاهر البهدلة البادية على الرجل نجد الطربوش الأسود الزيتى المنهار الجوانب ، المندوق الزر ، قد استقر على حاجبه الأيسر فى ميل شديد ، كاد يختل معه توازنه .. مؤكدا أن صاحبنا ما زال محتفظا بعياقة معنوية شديدة .. وأنه رغم أن طاقته المادية عاجزة قد باعدت بينه وبين الفخامة والأبهة بعد السماء عن الأرض .. إلا أنه اصر على الا يخذل .. وأن يستعمل من وسائل الأناقة والعياقة ما أبقاه له الذى اخنى عليه كما أخنى على لبد .. فأمال الطربوش على حاجبه .. ووضع فم السيجارة بالعقب فى جانب فمه .

ذلك هو « شحاتة أفندى » كما ابصره « شوشة » وابنه « سنيد » .. ليس به من مظاهر الأفندية غير الطربوش والجاكتة ، بادى الانسجام والسرور .. لا يكف عن التلفت يمنة ويسرة .. حتى يستقر بصره على الهرم الأكبر الجالس على الدكة .. ترفرف على قمته « الأمطة » الحمراء .

ولا يكاد بصره يستقر على وجه « الحاجة زمزم » .. ذى التجاعيد

والهضاب والوهاد .. ولا تكاد تلتقى الأعين حتى تتحرك حواجبه مرتفعة منخفضة بطريقة آلية .

وهكذا يتضح من حركة « شحاتة افندى » .. أنه يصوب سهام غزله إلى الهرم الشحمى .. بادئا بتلعيب حواجبه .. متابعا هجومه الصامت بهجوم ناطق ، قائلا وهو يمصمص بشفتيه .. ويهز راسه فى شبه أسف وطرب :

ــ « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشى » .

ويبدو واضحا أن هجومه قد أصاب الهدف ، وهو لابد أن يصيبه . فقد كان الهدف ــ من ناحية الحجم ــ أضخم من أن يخطئه مصوب ولو كان أعمى . ومن ناحية الحساسية كان الهدف نفسه يتصيد كل هجوم أيا كان نوعه .. فإذا كان هجوم غزل ، فليس أحق به منها .. لأنها ــ كما تعتقد فى نفسها ــ أجمل أهل الحى .. وإذا كان هجوم عراك .. « فأدها وأدود » .. لأنها أيضا أقوى أهل الحى ذراعا ، وأطولهم لسانا .

وظهر تأثير هجمات « شحاتة أفندى » على الهرم الأكبر .. عندما بدأ الهرم الأكبر يتمايل ويهتز طربا ، ثم يطلق ضحكة ناعمة نسبيا ، ويهز رأسه المعصوب بعلامة الخطر ، وينشد مترنما : « يا نور العيــون آنست » .

وصلت الأغنية إلى أذن « شحاتة أفندى » فاعتبرها بمثابة تحية له ورد على غزله ، واستسلام لهجومه ، فأطلق القذيفة الثانية فى صورة أغنية أخرى ، متابعا نجاحه صائحا ، وهو يهز رأسه طربا « ياما انته واحشنى وروحى فيك » .

وهكذا استمر الغزل فى صورة أغنيات .. يتبادلها الطرفان ، حتى وقف « حنفى » بطبق لحمة الراس والعيش والطرشى ووضعها على المنضدة أمام « شحاتة أفندى » .

وكف « شحاتة افندى » عن الغزل مرة واحدة ، لا تلعيب حواجب ،

ولا إنشاد أغانى ، ولا طرب ، ولا هز رأس ، وحملق فى الأطباق حملقة نهم مسغب .. لم يذق طعاما منذ أسبوع . وانصرف بكليته إلى الصبى حنفى ، معرضا تماما عن « الحاجة زمزم » منكرا إياها كل الانكار ، كأن لم يكن يناديها منذ لحظة : « ياما انت واحشنى وروحى فيك » .. وكأنما كان هذا القول موجها إلى كرشة الخروف .. لا إلى كرشة « الحاجة زمزم » .

واقبل « شحاتة أفندى » يفحص الطبق .. ويقلب الكرشة والمبار .. وقطع لحمة الراس .. وهم « حنفى » بالانصراف عندما صاح به « شحاتة » فى لهجة آمرة :

ـ اسمع يا ...

ـ محسوبك حنفى .

ـ اسمع يا حنفى .. عايز جوهرة .. ونص مخ مع نص لسان .. بس كده خليه يوضبهم على كيفك .. وهات كمان شوية شوربه .

وبدا الدهش على « حنفى » إذ لم تكن الطلبات لتتناسب مع مظهر صاحبنا .. وبدا عليه التشكك فى جدية طلب الرجل وفى استطاعته دفع ثمنه .

وأدرك « شحاتة » معنى نظرة الصبى فقال من باب التطمين والتأكيد :

ـ هات .. هات .. مافيش فرق بينى وبين الحاجه ، ما بين الخيرين حساب .

ورفع « حنفى » كتفيه كأنما يقول « وأنا مالى .. انت اللى حتاكل ، وانت اللى حتدفع » .

ووصل إلى مسامع « شوشة » قول الرجل « ما بين الخيرين حساب » ، فلم يشك فى أن الرجل لم يعرف « الحاجة زمزم » جيدا .. وانه خدع باستسلامها لغزله ، وإلا لما ادخلها فى زمرة الخيرين .

وحمل « حنفى » طبق الفتة وطبق الشوربة والكوارع إلى شوشة

وابنه ، ثم عاد ليحمل بقية الطلبات إلى شحاتة أفندى .

وانهمك الكل فى الأكل فلم يسمع منهم صوت ولا ألقى أحد منهم بالا لأحد .. كان الاهتمام كله مركزا بين الفم والأطباق ، وكان « سيد » متلهفا على فتة الكوارع فهو يحبها وقد مضى عليه بضعة أشهر دون أن يتذوقها ، فاللقاء بينهما على وحشة وطول فرقة .

وكان « سيد » ما فتىء يراقب جاد فى عملية الفت ، وتمزيق العيش ووضعه فى الطبق ، وكان يود لو ينهض لمساعدته ، ثم أخذ يراقب الشوربة والبخار يتصاعد منها وهى تهبط فوق العيش فتلين صلابته وتدلك صرح لقماته ، وهكذا لا يلبث خليط العيش والشوربة حتى يستحيل إلى كتلة طرية متماسكة كصدر العذراء .. ليونة وسخونة ، ويبدأ بعد ذلك ، فرش الرز ، واللئيم « جاد » يأبى إلا أن يرقق طبقة الفرش كأنما ينزعها من جلده .. رغم أن « سيد » يحب كثيرا الرز المفروش على الفتة .. ولكن منذ متى كان « جاد » يأبه لرغبات « سيد » أو أكثر من « سيد » ؟ انه سافل لئيم كابنه « حنفى » . ويجىء دور الصلصة ، وإذا كان « جاد » يفرش الرز من جلده .. فهو يسكب الصلصة من دمائه .. إنه لا يكاد يضع المغرفة فى الحلة حتى يخرجها ، ثم يدور بها حول الطبق وبحذاء حافته من الداخل دون أن يسكب منها شيئا كأنما هى عملية تشميم لا أكثر ولا أقل .

ولا يستطيع « سيد » أن يكتم غيظه ، وهو يرى أن المسألة أخطر من أن يسكت عليها فيصيح بجاد :

ـــ عايز صلصه يا عم جاد .. الريحه مش كفايه .

ولا يجد « عم جاد » بدا من أن يسكب بضع قطرات من « الكبشة » ، وهو ينظر إلى « سيد » فى حنق ولسان حاله يقول « بالسم الهارى » .. ويبتسم « سيد » وكأنه يجيبه « ولو » .

ويغفل « سيد وأبوه » بالكوارع عن « شحاتة أفندى » ، كما غفل « شحاتة أفندى » بلحمة الراس والجوهرة واللسان عن « الحاجة

زمزم » ، وعن الدنيا بأكملها ، وبكاد بنسيانه كلية حتى يصل إلى آذانهما ، وقد بلغا قاع سلطنية الفتة ، صوت هدير آت من مدخل الحانوت ؛ فتلفتا تجاه الصوت فى دهش فإذا « بالحاجة زمزم » تزأر قائلة :

ـ بيقول إيه ؟ على الحساب .. حساب مين يا عمر ؟ قول له يدفع بالتى هى أحسن .

وكان القول موجها إلى « حنفى » .. رغم أنه رج الدكان بأكملها وخرق آذان الزبائن جميعا وجعلهم يتلفتون فى دهش ليتبينوا مصدر الزوبعة وليكتشفوا من هذا الذى جرؤ على الاصطدام بـ « الحاجة زمزم » .

وتحرك « حنفى » ليبلغ الرسالة لصاحبها .. رغم أنه لم يكن هناك شك فى أنها قد وصلت لا إلى صاحبها فقط بل إلى سكان الحى المجاور .

ويتتبع الزبائن « حنفى » بأبصارهم ليروا الضحية ؛ فإذا بهم يجدون الصبى قد وقف أمام الزبون الجديد « شحاتة افندى » أو كما عرف بينهم بعد ذلك .. « شحاتة افندى » الهلفوت .

وقف « حنفى » أمام « شحاتة » وقال له بهدوء :

ـ الحاجه بتقول لك ادفع بالتى هى أحسن .

وكان الطربوش أبرز مظاهر العياقة فى « شحاتة أفندى » قد غادر موضع الأناقة وانتقل من الحاجب إلى مؤخرة الرأس ، وكان « شحاتة » قد أتى على جميع ما فى الأطباق وأعلن بالتجشؤ عن مدى شبعه ورضائه .. وبدا فى جلسته قريرا للغاية ، ولكنه لم يتمتع كثيرا برضائه وقرارته .. فقد فاجأه الزئير الصادر من « الحاجة » عندما بلغها الصبى الرسالة .. لا سيما وأنه كان قد بدأ يستعد لمواصلة الغزل .

وبدا الارتباك على « شحاتة » ، وهو ينقل الطربوش بين حاجبيه ومؤخرة رأسه ، ويضع ساقا على ساق ، ثم يخفضها ثانية ، ولكنه حاول التمالك وقال للصبى فى صوت خفيض :

ـــ روح انت .. انا حتفاهم معاها .

أجل .. انه لا شك سيستطيع التفاهم معها .. فقد كانت تذوب رقة وهو يقول لها « ياما انت واحشنى » .. واغلب الظن أن ما اثارها عليه ليس رغبته فى عدم الدفع ، بل انصرافه عنها إلى لحمة الراس .. لعنة الله عليه .. كان يجب أن يكبح جماح نفسه ، وأن يتروى قليلا فلا يندفع إلى اللحمة مثل هذا الاندفاع ، ولكن .. لا بأس عليه .. سيعرف كيف يسترضيها ، ويدير رأسها ، ويأكل مخها ، ويلين لسانها .. فى سبيل لحمة الراس والمخ واللسان .. الذى أكله ، والذى ينوى أن يأكله بعد ذلك .. انها فرصة سانحة لا ينبغى أن يضيعها من يده مهما كان الأمر .

وبدأ يعد فى ذهنه خطة الهجوم المضاد على الهرم الشحمي الاكبر .. ولكنه قبل ان يبدأ التفكير فوجىء بالزئير مرة أخرى ، وسمع المرأة تصيح بالصبى :

ـــ قل له يدفع قبله .. لحسن أخرجه من الدكان ملط ، ياكل جوهره ولسان ، ومش عايز يدفع الحساب .. الأقرع النزهى ، والنبى أطلع حبابى عينيه ؟

وارتجف « شحاتة أفندى » فقد وجد أن المسألة أخطر بكثير مما كان يظن .. لشد ما خدع فى المرأة .. إذ ظنها مركبا سهلا ذلولا .

ولم ينتظر « شحاتة » حتى يبلغ « حنفى » الرسالة ، بل نهض متجها إلى « الحاجة زمزم » عله يستطيع تهدئتها والتفاهم معها .

وبدا وجه « الحاجة » مربدا متجهما .. وقد انتفخت أوداجها وزوت ما بين حاجبيها المرسومين وكشرت عن أنيابها الصناعية ، ولم يكد « شحاتة أفندى » يقف أمامها وهو يحاول الابتسام حتى صاحت به :

ـ نتفاهم على إيه يا عومر ؟ .. إيدك على الحساب .. ادفع تمن السم الهارى اللى كلته .

ـ صبرك على يا حاجه .. الدنيا مش حاتطير .. الناس لبعضها .

ـ الفلوس .. إيدك على الفلوس .

واسقط فى يد « عم شحاتة » فقد خذلته المرأة تماما وقلبت له ظهر المجن .. ولم يكن قد دخل جيبه مليم واحد منذ بضعة أيام ، ولم يجد هنلك بدا من أن يقوم بهجوم غزلى خاطف عله يستعيد به الموقف ، وبدأ يطلق ما فى جعبته من سهام . فأجاب على هدير المرأة وزئيرها بحركة سريعة من تلعيب الحواجب ، وصاح منشدا فى طرب :

ـ « حبيبى قاعد ع الدهبيه ، ودراعه متختخ زى الليه » ..

ثم أعقبها بقوله التقليدى فى أسف :

ـ « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشى » .

وهنا انطلق « سيد » مقهقها وصاح باعلى صوت مجاوبا شحاتة افندى :

ـ « يا ميت ندامه على اللى كل ولا دفعشى » .

وفجأة وفى سرعة البرق .. بدات الندامة .. ندامة « اللى كل ولا دفعشى » .

لقد ارتفع ذراع « الحبيب المتختخ اللى زى الليه » ثم هوى مطبقا على جاكتة « شحاتة افندى » وجذبه بعنف تجاه الحبيب .. ليس الجالس على الذهبية .. بل الجالس على الدكة امام المسمط .

ومزقت الجاكتة وهوى « شحاتة أفندى » جاثيا أمام الدكة وافلتت يد الحبيب الجاكتة ، واطبقت على زمارة رقبة صريح الهوى ولحمة الرأس .

وبسرعة البرق تناولت « الحاجة » العصا بيدها الأخرى ثم رفعتها إلى اعلى مهددة صائحة :

ـ الفلوس .

وصاح « شحاتة أفندى » فى ذلة واستعطاف :

ـــ حاضر .

ـــ هأنت .. قوام .

ـــ صبرك على .

ـــ طلع إيدك بالفلوس .

ـــ نسيت المحفظة فى البيت .. ولا معيش ولا مليم .

وصرخت « الحاجة زمزم » فى وجهه وزادت الضغط على عنقه :

ـــ نسيت المحفظة ! ؟ دا كلام ما ينطليش على .. حاخد الهدمة اللى عليك واخرجك بلبوص .

ثم صاحت :

ـــ جاد ...

وبلغ النداء « جاد » وهو واقف أمام القزان يشاهد المنظر فى شماتة وفرحة . فأسرع إلى الحاجة وهو يجيب فى طاعة :

ـــ نعم يا معلمة .

ـــ قلعه الجاكتة ، والجلابيه ، والجزمه ، وناوله .

ولم تكد « الحاجة » تنتهى من قولها حتى هجم « جاد » على « شحاتة أفندى » الذى كان راكعا أمام الدكة وعنقه فى قبضة « الحاجة » وطربوشه ملقى على الرصيف وعيناه محملقتان فى دهش وذعر .

ونزع « جاد » الجاكته ـــ أو على الأصح ـــ علاهيل الجاكتة بين استغاثات « شحاتة » وزئير « زمزم » ، ثم مد يده إلى ذيل الجلباب وهم برفعه عندما نهض « شوشة » من مقعده فى غضب واندفع إلى « جاد » بعد أن رآه ينفذ بالفعل حكم « الحاجة » بتعرية الرجل وصاح فيه حانقا متحديا :

ـــ إيه اللى بتعمله دا يا جدع انته ؟

ولم يجب « جاد » بل نظر إلى « الحاجة » نظرة تساؤل كأنه يستشيرها فيما يفعل إزاء تدخل المعلم « شوشة » ، ثم حول عينيه من « الحاجة » إلى « شوشة » وبالعكس كانما يقول له « كلمها هى » او « انشطر عليها » .

وحاولت « الحاجة » ان تبذل جهدا كبيرا لكتم غيظها مفضلة أخذ « شوشة » بالحسنى فقد كانت مدينة له بثمن القرب التى وردها خلال ضحكة سطحية كشفت عن طقم اسنانها وابرزت تجاعيد وجهها ، وقالته مجيبة على سؤال « شوشة » بأقصى ما استطاعت من رقة :

ـ المنكوب ده ما دفعش تمن اللى اتسممه .. طلب جوهره ومخ ولسان .. على الحساب .. تصدق إن الجربوع ده يكون له حساب .. داحنا لو بعناه بحاله ما يجيبش تمن اكله . لكن أنا حا اعرف ازاى اخليه يبطل النصب على الناس .

وقبل أن تسمع رد « شوشة » حولت الحديث إلى « جاد » قائلة :

ـ قلعه الجلابيه ، وخليه يمشى فى الشارع ملط .

واستمر « جاد » فى نزع الجلباب معتبرا أن المناقشة قد انتهت ، ولكن « شوشة » تقدم خطوة ثم قبض على رسغ « جاد » ولوى ذراعه إلى الخارج ثم دفعه بشدة دفعة جعلت « جاد » يصرخ من فرط الألم .

ولم يكن « شوشة » ضخم الجسد أو بادى القوة ، ولكنه كان من النوع الذى يسمونه « عرق » .. كان نحيف الجسد ، ضامره ، ولكن عضلاته الضامرة كانت تبدو عندما تتصلب كأنها قطع الصلب ، وكان يتمتع بقوة كامنة وإقدام وجراة جعلته بين أهل الحى مرهوب الجانب وجعلت « جادا » يتنحى عن الميدان تاركا « شوشة » مع « زمزم » وجها لوجه .

وكان « سيد » فى هذه الآونة ما زال جالسا على مقعده منهمكا فى مصمصة بقية كارع ، ولكنه لم يكن يبصر دفعة أبيه لجاد ويوقن ان هذا لابد أن يكون بداية معركة حتى قفز من مقعده فى فرحة ظاهرة ، فقد

كان يتوق منذ مدة طويلة إلى أن أن يرى اباه فى معركة لا سيما مع هذا الحيوان اللئيم « جاد » ، وكان يتوقع أن تنيله مثل هذه المعركة ماربا طالما تلهف عليه وهو ضرب « الواد حنفي » ابن « جاد » الذى طالما اعتدى عليه بالسباب محتميا بأبيه و « بالحاجة زمزم » ، ولكنه فى المعركة يستطيع أن يتصيده وحده إذ لا شك أن جادا وزمزم سيكونان مشغولين عنه بأبيه .

ولكن لم يكن يجد « جاد » يتنحى حتى خاب أمله . إلا انه عاد يرقب عينى « زمزم » فقد أضحى فى يدها الآن مفتاح الموقف إن شاءت انهته بسلام ، وإن شاءت أعلنت القتال .

وبدا جليا أن « زمزم » لا تريد الدخول فى معركة مع « شوشة » ، فقد صمتت برهة ، وهى ما زالت مطبقة بيدها على زمارة رقبة « شحاتة افندي » الذى بدأ يتطلع فى استغاثة صامتة إلى منقذه الأكبر ، ثم أطلقت تنهيدة معناها : « اللهم طولك يا روح » ، ورفعت حاجبها الأيسر ، وهزت رأسها ببطء ، وتساءلت فى هدوء مصطنع :

ـــ مالك يا سى شوشه .. حد داس لك على طرف ؟

ـــ قبل كل حاجه سيبى الراجل ده .

ـــ أسيبه ؟

ـــ أيوه .. سيبيه !

ـــ انت تعرفه ؟ صاحبك ؟ قريبك ؟

ـــ قلت لك سيبيه !

وبدأ الغضب يغلى فى صدر المراة .. ولكنها بذلت جهدا كبيرا لكبت بوادره ، وقالت فى لهجة اقناع :

ـــ أنا عارفاهم أكتر منك ، عارفه الصنف النصاب المحتال ده .

ـــ اسمعى يا حاجه .. تعرفيه ما تعرفهش .. كلمه ورد غطاها .. قلت لك سيبيه ، وحادفعلك الحساب .

ودهشت المراة ، وبدت عليها امارات الخذلان .. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئا .. فقد أسكتها « شوشة » برده .. حقيقة أنه سيحرمها من التمتع بإحدى عمليات الشر والأذى ، ولكنه سيدفع الثمن ، وهو الأهم .

وافلتت من قبضتها رقبة الرجل .. فنهض « شحاتة افندى » وهو يتحسس رقبته غير مصدق أنه نجا ، وامسك بجاكتته الممزقة ، ووضعها على كتفيه وتناول الطربوش الذى تدحرج فوق الرصيف ، فوضعه على مؤخرة رأسه ، ووقف يقلب البصر فى ذهول بين القضاء المستعجل والمعجزة الكبرى ، أو بين « زمزم » و « شوشة » .

وتكلمت المعجزة تخاطب القضاء فى لهجة مقتضبة حازمة :

ــ حسابه كام ؟

وتحول القضاء إلى صبيه « جاد » ملقيا نفس السؤال :

ــ حسابه كام ؟

ــ لسان وجوهره ومخ .. مخ بتلاته ابيض ، وجوهره بساغ ، ولسان بصاغ ، ورغيف بعشرين تعريفه ، وبعشرين تعريفــه طرشى وسلاطه ، تبقى الحسبه كلها أربعه ساغ .

ولم يتمالك « شوشة » نفسه من الصياح فى دهشة ، وهو ينظر إلى « جاد » فى شك وريبة :

ــ أربعه ساغ !

ــ أيوه أربعه ساغ !

وتحول ببصره إلى « شحاتة أفندى » طالبا منه أن يكذب « جاد » .
ولكن الرجل هز رأسه بالموافقة .. فعاد « شوشة » يسأله :

ــ انت كلت كل دا يا اخينا ؟ !! مخ ولسان وجوهره وطرشى وسلطه ؟

ــ أيوه !

ــ ولا فيش معاك مليم واحد ؟

وهنا وجدت « زمزم » الفرصة سانحة للتدخل ، ومعاودة الهجوم على « شحاتة أفندى » بعد أن بدت علامات التراجع على « شوشة » فقالت ساخرة :

ــ اقرع ونزهى .. نصاب ابن نصاب . فاكرها ياغمه . قلت لك سيبولى وانا اعرف ازاى آخد حقى معاه .

ثم اردفت مقلدة صوت « شوشة » بلهجة ساخرة :

ــ قلت لك سيبيه .. حاديلك الحساب .. ادفع كع .

اربعة قروش .. مرة واحدة ؟ !! إنه مبلغ ضخم .. وهو ضائع ضائع .. فهذا المغامر المجنون .. لا يبدو انه يستطيع رده ، ولو بعد عشرات السنين .. بل حتى لو باع ملابسه كما كانت « الحاجة زمزم » تنوى أن تفعل فلن يوازى الثمن الدين .. فالجاكتة والطربوش والجلباب والجزمة .. وايضا الفانلة واللباس ــ بفرض انه سيمشى بلبوصا كما قالت « زمزم » ــ لن يستدر من أكرم بائع روبابيكيا .. اكثر من قرشين ونصف .

ومع ذلك ، فرغم فداحة المبلغ ، والياس من استرداده لم يكن هناك وجه للتراجع .. فهو لم يتعود أن يعطى كلمة وينقضها .. وهو لا يستطيع أن ينكص على عقبيه بعد ما ابداه من مظاهر الشهامة أمام شرذمة المحدقين فيه .. المراقبين للمعركة من اولها ، وكذلك لا يستطيع أن يعرض نفسه لشماتة « جاد » و « الحاجة زمزم » .

إذا لا مفر من تحمل الأربعة قروش .

ومضت فترة صمت كان الكل ينتظرون فى تحفز قرار « شوشة » .. فشحاتة افندى قد مد عنقه المعرق ، ورأسه الأشيب الملقى عليه الطربوش المنهار .. ينتظر الحكم عليه فى توسل ورجاء .. و « زمزم » تمسك « الشومة » وترفع يدها على أتم استعداد لاسترجاع « شحاتة أفندى » فى قبضتها .. لتنزع عنه ملابسه .. و « سيد » متأهب لخوض

غمار المعركة .. مسلط عينيه على « حنفى » عدوه الألد .. حتى إذا ما أذن للمعركة انقض عليه .

واخيرا نطق شوشة بالحكم قائلا :

ـــ حاديكى اللى انتى عايزاه .. اربعه ساغ .. عشره ساغ .. ريال .. جنيه .. أنا قلت كلمه وخلاص .. سيبى الراجل يروح لحاله .

وهزت « الحاجة زمزم » رأسها فى دهش .. ونفخت من انفها نفخة سخرية ، وقالت :

ـــ اشبع به .. أهو عندك .. إيدك على الفلوس .

ـــ تعالى نصفى الحساب سوا .. عندك تلاتين قرش حساب ميه .. كلت فى الجمعه اللى فاتته بتلات قروش .. والنهارده بتلاته .. يبقى حسابى ستة ساغ .. حطى عليهم أربعه ساغ حساب الراجل .. يبقى الكل عشره ساغ ، خديها من التلاتين ، يبقى لى عندك ريال .

وعضت « زمزم » على شفتيها ، إذ ساءها أن تنتهى المسألة بمثل هذه السهولة ، لا سيما وانها كانت تعتبر حساب المياه حسابا ميتا لن يستطيع « شوشة » استرداده .

ولم ينتظر « شوشة » ردا من زمزم ، بل مد يده ساحبا ابنه ، دافعا عربته أمامه ، واشار إلى « شحاتة أفندى » قائلا :

ـــ يالله بنا .. السلام عليكم .

وسار الثلاثة مشيعين بنظرات الإعجاب من الزبائن ، وبهمهمة الحقد والتهديد من « جاد » ، وبتمتمة الدعوات السيئة من « زمزم » ... وابتعدوا عن الحانوت ، و « شحاتة أفندى ، مطرق فى صمت ووجوم وندم .. يحاول ان يلم أطراف فصاحته وشجاعته ليرد على جميل الرجل الذى انقذه من براثن المرأة سفاكة الدماء .

وأخيرا من الله عليه بالحديث فقال فى صوت خافت :

ـــ عدم المؤاخذة يا معلم .. أنا فى غاية الممنونية والخجل .

ـــ مافيش لزوم .

ـ سأرد لك الدين فى أقرب فرصة .. لقد طوقت عنقى ، أو على الأصح .. افلت عنقى بجميلك الذى لن انساه مدى الحياة .

ـ لا تتعب نفسك برد شيء ، ولكن خذها عظة .. لا تأكل فى مسمط « زمزم » إلا على قدر نقودك .. وإلا عرضت نفسك للتهلكة ، إن ما فعلته اليوم هو الجنون بعينه .. ما الذى جعلك تغامر بأن تأكل ما اكلت وليس فى جيبك مليم واحد ؟ هل حقا نسيت حافظة نقودك ؟

ـ طبعا لا .. ليس لدى حافظة نقود ، لأنه ليسَ لدى نقود ، فالنقود لا تكاد تستقر بين أصابعى إلا لحظات .

ـ إذا ما الذى جعلك تقدم على ما فعلت ؟

ـ حسن الظن .

ـ بمن ؟

ـ بالحاجة زمزم .

ـ كيف ؟

ـ هى التى أغرتنى بكل ما حدث ، هى السبب والله ، كنت أجلس على القهوة فى أمان الله ، وكنت انوى أن أقضيها بأى شيء ، بطبق كشرى على الحساب ، بلقمة جبنة ، بلقمة حاف ، حتى مرت هى من امام القهوة .

ـ هى ؟ من ؟

ـ الحاجه زمزم ، مرت على الرصيف تتهادى وتترجح ، وتهتز كتل الشحم واللحم المتراصة على أرادفها ، وأنا أحب اللحم لا سيما ما تكتل منه فوق الأرداف . ومن أجل الأعمال التى أقوم بها خلال جلوسى على المقهى « البصبصة » ولذا لم تكد تخطر الحاجه حتى بدأت البصبصه .

ـ بصبصه ؟ .. للحاجه ؟ اليس عندك نظر ؟

ـ ابدا !! هذه هى المصيبه ، نظرى ضعيف جدا ، شيش بيش ،

لا اكاد اميز إلا الأرداف المهتزة ، اتصـــدق أنى بصبصت ذات مره « للشيخ منصور الفقى » ، وهو يتهادى أمام القهوه بجسده السمين المربرب ؟ الست معذورا بعد ذلك إذا انا بصبصت للحاجه زمزم ؟ إنها على الأقل إمراة .

ـ لا والله .. الشيخ منصور اهون ، اى رجل به انوثة اكثر منها .

ـ صدقت ، ولكن انى لى أن أعرف ذلك ، لقد ابصرت الخطوط والكحل فى وجهها وطيات الشحم فى مؤخرتها ، فلم أتمالك من التصفيق بيدى وتلعيب الحواجب والصياح فى طرب « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشى » وهذه هى طريقتى الدائمة فى البصبصة وهى طريقة مضمونة لا تخيب ابدا ، وبالفعل لم اكد أنتهى من الصياح حتى رنت من « الحاجه » ضحكه طويلة وغمزت بعينيها وقالت « ولا طالش ليه ؟ » .. وانا فى البصبصه حاضر البديهه ، سريع الرد ، إذا لم تسعفنى اغنيه جاهز ه، اطلقت من راسى اى شىء موزون . وهكذا أجبتها بسرعة :

يا حلو هاجر وغايب قوللى كيف اراضيك
تبعد وتهجر وتنسى تقوللى فين اراضيك

وضحكت المراة مرة أخرى ، وقالت فى تفاخر « فى مسمط الحاجه زمزم فى درب عجور على سن ورمح » مسمط !! هكذا مره واحده ، لقد فرجت ، وكنت اظنها لا تفرج ، هذا والله صيد ثمين ، اكل وبصبصة . ماذا يريد المرء اكثر من هذا ، واى اكله .. اكله بشبعه ، لحمه راس ، وممبار ، ومخ ، و ... وانطلقت وراء المراة اتابعها واجيبها فى حماس بأبلغ عبارات البصبصة ، « يا ميت زبده ، يا ميت قشطه ، هز يا وز » وهكذا استمررت وراءها حتى بلغنا المسمط ، فاستقرت على دكتها واستقررت على مقعد امام إحدى المناضد ، وتبادلنا الغزل ، غنوه منى وغنوه منها ، واحسست كأنى فى بيتى ، فلقد كانت طريقتها فى المجاوبه تحمل ابلغ آيات الرضا والترحيب .. ابعد كل هذا تظننى أخشى فى الاكل لومة لائم ؟

ـــ طبعا لا .. لقد ظننت « تحت القبه شيخ » .

ـــ واى قبه .. واى شيخ ! ؟ لقد خيل إلى انى لو طلبت كرشنـــتها هى لما تأخرت .

ـــ يا ساتر .. لا تذكرنى بكرشتها .

ـــ وهكذا وضعت فى بطنى بطيخه صيفى .. وطلبت .. واكلت ، ونجشأت .. وعند الحساب ...

ـــ دفعت انا .. لا عليك .. تعيش وتاخد غيرها .

ـــ تاخد انت غيرها : أنا لم اخسر شيئا سوى الخضه ، ولكنك أنت الذى خسرت ، وهذا ما يؤسفنى أشد الأسف ، والمصيبة انى لا أعرف كيف أسدده لك .

وضحك المعلم « شوشة » وأجاب برفق :

ـــ قلت لك لا تحمل هما ، ما بين الخيرين حساب ، ولكن احذر من أن تعاودها ، لا تدع الأرداف تجرك مرة أخرى إلى مثل هذا الكمين . هذه المرة انتهت سليمة ، ولكن فى المرة القادمة يعلم الله كيف تنتهى .

ـــ على أية حال لن أنسى جميلك أبدا ، فلو صدق ظنى فى المرأة الوحش ، فإنك قد أنقذت حياتى .

وهنا كان الثلاثة قد وصلوا إلى الدرب الكائن به بيت « شوشة » .. فتوقف الرجل ومد يده إلى « شحاتة » مودعا ، وهو يقول :

ـــ اتفضل معانا .. نسقيك قهوه .

ـــ كفايه الغدا .. إن شاء الله مردوده ، وخسيرك السابق .. السلام عليكم .

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وقبل أن يدلف الرجل وابنه إلى داخل الدرب هتف الرجل :

ـــ كده ننسى طلب ستك أم آمنه .

ـــ الجبنه والبطيخ ؟

ــ اجل .. لقد شغلنا شحاته أفندى عنها .
ــ أفندى ؟ أما زلت تصر على أنه أفندى ؟
ــ الا يرتدى جاكته وطربوشا وجزمه ، لماذا لا يكون افنديا ؟
ــ إنه نصف أفندى ، فهو لا يرتدى بنطلونا !!
ــ بناقص البنطلون .. انه يبدو عليه آثار عز قديم .
ــ اقسم انه ما راى العز قط .. إنه فى أحسن حالاته .
ــ دعنا منه .. هيا لنشترى البطيخ والجبنه .
وسار الاثنان بضع خطوات حتى بلغا عربة البطيخ الواقفة على ناصية الدرب ، وحيا « شوشة » صاحبها قائلا :
ــ السلام عليكم يا معلم أحمد ، نقى لى بطيخة على كيفك .
وكان المعلم « أحمد » فى حالة هياج لا ينتهى منها أبدا .. ما دام واقفا على قدميه ، فهو يدور حول العربة ويربت على البطيخ الواحدة بعد الأخرى صائحا بأعلى صوته :
ــ حمار وحلاوة يا حلو .. اللى فضلوا .. ع السكين يا طيب .
وقبل أن ينتهى « شوشة » من طلبه كان صاحبنا قد أطبق بكلتى يديه على بطيخة ودس فيها سكينه إلى النهاية ثم حركها محدثا شقا طويلا واخرج السكين وضغط على جانبى البطيخة محملقا ببصره خلال الشق صارخا فى انتصار كأنه فتح عكا :
ــ حصوه فى عين اللى ما يصلى ع النبى .. البلدى يوكل حمار وحلاوه .
كل هذا الضجيج و « شوشة » لم ير البطيخة ، ولم يعرف ما إذا كانت حمراء أم بيضاء .. ولكنه من فرط صراخ الرجل وحماسته لم يشك فى أنها حمراء ، وهم بأن ياخذها .. ولكن « سيد » صاح بالرجل :
ــ ضببها .
وتردد الرجل برهة كأنما يخشى أن تكشفه عملية التضبيب ، ولكن

تردده لم يطل .. وما لبث أن أمسك بالسكين فدفعه فى جوف البطيخة محدثا ثلاثة شقوق أخرى كونت مع الشق الأول مربعا ثم رمى السكين وقلب البطيخة فى كفه الأخرى جاعلا المربع او التضبيبة إلى اسفل حتى سقطت فى كفه ؛ فلم تكد تسقط حتى رفعها بكفه إلى اعلى واندفع فى ضجيجه المعهود :

ــ احنا بياعين الحلو .. حمار وحلاوة يا طيب .

ثم اخفض يده بقلب البطيخة حتى حاذت فمه وقضم منها قطعة .. ثم اندفع يصيح مهللا كأنما لم يذق من قبل بطيخة :

ــ عندنا الشهد .

ثم اسرع بوضع القلب مكانه مادا يده بالبطيخة إلى المعلم « شوشة » قائلا :

ــ حلال عليك .. بالهنا والشفا .

حدث كل هذا بمنتهى السرعة وبين صراخ وضجيج لا يتركان لإنسان فرصة النظر إلى البطيخة أو تبين لونها أو مذاقها .. بل يأخذها واثقا من حمارها وحلاوتها بايحاء من بائعها .

وتناول « شوشة » البطيخة متسائلا :

ــ بكام .

ــ خمسه ابيض .

ــ نص فرنك كفايه .

ــ والله يا معلم من أصحابها بالاربعه ابيض ، ونكسب فيها تعريفه .. يبقوا خمسه ابيض .

ومد « شوشة » يده بالنصف فرنك فأخذه الرجل وهو يقول : معلهش .. المره الجايه نعوضها .

هكذا كان يقول كل مرة .. فهو لا يكسب أبدا .. ولكنه يعوضها فى المرة القادمة .

وبعد أن وضع « شوشة » البطيخة على العربة اتجه إلى « شيحه البقال » الكائن على الناصية الأخرى من الدرب وقد بدا الحانوت حاويا لكل شيء فهو بقال ومطعم وفكهـاني وحلواني وخضري وملحـق به صالون حلاقة .

يبدو الحانوت بواجهته الحمـراء القاتمة أو التي كانت فيما مضى حمراء ثم كسا الزمن حمارها بطبقة سوداء من الأتربة والدخان والزيت والشحم .. وقد سدت واجهة الحانوت بمنضدة (بنك) مصفح بالصاج ووضعت عليه قدرة فول ورصت بجوارها الأرغفة وبالداخل رصت علب السردين والتونة وقطع الصابون الأحمر والأبيض وعلب الزهرة وورق الملح وعلب الحلوى الصفيح ، وتوسطت الحانوت منضدة مقسمة إلى عيون وضع في إحداها الحلاوة الطحينية وفي الباقي الجبنة البيضاء والزيتون والجبنة الرومي واسفل المنضدة صفيحة بها طرشي افرنجي وصفيحة بها زيت وبرميل خل ، وفي ركن الحانوت رصت بعض زكائب حوت مختلف البضائع كالرز والعدس والملح الخشن ، وفي الخارج رصت بقية الزكائب وقد وضع بجوارها قفص عليه طبق به ليمون وكرات وفجل وقفص به بلح أمهات ، وعلى الحائط اسندت بضـعة أعواد من القصب ، وفي الجانب الآخر من الحانوت صندوق كازوزة رصت الزجاجات في أعلاه ووضعت الواح الثلج في باطنه ، وعلى الرصيف بجوار صندوق الثلج استقر صالون الحلاقة مفترشا الأرض ، وقد جلس صاحبه الأسطى « عيد » مزين « درب عجور » النقالي .

والقى « شوشة » التحية على الجمع المحتشد أمام الحانوت :

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وتعالت التحيات المتناثرة من هنا وهناك :

ـ أهلا وسهلا .

ــ ازيك يا معلم شوشه .

ــ فينك من زمان ! ؟

وبعد ان اجاب « شوشة » و « سيد » بما تيسر من الردود قال « شوشة » للمعلم شيحة :

ــ وحياتك تدينى حتة جبنه حلوم بقرش .

وعقب « سيد » على قول ابيه :

ــ واتوصى . . دى لخالتك أم آمنه .

ــ واحنا لنا بركه إلا هى .

وتسلم « شوشة » الجبنة فسلمها لسيد ، وسار الاثنان متجهين إلى البيت .

ماسورة معدنية موضوعة فى أعلاه وموصلة بين خارجه وداخله ، يضع الشارب فمه عليها ويشفط فتندفع المياه فى فمه .

وثانى تلك المغريات شجرة التوت الضخمة القائمة بجوار السبيل والمادة فروعها لا لتظلل السبيل وحده بل لتظلل الدرب بأجمعه .

والدرب لا يزيد على بضعة بيوت على اليمين واليسار وبيت فى المواجهة يستقر أمامه السبيل والشجرة ، وسكان الدرب هم أنفسهم أصحاب الحوانيت الكائنة فى خارج الدرب .. مثل « الخشت الجزار » ، و « زين الخضرى » ، و « شيحة البقال » ، و « عيد المزين » ، و « أحمد الفكهانى » ، يزيد عليهم بضعة سكان آخرين من أصحاب الصنعة مثل « محمود مسطرين » البنـــاء ، و « على الحمى » المبيض ، وحســـين القرداتى ، وهم كلهم تلمهم أواصر الجيرة فتجعلهم اشبه بأسرة واحدة يجمعها فى السكن درب القط ، وفى المأكل مطعم الأمرا أو « مسمط زمزم » ، وفى التسلية مقهى « قدورة » الكائن فى شارع البغالة .

وبيوت الدرب عتيقة رثة حطت عليها كف البلى والقدم ، فهى مشققة الجدر مفتتة البياض ، يخال الناظر إليها أنها توشك أن تنقض ، والدرب لا يخلو من مظاهر القذارة والفقر التى اتسمت بها غيره من الدروب فى تلك الأحياء الوطنية ، وان كان يميزه عنها تلك الشجرة والسبيل المستقران فى نهايته واللذان يخلعان عليه شيئا من الرونق يمحو إلى حد ما أثر عروق الملوخية المتناثرة أمام إحدى دوره وبقايا تصفية الطماطم من قشر وبذر وفضلات طعام وقشر بصل أمام الأخرى .

بوجه عام كان « درب القط » له رونقه الخاص لا سيما فى نفوس « سيد » وأصحابه ، أما بيت « سيد » فهو لا يختلف كثيرا عن بقية بيوت الدرب .. وكان يتكون من طابقين : الطابق الأول من الحجارة ، والثانى من خشب البغدادلى الظاهر فى بعض نواحى الجدران فى المناطق التى تساقط بياضها ، وباب البيت خشبى غليظ بنصفه الأعلى قضبان

الفصل الثالث

معـــركة فى درب القـــط

لنتتبع الرجل وابنه وهما فى طريقهما إلى البيت ولنتوقف برهة فى الدرب ولنقم خلال ربوعه بجولة قصيرة . يقع البيت فى « درب القط » وهو درب صغير متفرع من « درب عجور » الرئيسى الكائن به « مسمط زمزم » و « وجزارة الخشت » ، ومحل «زكى زين الخضرى» ، وصف من الحوانيت ينتهى ببقالة « شيحة » الواقعة على كلا الدربين « درب عجور » و « درب القط » .. وإن كان بابها الكائن على الدرب الأخير لا يفتح أبدا .

و « درب القط » درب ضيق يكاد السائر فيه يلمس اجنابه لو مد ذراعيه بحذاء كتفيه ، وهو غير مرصوف ، ارضه طينية مدكوكة مرطوبة ، مسدودة الواجهة لا منفذ به ، فهو والأمر كذلك غير مطروق إلا لساكنيه أو للباعة المتجولين الذين يدخلونه فيطلقون نداء او نداءين مثل « حبشى يا ملوخيه » أو « لا تين ولا عنب زيك يا خسانى يا امهات » ثم ينصرفون عنه إذا لم يناده‍م احد .

وهو أشبه بفناء خاص منه بطريق عام ، ويعتبر ملعبا لأهل الحى من الصبية ، فهو مأمون من العربات ، بعيد عن المارة ، وبه من المغريات ما يجعله مقصدهم وملجأهم .

وأول هذه المغريات واهمها السبيل الحجرى الكائن فى الواجهة المسدودة ، وهو عبارة عن خزان من الحجر ذى صنبور لا يزيد عن

حديدية وراءها ضلفة زجاجية كسرت وسقط عنها زجاجها منذ أمد بعيد ، والباب مفتوح على مصراعيه ، بلا أمل فى غلقه ، فقد تراكمت الأتربة حول أسفله حتى أضحى مدفونا فى الأرض ، ولم يعد يتبين حده السفلى فبدا كجذع الشجرة نابتا من الأرض ، والباب لا لون له .. والواقع أن البيت كله .. بل الدرب كله لا لون له .. أو هو بلون الأرض إذا كان للأرض لون .

وعلى الباب والجدران كتب الصبية كل ما يخطر بذهنهم من الكتابة من هجاء ومديح وإعلانات وآيات قرآنية وأسماء واغنيات ، وان كانت الجمل الغالبة فى كل هذه الكتابات هى « سيد جدع » ، وواضح أن كاتبها لابد أن يكون « سيد » نفسه . وفى أعلى الباب ، وفى الناحية اليمنى منه وضع رقم البيت أو ما كان فيما مضى رقما ، ثم انمحى بفعل حجارة الصبية عند مبارياتهم فى التنشين وإصابة الرقم .

فإذا تجاوزنا الباب وجدنا فناء رحبا بعض الشىء أو رحبا بالنسبة لضيق الدار ، وصادفنا فى مواجهته ، ومن ناحية السلم عجوزا متشحة بالسواد تتربع على حجر مستطيل مطرقة فى وجوم وشرود ، وقد اتكأت بخدها المجعد على راحة كفها اليسرى ومطبقة بمرفقها على ركبتها وأمسكت بيمناها عصا من الجريد تحركها يمنة ويسرة بين آونة وأخرى وأمامها فى منتصف الفناء أوزتان تنقران بمنقارهما هنا وهناك ، وفى حديد الدرابزين ربطت « ماعزة » تطلق صيحتها الممدودة بين آونة وأخرى فتبدد سكون الفناء .

وسمعت العجوز وقع الأقدام وقرقعة العجل على الأرض ، فرفعت رأسها ، ثم حولته نحو الباب ، ولكن عينيها لم تثبتا على شىء بل أخذتا تترجرجان فى مقلتيها .

كانت العجوز ضريرة .

ومع ذلك فلم تكن تخطىء قط وقع أقدام رجليها ، كبيرهما وصغيرهما ، « شوشة » و « سيد » : زوج ابنتها ، وحفيدها .

ودفع « شوشة » العربة فى جانب الفنان واقترب من العجوز « أم آمنة » منحيا الأوزتين جانبا وقال بلهجة رقيقة :

ــ العواف يا ام .. جبت لك الجبنه والبطيخ .

ــ يعافيك يا ابنى ، إن شاء الله ما اعدمكش . احضر الطبلية ؟ . ست « أم على » مرات الحاج محمود عامله بصاره وقالت انها حاتبعت لنا طبق . اطلع يا سيد هاته .

ــ احنا كلنا ، سبقناك عند الحاجه زمزم .

ــ بالهنا والشفا . وتعبت نفسك ليه بالجبنه والبطيخ ؟ كنت اقضيها باى حاجه ؟

ــ دى حاجه بسيطه يا أم آمنه .. تدخلى تاكلى جوّه ؟

ــ خلينى هنا فى الطراوه .

ــ هات الطبليه لستك يا سيد .

ــ وعلى إيه طبليه . ادينى لقمه فيها حتة جبنة وشقة بطيخ .

وانبرى « سيد » إلى الداخل وبعد لحظة عاد بالطلبية فوضعها أمام جدته وفى نفس اللحظة سمع وقع أقدام « قبقاب » يقرع أرض السلم الحجرى هابطا من الدور العلوى ، وما لبث القوم حتى أبصروا « زكية » بنت « المعلم خشت » تتهادى حاملة « طبق البصارة » قائلة :

ــ العواف يا جماعه .. الطبق اهه يا خالتى الحاجه .

واجابت أم آمنة شاكرة :

ــ كتر خيرك يا اختى . ليه التعب دا كله ، خلوه للعشا بقى .

وتساءلت زكية :

ــ ليه يا خاله ؟

ــ عمك شوشه وسيد اتغدو .

ــ طيب ما ننزل ناكل سوا .. ابويا متغدى فى الدكان واخويا فى الكتاب .. مفيش غيرى انا وامى .. اما اقول لها تنزل نفتح نفس بعض .

ثم صاحت تنادى امها :

ــ أم .. أم .

وأجابتها « أم على » من أعلى السلم :

ــ إيه يا زكيه ؟

ــ خالتى أم آمنه حتاكل لوحدها ما تجيبى الغدا وتنزلى ناكل معاها .

ــ طيب يا بنتى ، نازله حالا . حطى الطبق عندك وتعالى خدى بقيت الحاجه .

وبعد لحظات كان السماط قد مد فى الفناء وقد التف حول الطبلية : أم آمنة ، وأم على ، وزكية .

وكان الثلاثة حول الطبلية يمثلن الطيبة المصرية الأصيلة والكرم الطبيعى غير المفتعل ، كرم الفقير يجود بالقلة حتى يصير معدما .

كانت « أم على » زوجة « المعلم خشبت » وابنتها « زكية » يعتبران نفسيهما مسئولتين عن راحة « أم آمنة » .. كأنها أمهما . والواقع أن العجوز الطيبة كانت تبدو وكأنها أم لكل من فى الدار ، بل كل من فى الدرب ، فما سمعها أحد ذات مرة تغتاب إنسانا أو تعيب فى جار أو جارة ، وما خرجت من فيها إلا الدعوة الصالحة ، أما دعوة السوء فكانت تستبدل بها دائما قبل أن تغادر شفتيها « الله يسامحه » وكان قلبها يعفو قبل أن تعفو شفتاها .

كانت العجوز حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، سديدة الرأى ، مخلصة النصح ، شديدة القناعة ، كانت تشعر بأن عماها عبء على من حولها وهى التى تعودت دائما أن تحمل عبء الجميع ، ولذلك لم تكن تحاول أن تطلب شيئا حتى لا تزيد من عبئها ، بل كانت تحاول أن تقوم بأقصى ما تستطيع به من خدمات لمن حولها .

كان « سيد » أشد الناس حبا لها ، كما كانت هى تخصه بأكبر قدر من عطف قلبها الكبير ، وحب نفسها العطوفة الحنون .

كانت هى لا تفتأ تقدم إليه كوب اللبن الذى تحلبه من الماعزة ، وكان هو لا يفتأ يجمع لها قشر البطيخ من الدور المجـاورة لتخرطه لأوزتيها ، وفى كل ليلة قبل ان يذهب للنوم ليرقد بين أحضانها .. كان يجلس بجوارها مصغيا لأقاصيصها الممتعة التى لا ينضب لها معين .

وكان كثيرا ما يحلو للصبى أن يقارن بينها وبين « الحاجة زمزم » .. بين النقيضين العجيبين . ويسائل نفسه : كيف يكون خالق الاثنتين ربا واحدا ؟ كيف يكون صانع هذه الكتلة من الخبث والشر والأنانية والحقد . هو نفسه خالق هذا الجدول المنعم بالطيبة والوفاء والتضحية وانكار الذات ؟

وما فائدة حج بيت الله لمثل الحاجة زمزم ؟ .. وأيهما افضل : زمزم مع سبعين حجة أم أم آمنة بلا حجة واحدة ؟

وانتهى الثلاثة من الغداء وكان « شوشة » قد توضأ وصلى وتمدد على فراشه فى إحدى حجرات الدار الثلاث .

ورفعت « زكية » الطبلية ، ووضعت بقايا الاكل ، أمام المـاعز والأوزتين .

وارتفع صوت « سيد » من الداخل متسائلا :

ـ يام .. انت شيلتى كيس البلى من تحت المخده ؟

وأجابه صوت أم آمنة .

ـ شوفه عندك تحت المرتبه يمكن اكون حطيته بعـد ما نفضت المخدات .

وعاد الصوت يجيب ضاحكا :

ـ أهوه .. لقيته .. خضتينى يا شيخه .. افتكرته ضاع كانته حاتبقى حكايه ، وانا ناوى النهارده اشولهم كلهم .

ـ انا جيبتلك نيكل يعجبك قوى من محمد بتاع الروبابيكيا .

ـ هوا فين ؟

واقبل « سيد » يعدو فى لهفة مكررا :

ــ فين هوا ؟

ــ أهو .. إيه رايك بقى ؟

ــ يا سلام يام ! مدهش .. انت لازم كان أصلك زمان لعيبة بلى .

وجلست النساء الثلاث فى الفناء تتجاذبن الحديث والأقاصيص .

واستلقى « شوشة » فى فراشه فى الحجرة المعتمة محدقا فى السقف ذى العروق الخشبية الهابطة من المنتصف تحت ثقل السقف والإعياء من مر الزمن . وأخذ ينقل بصره بين العروق الخشبية والجدران الحجرية المشققة ، وقد شرد ذهنه فى حساب القرب التى وزعها .. خمس وأربعون في السراية . اثنتا عشرة عند أم عبد الله .. خمس عشرة فى بيت الحكيم .. وعشر فى بيت السبكى .. وثلاثون فى المطعم .. و .. و .. وأغمض عينيه وراح فى إغفاءة .

وفى الوقت نفسه كان « سيد » قد أخرج البلى من تحت المرتبة وفرشه فوقها وجلس يحصيه واحدة واحدة .. لقد كسب فى أسبوع ما يقرب من مائتى بلية .. كان كل ما يملك عشر بليات ، والآن قد أضحى معه ما يزيد على الثلاثمائة .. واليوم إن شاء الله سيزيدهم إلى اربعمائة .. فهذا النيكل الذى احضرته له « أم آمنة » من بائع الروبابيكيا سيقش جيدا .. ستكون اليوم معركة كبرى ، ولكن الخوف من الا يقبلوا هذا النيكل . على اى حال لديه نيكل آخر اصغر منه .. أين هو ؟ لقد وضعه فى الكيس .

وصاح « سيد » مناديا بأعلى صوت :

ــ أم .

واجابته أم آمنة مهدئة :

ــ وطى صوتك يا سيد الحسن أبوك زمانه نام .

واقبل عليها « سيد » يسألها بصوت منخفض :

ـــ فين النيكل القديم ؟

ـــ وعايزه ليه القديم ؟

ـــ يمكن ما يرضوش ألعب بده .

ـــ ليه ؟ ماله ؟

ـــ كبير قوى .

ـــ القديم خده الراجل .

ـــ يا نهار اسود .. وايه العمل ؟

ـــ ولا اسود ولا ابيض ، استنى لبكره وانا اجيبهولك منه .. أهو بيفوت كل يوم .

ـــ استنى لبكره .. انتى مجنونه ؟ اللعب النهارده .. الساعه أربعه .. انتى فاكراها إيه ؟

ـــ وانا ايش عرفنى ان اللعب النهارده .. وانهم مش حايرضوا بده ؟ انت مش قلتلى انك نفسك فى نيكل كبير ؟

ـــ آه .. لكن ما هو الخوف لا ما يرضوش بيه ..

ـــ يمكن يرضوا .. على العموم خش دور فى صندوق الكراكيب اللى جنب القرب القديمه والسطايح يمكن تلاقى نيكل والا بنوره .

وعدا « سيد » إلى صندوق الكراكيب والذى جميع فيه « شوشة » القرب القديمة وبعض انقاض واشياء لا نفع لها .

وبعد برهة انطلق « سيد » من الحجرة المتربة المظلمة وهو يصيح فرحا :

ـــ لقيتها .. بنوره مدهشه .. فاكره ؟ مش كنت قلت لك من شهرين كدا ان بنوره ضاعت منى .. أهى هى دى .

ـــ الحمد لله .. هدى بالك ؟

ـــ انا خارج بقى .

ـــ يابنى اقعد استريح .. استهدى شويه ، دا العفاريت بيتيلوا ..

ـــ وانا عفريت ؟

ـــ العن .. اقعد الدنيا حر .. لما الشمس تهدا شويه .. دا المثل قال اتغدوا واتمدوا .

ـــ أيوه اقعدى طول النهار انتى قولى لنا فى أمثال .. فيه حاجه اسمها اتغدى واتمدى .

وانطلق « سيد » من باب الدار إلى السبيل والتوتة .

وكان أول ما فعله هو أن مد فمه على البوز المعدنى واخذ يشفط حتى اندفع الماء فى فمه فأخذ يتسلى بالشرب . وتلفت حوله عله يجد أحد الصبية من الصحاب قد أتى .. فلما لم يجد أحدا بدأ يتسلى بتسلق التوتة ، وفيما هو يجلس على أحد فروعها لمح « دقدق الحمى » ابن المعلم « على الحمى المبيض » وهو يحمل طبقا من العسل والطحينة ويتجه إلى بيته ، فأطلق صفيرا طويلا بوضع سبابتيه فوق لسانه المثنى داخل فمه .

وعرف دقدق الصفير فتوقف والتفت تجاه السبيل ولما لم يجد أحدا هم بمتابعة السير ولكن سيدا صاح به ضاحكا :

ـــ أنا هنا يا ترل .. فوق الشجرة .. رايح فين ؟

ـــ حاودى العسل والطحينة البيت .

ـــ طيب وديهم وتعالى قوام وما تنساش البلى بتاعك .

ـــ حامه .

ولم يكذب « دقدق » فى قوله « حامة » فما نظن الحمامة كانت تستطيع التخلص من طبق العسل والطحينة والعودة إلى « سيد بمثل هذه السرعة .

وكان أول ما فعل سيد هو أن ابرز النيكل الجديد قاذفا إياه فى الهواء بإعجاب متناه ثم تلقفه بحركة ماهرة قائلا :

ـــ شفت ده ؟ .

ـــ إيه ده ؟ .. حاتلعب بيه ؟

ـــ أيوه .

ــ ليه ؟ هيه فته ؟
ــ ماله ؟ ملعبش بيه ليه ؟
ــ ابقى العب بيه لوحدك .. ده نيكل .. والا جله حديد ؟ !
لا يا عم يفتح الله .. أنا مروح أودى البلى بتاعى انا مش مستغنى عن نفسى .
ــ اقعد ما تبقاش مره .
ــ لا يا عم .. اذا جت لحد النيكل بتاعك .. أنا مره وابن مره كما .. اوعى خلينى أروح .
ــ طيب اقعد بس خلينا نتكلم .. هى الدنيا طارت .. بلاش النيكل اللى مخوفك ده .. إيه رأيك فى البنوره دى ؟ تنفع والا لا ؟
ــ أيوه كده .. معقول .
ــ طيب وإذا لعبنا شركا ينفع النيكل والا ينفعشى ؟
ــ ينفع أوى .
ــ طيب لما اطلعه قدام زكى وحريشه وعبد الله وبقيت الولاد .. ابقى اسكت انت .. واحنا نلعب شركا .. بس اسمع اما اقول لك ...
وقطع عليهما حديثهما صفير صادر من ناحية الدرب ، ثم صوت رفيع حاد يصيح قائلا بلهجة طويلة منغمة :
ــ سيد يا ويكا .
وانطلق صفير « سيد » مجاوبا الصفير وعلا صوته مجاوبا النداء صائحا :
ــ حريشه يا ويكا .
واقبل « حريشة » يعدو ويقفز من أول الدرب حتى وصل إلى السبيل فجلس على الحجر الذى افترشه زميلاه . وكان أول ما قاله « سيد » هو سؤاله :
ــ فين زكى أمال ؟
ــ فى الدكان .

ــ ليه ؟ .

ــ المعلم سلامه ما رضيش يسيبه .

ــ وانت جيت ازاى ؟

ــ قاللى روح هات بقرش كرات فخدت بعضى وتنى جاى على هنا .

ــ والكرات ؟ .

ــ بعد اللعب يحلها ربنا .. امال فين الباقى .. فين عبد الله المعيرجى وعلى الخشت ؟

ــ زمانهم جايين .. لسه مخرجوش من الكتاب .. شفت النيكل ده ؟

وقذف النيكل فى الهواء ، وصاح حريشة مستنكرا :

ــ يا خبرك اسود .. ده نيكل ده ؟ . دا لو شافه المعلم سلامه يدق بيه الطعميه .

ــ يعنى ما ينفعش ؟

ــ ينفع والا ما ينفعش ، انا مالى يا عم .. انا معاييش ولا بليه .

ــ أمال جى تنيل إيه ؟

ــ انا مش قلت لك الصبح .. قلت حا اسلفك .

ــ وتردهم امتى ؟

ــ اما ربنا يعطينا .

ــ وامتى ربنا حا يعطيك ؟

ــ اسأله .. اهو قدامك .

ــ اساله انت .

ــ وانا مالى .. هوا انا اللى حاخد البلى ؟ .. اللى حايبعتوا ــ إذا بعت ــ ابقى خده .

ــ طيب بلاش غلبه .. خد .. آدى خمسه .. عشره .. خمستاشر .. عشرين .. كفايالك كده ؟

ــ هات كما عشره .

ـ وادى كمان عشره .. إيه رايك بقى ؟ ! تخلينى العب بالنيكل ده ؟
ـ ليه ؟ مجنون ؟ اضيع البلى بتاعى ؟ شـوف لك نيـكل غيره والا أروح .
ـ أما ضلالى .. احنا مش اتفقنا ان انا اسلفك والعب بالنيكل اللى يعجبنى ؟
ـ ما اتفقناش ولا حاجه .
ـ تنفع البنوره دى ؟
ـ أهى تمشى .. ياللا بينا .
ـ استنى شويه أما يبجى الباقى .. وهوا دا يبقى لعب ده .. لما اكسب التلانين بليه اللى انا مديهم لك ، والتلاتين بليه اللى حيلة الواد دقدق ، استنى لما ييجى الخشت والمعيرجى دول تلاقيهم متريشين وحالتهم نجف .

وقبل أن يجيبه حريشة .. ظهر على الخشت ومحمود زين ومحمد مسطرين ، وقد اقبلوا من باب الدرب يعدون بالجلاليب والصنادل والطرابيش ، وقد أمسك كل منهم لوحه الصفيح بيده .. ولم يكد يراهم سيد حتى قفز واثبا وصاح فيهم :

ـ ياللا يا وله منك له قوام ، احنا مش فاضيين لكم .

ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان زين ومسطرين قد قذفا بلوحيهما وطربوشيهما ، وخلعا صندليهما ، وأقبلا يعدوان وكل منهما يشخشخ بكوم البلى فى جيب الجلباب .

وهكذا أنتظم عقد الصبية : سيد ، ودقدق ، وحريشة ، ومحمود ، ومحمد ، ولم يبق سوى على الخشت الذى طالت غيبته فى الدار ، وعبد الله المعيرجى الذى لم يبد بعد فى الدرب .

وانطلق « سيد » يستعجل « الخشت » وكان يقطن فى نفس دارهم فى الطابق الأعلى ، ولم يكد يبلغ الفناء ، حتى سمع صوت صياح « على » وهو يقول فى عناد :

ـ حاخده .

ـ إياك .

ـ والنبى لانا واخده .

ـ يا واد سيبه . ابوك ما عندوش غيره ويمكن يحتاجه فى مشوار كده والا كده .

ـ ده مقطع .. ومهريد .

ـ ادينى قولتلك سيبه ، وخلاص .. أما أشوف حاتسمع الكلام والا لأ .. حاكم انت ما تجيش بالذوق ابدا .

ـ ايه هوا ده .. هوا انتى كل حاجه لا لا .. والله لانا واخده ، واعملى اللى تعمليه .

ـ والنبى لو خدته لانزل أعجنك ، ادينى قولتلك اهو ، امشى انجر .. هوا انت كل يوم لك مليله ؟ ! لازم تفرج علينا الجـــيران وجيران الجيران ، هوا ما فيش فى الحته أولاد غيرك ؟ ياخى جاتك نايبه .

ـ حاخده .

ـ برضك بتقول حاخده ؟

ـ أمال العب بايه ؟

ـ أنت مش امبارح لسه واخد واحده ؟

ـ عملتها وضاعت .

ـ وعلى كده لازم لك كل يوم فرده ، تعملها وتضيعها .

ووقف « سيد » يستمع إلى المناقشة ، وقد ضاق صدره ، واخيرا جذب « على » من يده وصاح به :

ـ ياللا يا اخى بلاش تضييع وقت .

ـ اسكت انت ، لازم آخدها .

ـ ايه هيه دى اللى لازم تاخدها ؟

ــ بقول لها حاخد فردة شراب من بتوع ابويه ، عشان اعمل كوره شراب ، مستخسراها فيه .

ــ يا اخى مش وقته ، احنا مش حانلعب كوره النهارده حانلعب بلى .

ــ لا . . انا حالعب كوره .

ــ يا على يا خويه ، ما تبقاش زى الشريك المخالف . . احنا كلنا حانلعب بلى .

ــ انا حالعب كوره .

ــ وحدك ؟

ــ وحدى .

ــ ما تبقاش تلم ، خلى لعب الكوره لبكره ، ما حبكتش النهارده .

ولم يجبه الخشت ، بل عاد يصيح بامه :

ــ احدفى الشراب يا ام .

واجابت أمه ، وقد نفد صبرها :

ــ يا واد اسكت بقى وجعت دماغى ، امشى بالتى هى أحسن . امشى لاحسن انزل أفعصك ، اصحى لو مسكتك مش حاتمسكك عافية .

ــ احدفى الشراب يا ام .

وهنا سمع وقع أقدام « أم على » تهبط منقضة . . وكانت « أم آمنة » قد جلست فى الفناء تنصت إلى المعركة . . وشمت من وقع اقدام « أم على » بوادر خطر ، فلم تجد بدا من التدخل فصاحت بعلى :

ــ تعالى ياخويا خد فردة شراب عندى اهى .

ثم نزعت من إحدى ساقيها فردة شراب . . كانت تقيها الروماتزم ، وقالت لام على :

ــ مذ فيش لزوم يا ام على . . اقصرى الشر ، كلهم كده دماغهم ناشفه .

واخذ « على » فردة الشراب وانطلق يعدو من البيت هاربا .

ووصل الاثنان « على » و « سيد » إلى السبيل حيث بقية الثلة .. وصاح على :

— عايزين شوية شراميط نحشى بيها الشراب .

وصاح « سيد » وقد نفد صبره :

— ما على يا خويه مافيش لزوم النهارده للكوره دى !

— يا اخى انت مالك ومالى .. إذا كنت عايز تلعب بلى العب وحدك .. انا حالعب كوره .. من فيكو يحب يلعب كوره معايا ؟

وانقسم الجمع قسمين : دقدق وحريشة فى جانب سيد ، ومسطرين وزين فى جانب الخشت .

وزاد حنق سيد فقد وجد أن الجانب السمين الذى به كل الفائدة فى لعب البلى قد انحاز إلى على ، وأنه لو استمر فى عناده فلن يكون هناك فائدة فى اللعب ، وان أقصى ما يمكن أن يربحه هو الثلاثون بلية التى يملكها دقدق الغلبان .

ووجد أن اللين والرفق اجدى عليه ، فقال لعلى فى رقة ظاهرة :

— يا سيدى ما تزعلش بدل ما نقسم البلد نصين نمشى رايك ورأيى .. نلعب كلنا كوره سوى وبعد ما نخلص من الكوره نلعب كلنا بلى .

— أيوه كده .. مستعد .. ياالله نعمل الكوره .

— اصبر شويه وانا اجيبلك شويه شراميط .

وانطلق يعدو إلى البيت فوجد أباه قد ارتدى جلبابه النظيف وهم بالخروج لقضاء بعض المصالح والجلوس على مقهى قدوره .

ولمحه أبوه وهو يحمل بعض الخرق فصاح به :

— على فين ؟ . حاتعمل أيه بدول ؟

— حاعمل كوره شراب .

ثم انطلق إلى السبيل .

وكان « سيد » ماهرا فى كل شىء .. ويدخل ضمن نطاق مهارته .. صنع الكور الشراب .

ودفع الخرق فى قاع الجورب ودكها جيدا ثم ربط الجورب وقلبه حولها وأخذ يقرعها فى حجر السبيل حتى تزداد صلابة ودكا ، وعاد يربط الجورب مرة أخرى ويقلبه . واستمر يضرب ويربط ويقلب حتى انتهى من عمل كرة كبيرة مستديرة صلبة ولم يبق سوى تخييط حافة الجورب من أجنابه .

وتطوع « دقدق » بسرقة إبرة وخيط ، وانتهت العملية وبدأ الاستعداد للعب .

وصاح « سيد » متسائلا :

— حا تلعبوا بالرجل والا بالايد ؟

وصاحت الأصوات .. بردود متناقضة « بالرجل » .. « بالايد » ، « بالرجل » ، « بالايد » .

ولكن « سيد » كان ينتظر القول الفصل من صاحب القول الفصل وهو « على الخشت » .. فقد صمم على احترامه ومداراته حتى يزج به فى لعب البلى ويربح منه ما تيسر ربحه .

وقال « على الخشت » فى ثقة واعتداد :

— بالايد .

— يالله نقسمها .

وصاح دقدق :

— « سيد » قصاد على .

ولكن « سيد » لم يكن يود أن يدخل فى خصومة مع « على » قبل البدء فى لعب البلى ، ولذا فقد فضل ان يكون فى جانبه رغم رغبته الدائمة فى تحديه .

وقبل « على » التحدى وقال :

— نط قصادى .

ولكن « سيد » قال متخابثا :

— لا يا عم .. شوف واحد قدك ينط قصادك .

وسر « على » من هذا التراجع ، وصاح متفاخرا متحديا :

ـــ مافيش فيكو جدع ينط تصادى ؟

وقفز « دقدق » أمام « الخشت » صائحا :

ـــ ليه جعيص ؟ . انا تصادك .

ووقف كل منهما تجاه الآخر ثم أخذا يقتربان ببطء وقد وضع كل منهما قدمه أمام الأخرى ، وظلا يقتربان بالتناوب ، ولصق كعب قدمه فى أصابع الأخرى ، وظلا يقتربان حتى انتهت المسافة بينهما ، وكان « دقدق » آخر من وضع قدمه فصاح :

ـــ انا حاختار .

ـــ اختار .

ـــ اخترت سيد .

قالها بفوز وظفر ، ولكن « سيد » وجد أنه سيصبح بهذا الاختيار الغبى خصما لعلى ، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

فصاح بدقدق ناهرا :

ـــ شوف لك واحد تانى .. بلاش مرازيه .

وفوجىء دقدق برفض سيد زمالته فصاح به فى غضب :

ـــ عنك ما جيت .. يعنى القليمه .. اخترت زين .

وصاح على :

ـــ اخترت سيد .

وابتسم « سيد » مرحبا :

وصاح دقدق :

ـــ اخترت حريشه .

ـــ اخترت مسطرين .

ولم تكد التقسيمة تنتهى حتى سمع فى أول الدرب صفير طويل ، وبعد لحظة ظهر عبد الله المعيرجى يعدو بأقصى سرعة ، وهو يصيح باللهجة ذات اللحن والنغم :

ـــ سيد يا ويكا . . حريشه يا ويكا . . خشت يا ويكا . . الخ .

وبعد لحظة كان يقف بينهم لاهثا ، وهو يهز البلى فى جيبه قائلا :

ـــ مين يلعب ؟

وقال له سيد :

ـــ احنا حانلعب كوره شويه وبعدين نلعب بلى .

ـــ زى بعضه . . العب معاكم .

ـــ بس مالكش محل . . عشان احنا قسمناها تلاته قصاد تلاته .

ـــ لكن انا لازم العب .

ـــ شوف لك زميل .

ـــ واجيبه منين ؟

وضاق صدر « سيد » فصاح به :

ـــ ياتشوف لك زميل يا تتنيل تقعد لغاية ما نخلص .

ـــ اتنيل انت .

ولو كان « سيد » فى غير هذه الظروف لما تردد فى ضربه ، ولكنه كان يريد ان ينتهى لعب الكرة على اية حال حتى يبدأ لعب البلى ، ولذا فقد كظم غيظه وقال له فى رفق :

ـــ الله يسامحك ، خش العب بدالى ، انا مش حالعب .

وتأثر « عبد الله » برد « سيد » فقال له :

ـــ ما تزعلش يا سيد . العب انت . . انا حاستنى .

ـــ لا والله لانت اللى لاعب .

ـــ مش ممكن . . انا حاقعد اتفرج .

وبدأ اللعب بعد ان انتقوا قطعة حجر صغيرة وضعوها على جانبها لتكون « ميس » وكان « تيم » سيد وعلى هو « التيم » الذى سيقف بجوار الميس وليبدأ اللعب .

وامسك على الكرة وصاح : « اول سنو » ثم رفع الكرة بيده اليسرى الى اعلى وضرب إلى الأمام باليمنى .

وكانت الضربة عالية فتلقفها « حريشة » قبل ان تسقط إلى الأرض وصاح مهللا :

ـــ انزل .

ونظر « سيد » إليه فى غيظ ، ثم قال لعلى مؤنبا :

ـــ ما كانش حقك تضربها عليوى كده .

ونزل « تيم » سيد ليتلقف الكرة ووقف « تيم » حريشة بجوار الميس ، ثم بدأ حريشة الضرب صائحا :

ـــ اول سنو .

واندفعت الكرة متدحرجة على الأرض حتى لا تعطى « التيم » الآخر فرصة تلقفها ، وأمسك على بالكرة يصوبها نحو الميس ولكنها اخطأته ممرت بجوار الحجر دون أن تصيبه .

واستمر « تيم » حريشة فى اللعب : تانيه سنو .. تالته سنو .. اول شكا .. تانيه شكا .. تالته شكا .

كل ذلك و « على » يستولى على الكرة ، يدفعها كل مرة نحو « الميس » فتخطئه حتى بلغ « التيم » اول دقو .. ثم اول ودنو .. واول كحكو .. وهنا لم يطق « سيد » صبرا فقد كادت الغلبة تتم وقال لعلى فى رفق :

ـــ ادينى الكوره اضربها المره دى .

واعطاه « على » الكرة ، ولم يحاول « سيد » أن يدحرجها بتأن حتى يضمن الاصابة ، بل أمسك بها ، ثم قذفها بعنف قذفة عالية جعلت الكرة تهبط على الميس باصابة مباشرة اطارته من موضعه .

وهكذا قلب انتصار « تيم » حريشة إلى هزيمة ، واحتل « تيم » سيد مرة أخرى « الميس » .

وبدأ « سيد » اللعب بسرعة ، وفى بضع دقائق كان قد وصل إلى « كحكو » ، وانتهى الدور بنصر تام .

وصاح سيد :

ـ باالله بينا على البلى . ارسم الترنجيله يا حريشه .

واسرع « حريشة » بقطعة حجر ، فخط بها « الترنجيلة » فى الأرض راسما مثلثا متساوى الأضلاع .. وعلى بعد بضعة خطوات منه رسم « اللين » اى الخط الذى يبدءون منه اللعب .

ووقف الجميع حول « الترنجيلة » وصاح سيد :

ـ تلعبوا كام ؟

واجابه على الخشت :

ـ خمسه .. خمسه .

ـ وجب .. خمسه خمسه .

واخرج خمس بليات من الكيس فوضعها داخل « الترنجيلة » ، وحذا الباقى حذوه فامتلأ المثلث بالبلى . ثم بدءوا يقذف كل منهم النيكل ، وهو واقف بجوار « الترنجيلة » فى اتجاه « اللين » ليروا من منهم اقرب إلى « اللين » حتى يكون البادىء باللعب .

وعندما حل دور « سيد » قذف النيكل الكبير ببساطة فى اتجاه « اللين » ونظر خلسة إلى زملائه ليرى تاثيره عليهم ، ولكنه لم يكن فى حاجة إلى هذه النظرة فقد صاح « على » ثائرا :

ـ إيه ده ؟ حاتلعب بيـه ؟ .. ليه ؟ .. كروديات ؟ .. شـيل النيكل ده .

وبهدوء اجاب سيد :

ـ طيب ما تزعلش .. حاشيله ، حقك على .. حالعب بالبنوره ، مبسوط يا عم ؟

ثم اتجه إلى اللين فتناول النيكل وقذف البنورة بدله .

وكان « حريشة » أقربهم إلى اللين فوقف بجواره وبدأ التصويب إلى « الترنجيلة » ، ولكن النيكل مر بجوار حافتها دون أن يصيب شيئا من البلى .

وتلاه على الخشت ، ثم زين ومسطرين . وحل الدور على « سيد » . وقبل ان يقذف بالبنورة صاح فى ثقة واعتداد :

ـــ عليك وعلى البلى .

وانبرى له « على » معترضا :

ـــ مافيناش من قتل .

ـــ كله ليك ، وكله ليه .

ـــ ماقولتش م الأول ليه ؟

ـــ ادينى بقول لك اهو .

ـــ لا ياعم .. ما فيناش من قتل .

وتدخل « حريشة » قائلا فى ضجر .

ـــ يا أخى سيبه .. يعنى نشانجى القلعه ، حايقتلك وهو على اللين ؟

واقتنع « على » فقال لسيد فى سخرية :

ـــ طب العب يا روح امك .. اما نشوف شطارتك ، الظاهر انك مستغنى عن بنورتك ، إن شاء الله حادشدشهالك ، عليك وعلى البلى آل !! طب العب أما نشوف .

ويبدو أن من الخير قبل أن نستمر فى وصف المباراة أن نوضح للقارىء (الذى قد بعد العهد بينه وبين لعب البلى او قد يكون أرستقراطيا لم يلعبه أصلا) بعض التعابير التى قد تستعصى على فهمه .

فـ « القتل » معناه أن يصوب اللاعب نيكله أو بنورته إلى بنورة الآخر فإذا أصابته أخرج من اللعب خاسرا نصيبه من البلى ، و « كله ليك وكله ليه » معناه أن اللعب مفتوح للاعب ان يلعب كيفما شاء ، و « نوكله ليك ونوكله ليه » معناه اللعب مقيد .

وامسك « سيد » بالبنورة فى يده ونفخ فيها وصمت لحظة بدا خلالها كانما يقرأ الفاتحة ، ثم اغمض إحدى عينيه وقذف بنورته بتؤدة

غصارت فى الجو فى خط مقوس ثم هبطت مستقرة بالضبط فوق نيكل « على الخشت » ، دون غيره من بقع الأرض الفسيحة المتسعة .

وسادت الدهشة الصبية ، ووقف « سيد » وقد علت شفتيه ابتسامة كبرياء استقرت فى جانب شفتيه ، وبعد فترة صمت قصيرة ترك للزملاء خلالها فرصة الدهش والوجوم والتمعن صاح بأعلى صوته :

ـ حلو . . كده النشان . . شيل النيكل بتاعك ياروح امك .

وفى صمت انحنى « على » فأخذ نيكله وانسحب وهو يضغط على أسنانه من الغيظ وصاح فى استهتار :

ـ معلهش يا زهر .

واجابه سيد :

ـ والا عليه .

وكان على « سيد » أن يتمم لعبه وان يظل يلعب حتى يخطىء فيتبعه لاعب آخر ، فأمسك بالبنورة وقذفها بتؤدة داخل « الترنجيلة » فأخرجت خمس بليات ، ثم عاد وقذفها مرة اخرى فأخرجت ستة ، وظل بقذفها المرة بعد المرة حتى افرغها عن آخرها ، ثم قال متسائلا :

ـ تلعبوا كام ؟

وصاح « على الخشت » مندفعا :

ـ عشره عشره .

ـ عشره عشره ؟ وجب .

ولم يعترض أحد واخذ كل منهم يضع بلياته العشر فى الترنجيلة .

وتكررت العملية ، وكان « على » هو الذى سيلعب اولا فى هذه المرة ، فوقف يقلد سيدا قائلا :

ـ عليك وعلى البلى .

وصاح به حريشة :

ـ يا اخى العب انت على البلى كفايه .

وقذف « على » النيكل فاصطدم بالأرض . ثم ظل يتدحرج حتى استقر داخل الترنجيلة .

وهلل « سيد » مصفقا بيديه صائحا :

ـ اطلع بره يا روح ستك ، بقول لك غشبيم ومتعافى .

وصاح « على » حانقا :

ـ تكس ليه .

ـ نو تكس ليك .

ـ لا تكس ليه .

ـ يعنى إيه تكس ليك ؟ هوا فيه تكس وانت جوا الترنجيله .. شيل النيكل بتاعك وبلاش غلبه .

ـ مانيش شايل النيكل ، بلاش غلبه انت .

ـ شيل بقول لك أحسن لك .

ـ مانيش شايل .. اما اشوف حاتعمل ايه ؟

ـ حاعمل ايه ؟ طب خد .

وهجم « سيد » على الترنجيلة فامسك بنيكل « على » .. ثم قذف به بأقصى قوته وصاح بعلى :

ـ روح بقى دور عليه .

وانطلق « على » يعدو لا ليبحث عن النيكل ، بل ليهجم على الترنجيلة فيأخذ كل ما بها من بلى ، ثم يعدو فارا به .

ولكن قبل أن ينطلق « على » بالبلى وهو فى قبضة يديه ، اندفع « سيد » مادا قدمه .. فاعترض بها طريق الآخر .. محاولا « شنكلته » .

وافلحت الشنكلة ، وهوى « على » مندفعا إلى الأرض ، فاردا ذراعيه ، وتبعثرت البليات ، وانطلق صراخ « على » من جراء الصدمة يدوى فى الدرب ، وما لبث حتى نهض متحاملا على نفسه متأهبا للدخول فى معركة مع « سيد » .

وعلت قهقهة الصبية عند وقوع « على » ، ووقفوا يمنون أنفسهم

بمعركه وشيكة الوقوع .. ووقف « سيد » متحفزا منتظراً ما ينوى « على » معله رداً على المقلب الذى أعطاه إياه .

وهجم « على » والسباب يتطاير من فمه ، ودفع بقبضة يمناه فى وجه « سيد » فأصابت أنفه .. وأحس من الإصابة بألم شديد ودمعت عيناه ، حتى لم يعد يرى ما أمامه .

وضحك الصبية وهللوا ، وصاح زين :

ـــ اديلو .. كما واحده .

ورفع « على » يده ليحقق طلب « زين » ويعطى له كمان « واحده » ، ولكن قبل أن تصل إلى أنف سيد .. كان سيد قد هبط براسه إلى أسفل متجنبا الضربة ، وفى نفس الوقت مد ساقه وراء ساقيه ، ثم دفعه بيمناه فى صدره دفعة شديدة .

كانت حركة بارعة من سيد إذ كان يجيد ضرب المقالب وكان المفروض ان يهوى « على » إلى الأرض فيقفز سيد فوقه ويكيل له الضربات ، ولقد هوى فعلا ، ولكن قبل أن يصل إلى الأرض مد يده بسرعة فتشبث بفتحة جلباب سيد .. فلم يكد يهوى إلا وجلباب سيد مشقوق نصفين .

وفزع سيد من تمزيق جلبابه ، ومما يمكن أن يقوله له أبوه لو أبصره على تلك الحالة ، والهاه التفكير فى جلبابه الممزق عن متابعة نجاحه ، والارتماء على خصمه ، واعطاه بذلك فرصة للنهوض ، ولمعاودة الإمساك بخناقه .

وزاد حنق « سيد » وثارت ثائرته ، وهو يرى « على » يعاود الهجوم عليه بعد أن مزق جلبابه .. ومد يمناه فأمسك برقبة « على » .. ثم رجع براسه للخلف قليلا ، وفى لمح البصر دفعها للأمام مصوبا جبينه إلى أنف « على » .. كانت « روسية » محكمة ، صفقت لها ايدى الصبية المشاهدين طربا .

ولكن الخصمين لم يصبهما منها أى طرب .. فأما « على » فقد احس براسه تلف وبعينيه تغيمان فلم يكن لديه قطعا أى فرصة للطرب .

اما سيد .. والذى كان يجب أن ينتشى بضربة النصر القاضية فقد نظر إلى خصمه مذعورا إذ ابصر بالدماء تسيل من انفه متساقطة على شفتيه .

ولم يكد « على » يحس بالسائل الساخن فوق شفتيه حتى مد اصابعه ليتبين ماهيته ثم انطلقت منه صرخة مدوية .. فقد افزعه منظر الدماء اكثر مما أفزعه الم الضربة ، وصاح بأعلى صوته :

ــ يابن الكلب .. كده عورتنى ؟

ووجد الصبية ان الموقف قد تطور ولم يعد يحتمل الضحك وأن عليهم ان يفعلوا شيئا .. فاندفع « حريشة » ممسكا بيد « على » وصاح :

ــ تعال عند السبيل لما أطس لك وشك بشوية ميه .

وصاح زين وهو يلحق بهما :

ــ ما تخافش يا على .. دى فصده .. انا أول امبارح اتفصدت زيها وما جراليش حاجه .

وتطاير من نفس « سيد » كل إحساس بالعداوة وحل محله شعور بالعطف على خصمه والخوف من أن يكون أصابه مكروه .

ونسى « سيد » جلبابه ، ونسى البلى ، ونسى كل شىء إلا اصابة « على » وامسك بيده يعدو به تجاه السبيل .

ولم تكن هناك من وسيلة للحصول على مياه السبيل إلا بالشفط ، فمد « سيد » فمه إلى الماسورة وأخذ يستدر المياه بفمه ثم يدفع بها فى وجه « على » حتى أغرقه .

وتدخل « زين » باعتباره مجربا للحالة وقال صائحا :

ــ اقعد على الحجر وميل راسك لورا .

وعمل « على » بالنصيحة ، ولم يكن يملك إلا ان يعمل بها ، فقد كان فى حالة من « الخضة » جعلته يطيع كل قول له .

واحاط الصبية بزميلهم الجريح يزودونه بالمياه وبالنصائح حتى انقطع سيل الدم .

وصاح حريشة ضاحكا :

ــ خلاص يا جماعه ما تخافوش ، دى حاجه بسيطه .. دى عين وصابتنا .. انا طول النهار وعينى بترف .. الحمد لله اللى جت على كده .. خدت الشر وراحت .. روسيه تفوت ولا حد يموت .

وقال زين :

ــ بس خلاص .. صافيه لبن .. كل واحد يبوس راس التانى .. ياالله يا جماعه داحنا اخوات .

وتقدم « سيد » باعتباره صاحب آخر اعتداء وامسك براس « على » وقبل شعره المبتل وقال فى ندم :

ــ معلهش يا على .. حقك على .

وقام « على » فامسك براس « سيد » وقبلها وعيناه مغرورقتان بالدموع :

ــ الحق على انا يا سيد .. انا اللى غلطان .. معلهش آدى راسك .

وهكذا تصافى الصبيان .. وعادت المياه إلى مجاريها . إلا من امر واحد بقى جاثما على قلب سيد وهو جلبابه الممزق .

كيف يذهب به إلى البيت ؟

وصاح مسطرين :

ــ ولا يهمك .. الابره اللى خيطنا بيها الكوره آهى موجوده .. وانا اجيب لك فتله حالا .. حمامه .

وبعد لحظات كان « سيد » قد خلع جلبابه وجلس « مسطرين » على حافة الحجر يرتق موضع التمزيق وحوله الصبية يرقبـــونه حتى انتهى .

وكانت الشمس قد هبطت وراء الأفق والظلام قد بدأ يتسلل إلى الدرب ، وقال عبد الله المعيرجى :

ـ يالله بينا يا جماعه الدنيا ليلت .

وتجاوبت الردود : « يالله » .. « يالله بينا » ..

وقال سيد :

ـ حد فيكو يحب يتسلى بالقتله واحنا ماشيين ؟

وسأله حريشة :

ـ بكام ؟

ـ الشبر ببليه والقتله باتنين .

ـ ياالله .

وقذف سيد بنورته صائحا :

ـ العب .

واخذ كل منهم يتناوب تصويب نيكله على نيكل الآخر وهم سائرون حتى دخل كل منهم داره فى الدرب ، ولم يبق سوى حريشة وعبد الله .. فسار عبد الله إلى بيته فى درب السماكين .. وتذكر حريشة الكرات فانطلق يعدو لشرائه وحمله إلى الدكان .

الفصل الرابع

مطــرود من الجنــة

دخل كل من سيد وعلى إلى البيت وقبل ان يجتازا عتبة الباب همس سيد متسائلا :

ــ مش حانجيب سيره ؟

واجاب « على » مطمئنا وهو يرفع كتفيه :

ــ ولا كان حصل حاجه .

ولكنه استدرك متسائلا فى شك :

ــ ولكن الجلابيه بتاعتك .. حاتقول عليها إيه ؟

ــ اقول !! . أقول انها اتشبكت فى مسمار .. اقول اى حاجه .. على العموم هى متخيطه كويس ، وما افتــكرش حد حايشوفها الليله دى .. أنا حاخش انام قبل ما ييجى أبويا وبالنهار يبقى يحلها ربنا .

وكان الفناء قد أناره بصيص من ضوء فانوس معلق فى بير السلم ، وقد خلا من قاطنة النهار ورفاقها .. الأوتين والمــاعزة التى ساقتها « أم آمنة » إلى منور داخل البيت بمساعدة زكية بنت الخشنت التى تعودت مساعدتها فى قضاء حاجاتها وفى تنظيف الدار ، وكانت العجوز تعتبرها كابنتها .

وفى الفناء افترق الصبيان الصديقان متحابين كأن لم يتعاركا أو يتضاربا أو يمزق أحدهما ثياب الآخر أو يريق دمه .

صعد على فى السلم وهو يترنم بقوله « يا حليله يا بليله » . واختفى شبحه الصغير بين لفات الدرج ، واجتاز سيد باب الشقة المغلق نصف اغلاقة بعد أن دفعه بقدمه وهو يهز كيس البلى ويطوحه إلى الأمام وللخلف ثم وقف فى قاعة ضيقة مربعة رصفت أرضها ببلاط معصرانى مشقق مقلقل فى مستوى أرض الفناء .

ولم يكن بالقاعة من الأثاث سوى أريكة منهارة الجوانب ، مبقورة البطن ، سوداء كالحة ، ومنضدة خشبية وضع عليها مصباح غاز (نمرة ٥) بدد ضوءه ظلمة القاعة وتسلل من الأبواب المحيطة بها إلى الحجرات المفضية إليها . وعلق على الجدران بضع لافتات حوت آيات قرآنية : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) و (الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

ووقف « سيد » فى القاعة ، وأرهف سمعه ، وتلفت يمنة ويسرة يستطلع مكان جدته « أم آمنة » .. ثم دفع سبابتيه فى فمه وصفر صفيره الطويل وصاح صيحته الندائية المعتادة :

— أم آمنة .. يا ويكا .

وانتظر أن تجيبه « أم آمنة » لتدله على مكانها ولكنه لم يسمع لها صوتا .. فاتجه إلى يمينه ودلف من الباب فوجد العجوز راكعة على حصيرة الصلاة وهى تنهى صلاتها متلفتة يمنة ويسرة قائلة فى صوت خفيض :

— السلام عليكم .. السلام عليكم .

وأجابها « سيد » كأن التحية ملقاة إليه :

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، انت بتكفرى عن ذنويك والا إيه ؟ دى كانت ذنوب إيه دى كلها .. دانت لازم كنت شقيه اوى ؟

ونهضت العجوز متحاملة وهى تطوى الحصيرة .. ولاحت على شفتيها ابتسامة وهى تجيبه :

ــ يعنى يا مفضوح مش حاتبطل حكاية يا ويكا دى .. هو انا برضه اسمى ويكا .. والصفير بالليل .. ما تعرفش انه حرام ويطلع التمابين ؟

وكانت كلمة « مفضوح » هى اقصى ما يحوى قاموس « ام آمنة » من الفاظ السباب ، وكانت غالبا ما توجهه إليه عندما يمعن فى المزاح معها ، وهى تقصد به التدليل أكثر مما تقصد به السباب .

واجاب سيد فى رنة اسف مصطنعة :

ــ انت زعلتى يا ستى .. حقك على .. هاتى إيدك لما ابوسها .

واقترب منها فتناول يدها ولكن العجوز ضمته إليها وانحنت حتى مست وجنته بشفتيها وقالت ضاحكة :

ــ حد يزعل منك يا سيد الرجاله .. عايز تتعشى إيه ؟

ــ عندك إيه ؟

ــ عندنا طبق بصاره من خالتك ام على ، وعندنا جبنه وبطيخ .

ــ بصاره عليها تقليه ؟

ــ أيوه عليها .

ــ انا ما حبش التقليه .

ــ اشيل لك التقلية على جنب .

ــ ولا حبش البصاره كمان .

ــ طب كل جبنه وبطيخ .

ــ ما فيش حاجه تانيه ؟

ــ حاجه تانيه زى إيه .. طبيخ ؟

ــ لا .

ـــ أعمل لك سخينه ؟ انده زكيه تولعلى الوابور واقعد اعملها لك ؟ . . والا ابعت أجيب لك منهم شوية دقيق واعمل لك عصيدة ؟

ـــ عايز زتون .

ـــ طول عمرك زى الشريك المخالف . . أقول لك يمين تقول شمال ، أقول لك ابيض تقول اسود . . خد آدى قرش تعريفه هات بيه اللى انت عايزه .

ثم مدت يدها على صدرها فاخرجت منديلا صرت به بضعة قروش وفكته واعطته منه قرشا فتناوله الصبى وانطلق يعدو إلى باب الدرب حتى وصل إلى شيحة البقال فصاح به :

ـــ خد يا عم شيحه . . هات بتلاته مليم زتون وبمليم كرمله وبمليم لب .

وهم شيحه بتعبئة الزيتون عندما صاح به سيد :

ـــ والا اقول لك . . كفايه بنكله زتون وهات بمليم سودانى وبمليم كرمله وبمليم لب .

ولم يكد شيحه يمد يده لتعبئة الزيتون فى القرطاس حتى صاح به :

ـــ اسمع يا معلم شيحه . . بكم عود القصب ؟

واشار بيده إلى لبشة قصب مستندة إلى جانب الحانوت فأجاب شيحه وهو يتنهد فى ضيق :

ـــ بنكله .

ـــ مافيش عود بمليم ؟

ـــ فيه .

ـــ طب هات بمليم زتون وعود قصب بمليم وبمليم لب وبمليم سودانى وبمليم كرمله .

ـــ مافيش بمليم زتون .

ـــ يعنى إيه مافيش بمليم زتون ؟

ـــ مفيش بمليم زتون . . يعنى مانبيعش بمليم زتون .

ـــ وعلشان إيه ما تبعش بمليم زتون .. ما دام بتبيع بنكله .. لازم تبيع بمليم ؟ . اقسم نص أبو نكله يبقى بمليم .. ما خدتش حساب عمرك ؟

ـــ يا بنى ما تفلأنيش .. قلت لك ما بيعش بمليم يعنى ما بيعش بمليم ، عاجبك والا لأ ؟

ـــ طب ما تتأمرش كده .. بلاش زتون .. هات مصاصه .

وبدا شيحة فى تعبئة القراطيس الصغيرة من اللب والسودانى والكرملة والمصاصة وبراغيت الست ، ثم ناول سيد عود قصب صغير ثلاثة أرباعه زعزوعة ، وانطلق سيد يعدو بمشترياته إلى الدار .

وصاح بجدته وهو يتقدم فى الفناء :

ـــ ستى أم آمنه .

وكانت « أم آمنة » تجلس على شلتة على الأرض فى القاعة الضيقة أمام الأريكة المنهارة .

وكانت مستندة بخدها إلى كفها كعادتها ، وكانت تبدو دائما كأنها غريقة فى بحر من التفكير الحزين ، لا يرفعها منه سوى صوت حفيدها سيد .. فهو وحده القادر على ادخال الطرب إلى نفسها واشاعة الحبور فى وجهها .

واجابت الصبى :

ـــ ايوه يا سيد .

ـــ شايفه جبت إيه ؟

ـــ جبت إيه ؟

ـــ حاخليكى تاكلى وتمصى وتقزقزى وتندغى وتلحسى كه ده بقرش ابيض .

ـــ ايه .. ايه .. ايه ؟ . قول تانى اعمل ايه واعمل ايه ؟

ـــ خدى عندك .. حاتكلى فول سنسودانى .. وتمصى قصب ،

وتقزقزى لب ، وتندغى كرمله ، وتلحسى مصاصه كل ده بقرش ابيض .. يا بلاش .

ـــ ايه اصله ده ؟ ايه الكلام الفارغ اللى بتقوله ده ؟ انت جبت الزتون اللى حاتتعشى بيه والا لا ؟

ـــ طبعا لا .

ـــ أمال حا تتعشى إيه ؟

ـــ عندك إيه ؟

ـــ احنا حانعيده تانى ، انا مش قلت لك عندى بصاره وجبنه وبطيخ .. قلت ما حبهمش ، ورحت عشان تشترى زتون ؟

ـــ معلهش حاتعشى اى حاجه .. مش مهم .. بصاره .. جبنه .. اى حاجه .

ـــ الهى يعدلها لك .. ما كنت وفرت القرش .. والا كنت جبت حاجه تربى عليك ، وانت عامل زى عصاعيص النقاريه .. حد فى الدنيا يقول كده ، تروح تفرتك القرش فى حبة كلام فارغ ، حبة حاجات لا راحت ولا جت .. لكن الحق على . انا برضه الغلطانه اللى طاوعتك واديتك القرش .

ـــ دا ما كانش قرش ده اللى حاتتعدى تبستفينى عليه .

ـــ قلبى عليك .

ـــ خلاص بقى .. حصل خير .. تاخدى شوية لب .. والا مصاصه ؟

ـــ اللى يفرقه العويل يسفه .. اشبع به انت .. إياك يقضى كرشك .

ـــ ماقولنا خلاص بقى ما تزعليش ، هه وادى راسك .

وهجم عليها فطبع قبلة على راسها الأبيض المغطى بطرحة سوداء ، وضحكت العجوز .. وكان الصبى الصغير واثقا من النتيجة .. كان يعرف انها ـــ على حد قوله ـــ ديتها بوسه .

وقالت العجوز :

ـــ استنى بقى .. ما تسدش نفسك بالحاجات دى قبل ما تتعشى .
ـــ مش مهم العشا .
ـــ مش مهم ازاى ؟ . عايز تنام على لحم بطنك .. لازم تتعشى ، قوم هات طبق البصاره والجبنه والبطيخ من المطبخ وهات الطبليه عشان نتعشى مع بعض .

وقبل أن يتحرك « سيد » سمع وقع أقدام ابيه تطرق أرض الفناء .. فتوقف فى محله .. منتظرا دخوله فى شىء من اللهفة .

لقد أتى مبكرا .. وهو لا يكلف نفسه مشقة العودة مبكرا من القهوة .. إلا إذا كان قد قبض نقودا مكنته من أن يحضر معه شيئا مفرحا .

ودخل المعلم « شوشة » مرتديا الجلباب البلدى المخطط ، واللبدة السمراء ، والبلغة الفاسى الصفراء .. وفى يده لفافة تحوى الشىء المفرح .

والقى شوشة تحيته المقتضبة :
ـــ مساء الخير يام .
واجابت أم آمنة فى صوتها الحنون :
ـــ خير عليك يابنى .. أحضر لك تتعشى ؟
ـــ اتعشيت .

ولم ينتظر سيد بقية الحديث ، بل مد يده فتناول اللفافة من أبية فى صمت بعد أن أدرك بعينيه الثاقبتين ما يمكن أن تحتويه .

كانت لفافة من الورق الأبيض الخشن .. تناثرت عليها بقع لامعة شفافة .. هى آثار سمن نضح من الداخل .

« كفتة » ؟ . لا .. فالرائحة لم تفح .. انه يميز رائحة الكفتة ولو كانت على باب الدرب .

« بسبوسة » ؟ . لا .. فهى لا تنضح مثل هذا النضحان ، إن الورقة تكاد تكون مغرقة بالسمن .

« فطير » ؟ اجل ! اجل !

وصدق ظنه .. إذ لم يكد يتناول اللفافة من ابيه .. حتى قال :

ـ دول فطيرتين لك انت وسنك .. واحده بالزيت ، وواحده بالسمن .. والسكر ملفوف فى ورقه لوحده .. حاسب ينكب منك .

وأخذ « سيد » فى فتح الورقة ، وقد جلس على الشلتة بجوار العجوز .. وبدت عليه الفرحة .. انه كان فى اشد اللهفة إلى الفطيرة .

بارك الله فى ابيه .. فهو دائما يحضر الشيء المطلوب فى الوقت المناسب .

وبدا الفطير لامعا متوردا . وازدرد الصبى لعابه وهو يقول لجدته :

ـ انا حاخد أم زيت ؟

ـ خد اللى تعجبك .

ـ انهى أم زيت يابا ؟

ـ اللى فوق .

ورفع سيد الفطيرة « أم زيت » وقد فاحت منها رائحة شهية ، وبدت تحتها « أم سمن » أشهى وأروع ، فأخذ يقارن بعين لهفى بين الاثنين وقال لجدته محاولا كسب الوقت حتى يعطى لنفسه فرصة الأختيار :

ـ تحبى ام سمن ؟

ـ كله كويس .. اللى يعجبك خده .

وبدا عليه التردد ، وكان عليه أن يبت بسرعة .. فهو لا يقوى على الانتظار كثيرا ، وأخيرا مد يده بالفطيرة العليا للعجوز قائلا :

ـ خدى أم زيت .. وأنا حاخد أم سمن .. احط لك عليها سكر ؟

ـ حط .

ورش عليها بعض السكر ومد يده بها ، ولكنه سحب يده فجأة في منتصف الطريق قائلا :

ـ والا أقول لك .. انا حاخد أم زيت .

وضحكت العجوز وقالت :

ـ ربنا ما يحير مؤمن .

واحس بشيء من الخجل لتردده وحيرته . فرفع يده بالفطيرة قائلا في حزم :

ـ خلاص خدى دى .. انا حاخد ام سمن .

وامسكت العجوز بالفطيرة في يدها وتناولت منها قضمة جعلت تلوكها ببطء في فمها ، وأنشب سيد اظافره في فطيرته واطبق فيها اسنانه ، واخذ يقضم منها بنهم وسرعة ، وعندما أتى على معظمها ولم يبق منها سوى قطعة تبلغ الربع ، صاح بالعجوز :

ـ مش عايزه تدوقى الفطيره أم سمن ؟ تاخدى حته ، وتجيبى حته ؟

وكانت العجوز لم تأكل سوى قطعة صغيرة لا تزيد عن الربع .. ولم يكن هناك شك في ان بطئها في الأكل كان بطئا مقصودا ، وانها تستعد للخطة التي كانت تعلم سلفا أن حفيدها سيدبرها في نفسه .

ومد سيد يده بربع الفطيرة التي معه ، واخذ منها ثلاثة ارباع الفطيرة وبدأ يقضمها .. ولمحه أبوه وهو في طريقه إلى دورة المياه ليتوضأ ، فصاح به مؤنبا :

ـ انا قلت لك ايه يا سيد ؟ مش كل واحد فطيره ؟

ـ وأنا مالى .. ما هي اللى عايزه تبادل .

وضحكت الجدة وقالت لشوشة :

ـ يا خويه سيبه .. دا اللى في بطنه بيشبعني اكتر من اللى في بطنى .

وكانت العجوز صادقة في قولها مخلصة .. فما اشبعها شيء

كاللقمة التى ياكلها حفيدها .. كانت تشعر فى نفسها انهما لو اصيبا بمجاعة فى قفرة فليس أسهل عليها من أن تقطع جسدها قطعة قطعة كى تطعمه له .

ليس هناك فى الدنيا أحب إليها منه ، ومن أبيه .

لقد كانت كل الأسباب تدعوها لحب أبيه ، كان رجلا قويم الخلق ، حنونا طيبا صادقا وفيا .. لا تجد به عيبا ولا هنة .. هذا ما كان يحببها فى أبيه .. اما ما كان يحببها فيه هو ، فلا شىء .. كانت تحبه بلا تفكير ، ولا بحث ، ولا استقصاء .. كانت تحبه كما هو ، بشقاوته وعفرتته ، وخفة دمه ، وبكل تفاصيله ودقائقه ، وشروره وذنوبه .

وانتهى سيد من أكل الفطيرة والنصف .. وانتهت العجوز من أكل نصف الفطيرة .. وانتهى شوشة من الوضوء ، وخلا بنفسه فى حجرته يؤدى فريضة الصلاة .

وبدأ سيد يتثاءب ، وقال لجدته :

ـــ مش حاننام ؟

ـــ مش حاتاكل حاجه من اللى انت جاييها دى ؟

ـــ لا خليها للصبح .

ـــ ولا عايز بصاره ولا جبنه ولا شقة بطيخ ؟

ـــ لا شبعت خلاص .

ـــ طيب قوم عشان تغسل ايديك وتتشطف .

ـــ إيديه نضيفه .

ـــ والزيت بتاع الفطير ؟

ـــ مسحته فى الجلابيه .

ـــ أيوه عشان تيجى التعابين تشمك .. أنا مش بطلتك الوساخه دى .. قوم أشطفك وأغير لك الجلابيه .

ـــ يا سلام عليكى يا ستى لما تضايقينى بقى .. هوه كل يوم

التشطيف ده .. زهقتينى .. دى حاجه تطلع الروح .. بقى لى كام سنه باغسل أيديه ووشى .. يعنى كان نايدته إيه ؟

ــ قوم فز .. هوه كل ليله لازم تقول الموال ده ، مش ممكن تتشطف من سكات ؟

ولم يجد سيد بدا من النهوض ، لا سيما بعد أن نهضت جدته متحاملة على نفسها .

وسارت العجوز إلى دورة المياه ، دون حاجة إلى ان يقودها الصبى ، فقد كانت تسير بحاسة التوجيه فى انحاء الدار كأنها مبصرة .

وصاح بها سيد وهو يتبعها :

ــ أسبقينى لما أجيب اللمبه .

ــ مفبش لزوم ، خليها عندك .

ــ أنا مش شايف حاجه .

ــ مفيش لازمه تشوف .. أنا شايفه كل حاجه .. قرب هنا .

ولمت العجوز اطراف ثيابها وجلست على مقعد خشبى واطىء صغير امام صفيحة بها مياه ، وكانت دورة المياه لا تزيد على طرقتين إحداهما ،رحاض وحمام والأخرى مطبخ وكان ليلهما نهار ونهارهما ليل ، فما كان الضوء يعرف سبيله إليهما إلا من نافذة عالية تطل على المنور ذات قضبان حديدية كانها نوافذ السجون ، وكان بياض الجدران منهارا من نضح المياه ، وقد ظهر شق متعرج واضح عميق فى الجدار المواجه للباب كأنه هابط من عل نتيجة لمياه دائمـــة النز فى الطابق العلوى .

وصاحت العجوز بسيد وهى تبدا أشق عملية تقوم بها فى يومها :

ــ اقلع الجلابيه .

ــ انتى حاتحمينى ؟

ــ لا حاشطفك .

ــ حاتغسليلى راسى بالصابون ؟

ـــ أيوه .

ـــ عشان ايه ؟ . انتى مش غاسلاها اول امبارح .. هى سوره .. كل يوم غسيل غسيل .. دي لو كانت دماغى حجر كانت باشت .

ـــ قرب يا بنى بلاش مناكفه .

ـــ حاقرب .. بس بلاش الصابونه .

ـــ هو الصابون بيقرصك ؟

ـــ ما بيقرصنيش .. لكن بيخش فى عنيه .

ـــ أبقى غمض عنيك .. وهو ما يخششش .

ـــ بغمض ، وبرضه بيخش .

ـــ غمضهم كويس .

ـــ بغمضهم قوى .

ـــ خلاص يبقى مش حايخش .

ـــ برضة بيخش .

ـــ قرب بقى يا خويه الله يهديك ، قلقتنى ونبحت حسى ...

وبدأ يقرن حديثه ببكاء مصطنع :

ـــ هو إيه اصله ده ؟ .. كل يوم صابون صابون .. انا عارف ربنا عمل الصابون دا ليه ؟ .. عشان يخش فى عنين الواحد .. ده حتى ظلم .

ـــ ظلم .. ظلم .. بس قرب .. ناولنى إيدك .

ومد سيد يده فاطبقت يدها وجذبته نحوها فأجلسته قائلة فى غيظ :

ـــ اقعد هنا .. قرب راسك من الصفيحه ..

وقبل ان يمد سيد رأسه من الصفيحة لمح الصابونة موضوعة على الأرض بجوار المقعد الذى تجلس عليه فمد يده في حذر وامسك بها فاخفاها وراء ظهره .

وملأت العجوز الكوز من الصفيحة ثم صبته .. فوق رأس سيد ، ثم مدت يدها تتحسس الصابونة فى الموضع الذى تعودت أن تضعها

فيه بجوار المقعد ، ولكنها لم تجدها .. وظلت تتحسس برهة هنا وهناك ، ولم تلبث حتى أدركت ما حدث فأمسكت اذن الصبى بين سبابتها وإبهامها ، وقالت مهددة :

ـ هات الصابونه .

ـ صابونة إيه ؟

ـ هات الصابونه بالتى هى احسن .

وأجاب سيد فى عناد :

ـ ما شفتش صابون .

وضغطت باصبعيها على اذنه .. فصاح :

ـ آى .. آى .

ـ هات لحسن انده لأبوك يدشدشك .. انت عارف لما يمسك ما يخليش فيك نفس .

ـ خدى اهه .. اشبعى بيها .

وقبل أن تضع الصابونه على راسه بدأ فى البكاء المصطنع واخذت تدعك رأسه ، وهى تقول :

ـ بس بقى بلاش زن .. اسكت بقى .

وبدأت تدعك وجهه فأغمض عينيه بشدة .. وبعد طول دعك صبت المياه على راسه لازالة الصابون ..

وسألها فى خلال « زنه » :

ـ خلاص ؟ . افتح عينيه ؟

ـ استنى شويه .

ـ استنى إيه ؟

ـ حاغسلها لك دور تانى .. دى عليها راقات طين .. ولا اللى بيمشى على راسه مش على رجليه .

ـ دور تانى ؟ إيه هو الظلم ده .. هى امك كانت بتغسل لك راسك دورين ؟

ـــ وأنا كنت أوسخ نفسى زيك كده ؟

واخيرا انتهى دور الراس وبدأ دور الساقين والذراعين وكانت المهمة أسهل كثيرا إذ لم يكن بها ما يغضبه .

واخيرا انتهى التشطيف ، وارتدى سيد جلبابا نظيفا ، وكان هذا هو اهم ما فى الأمر .. إذ تخلص مؤقتا من جلبابه الممزق المرتوق الذى يحمل آثار المعركة بينه وبين « على الخشت » ثم سار بجوار العجوز إلى حجرتهما .

وكانت الشقة تتكون من ثلاث حجرات ضـــيقة مظلمة رطبـــة مرصوفة كالقاعة بالبلاط المعصرانى ذى القلاقل والشقوق ، فى كل منها نافذة ذات قضبان حديدية ، وكان شوشة ينام فى إحداها على فراش خشبى تعلوه مرتبة رقيقة ويوجد فى ركن الحجرة مشجب علق عليه بعض ملابســه ، وفى الركن الآخر دولاب صغير وضع فيه البقية الباقية منها .

وكانت العجوز والصبى ينامان فى الحجرة المجاورة فوق مرتبة وضعت على الارض واستبدل بالمشجب فيها حبل دق بين الجدارين فى إحدى الزوايا ونشرت عليه بضعة اثواب للعجوز والصبى ووضع فى أحد الأركان طشت وابريق كانت تستعمله العجوز للوضوء والغسيل .

أما الحجرة الثالثة فلم تحو غير صندوق الكراكيب ، وكانت تكاد لا تفتح إلا عندما يحلو لسيد العبث فى أنقاضها عله يعثر على شىء ينفعه فى لعبه .

ونظر سيد خلال باب حجرة أبيه فوجده جالسا جلسته المعتادة فوق فراشه الملاصق للنافذة متكئا بمرفقه على حافته مستندا بذقنه إلى كفه متطلعا ببصره إلى السماء أو إلى الشريط البادى منها اعلى حافة النافذة وأعلى حافة الدور المقابلة فى الدرب الذى يظهر كأنه سقف فوق الدرب ، وكان يمسك بيسراه سيجارة يقربها من شفتيه بين آونة

واخرى ليمتص دخانها فيملأ به صدره ، ثم يدفعه فى نفس طويل وزفرة حارة .

تلك كانت جلسة ابيه الدائمة كل ليلة قبل أن يتمدد فى فراشه ويغمض عينيه ، وهى شديدة الشبه بجلسة جدته كلما خلت بنفسها من حيث الإطراء والوجوم والسرحان والشرود وأمارات الحزن التى ترتسم على وجهى كل منهما .

كان كلاهما يسير فى تيار الحياة فلا يكاد يتوقف به التيار حتى يرسب إلى أغوار عميقة من الحزن والتفكير .. كانا شديدى الشبه إذا ما خلا كل منهما بنفسه .. صلاة .. واطراق .. وحزن .. وتطلع إلى السماء .. كأنما تجمع بين ذهنيهما فكرة واحدة .

ولكن سيد لم يحاول أن يبحث ما وراء ذلك ... ولا اهتم بأن يسأل عن سبب ذلك الهبوط إلى القاع إذا ما توقف بهما تيار الحياة .. لأنه لم يكن لديه وقت للتفكير فى ذلك ، ولأن تيار الحياة لم يتوقف به قط .. فهو لا يكاد يكف عن الحركة .. فإذا كف جسده عن الحركة فان ذهنه يواصل نفس الحركة .. بلى .. وكرة شراب .. وحريشة وشجرة الجوافة .. و .. و .. مما لا يتركه إلا وقد استسلم إلى الرقاد .

ورفع راسه محولا بصره من ابيه المتطلع إلى السماء من وراء قضبان النافذة إلى جدته التى تتلمس طريقها إلى فراشها .. مناديا :

ــ ستى .

ــ هه .

ــ مش حاتحكيلى حدوته ؟

ــ حاحكيلك بس ...

ــ بس إيه ؟

ــ تبطل الزن لما اغسلك راسك بالصابون ؟

ــ هو انتى لسه حاتغسليلى راسى بالصابون تانى ؟

ـ قصدى المره الجاية .

ـ يا ستى يحلها ربنا لما تيجى المره الجايه .. انتى يعنى مستعجله قوى .. على العموم .. أنا مش حاوسخ راسى أبدا عشان اريح قلبك .

ـ يعنى برضك ناوى تزن ؟

ـ طب مش حازن .. حاتحكيلى بقى ؟

ـ أيوه .. كده .. لما تبقى ولد طيب وابن حلال .. وأمير .. وتستحمى من سكات ولا تتخانقش مع ولاد الجيران .. ولا توسخشى هدومك ولا تقطعهمشى أقوم أحبك واحكيلك اللى انت عايزه .

« ولا تقطعمشى !! » هنا بيت القصيد .. ترى متى ستكتشف تمزيق الجلباب ؟ طبعا عند الغسيل !! ولكن ماذا تراها ستفعل ؟ . ستناديه « يا مفضوح » وتقرص له أذنه ؟ .. هذا اقصى ما ستفعله .. انها متسامحة كريمة .. وهى لا شك لن تبلغ أباه .

دار بخلده كل هذا بسرعة وانتهى بطمأنة نفسه واجابها قائلا :

ـ حاتحكيلى إيه ؟

ـ اللى انت عايزه .

ـ قولى انت .

ـ أحكيلك « خششبان أعمى طرشى ما بينضرشى » ؟

ـ لا .. انتى لسه حاكياها امبارح .

ـ احكيلك « يا حوريه الرغيف وراس البوريه » ؟

ـ لا .. دى زهقت منها .

ـ أقول لك يا سيدى لما انت .. حدوته كسبره ؟

ـ أيوه .. قوليها لى دى .. بقى لى زمان ما سمعتهاش .

ـ طب يا الله بينا .

وهبطت العجوز إلى الفراش الأرضى وتمددت على جنبها الأيمن وفردت ذراعها فتوسده الصبى وقبل أن تبدأ القص ضمته إلى صدرها

واخذت تتحسس رأسه وتقاطيع وجهه برفق وحنان ، وقال هو بصبر نافد :

ـــ يالله بقى احكى .

ـــ كان ياما كان يا سعد يا اكرام .. ما يتم الحديث إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام .

ـــ عليه الصلاة والسلام .

ـــ كان فيه يا سيدى ...

وبدأت « الحدوتة » والصبى ينصت ، وأنفاسه تتصاعد فى هدوء ، وصدره يعلو ويهبط ببطء ، ولم يطل الحديث بالعجوز حتى أحست بيد الصبى التى أحاطت بها قد تراخت وراح هو فى سبات هادىء عميق .. يريح به جسدا أنهكه طول السير واللعب وحمل القرب والعراك .

وضمته العجوز إلى صدرها وعادت مرة أخرى تتحسسه كما يتحسس البخيل كنزه ؛ وطال بها الشرود والتفكير قبل أن يبسط عليها النوم سلطانه ، وأخيرا أغفى كل من فى البيت ، وانحصرت كل مظاهر الحياة فيه فى أنفاس تتردد فى سكون .

* * *

كان الأب أول من استيقظ ؛ وكان ضوء الفجر ينساب من النوافذ رماديا باهتا قد اختلطت ببياضه رواسب الظلمات .. ثم أخذت الرواسب تصفو شيئا فشيئا .. حتى أضحت الخيوط الهابطة إلى الدار بيضاء صافية .. وانتهى الأب من وضوئه وصلاته وارتدى جلباب العمل والسطيح واللبدة ؛ ثم دلف إلى حجرة العجوز ونادى الصبى بصوت رقيق :

ـــ سيد .. سيد ..

واستيقظت العجوز قبل أن يستيقظ الصبى وهتفت بالأب :

ـــ ياابنى لسه بدرى أوى .. خليه ينعس شويه .

وكانت « أم آمنة » تعارض الأب فى محاولة دفع الصبى إلى العمل وفى محاولة ابلاغه مبلغ « الرجالة » أو كما يقول شوشة :« توديكه » . . وكانت ترى أن هذا شىء مبكر جدا ، وأن عود الصبى لم يصلب بعد .

ولكن شوشة لم يكن يلقى إليها بالا . . كان كلاهما يحب الصبى ، ولكن بطريقته الخاصة . . الجدة : تود ألا يفارق أحضانها ، فهى تخشى عليه من كل شىء ، وتكره له كل جهد وتريد الترفق به كل الترفق . . أما الأب . . فكان يريد أن يسبق الزمن فى خلقه وتكوينه . . يريد ان يغمض عينيه ، فيراه رجلا . . وكما كانت العجوز يمتعها أن تضمه إلى أحضانها ، كان هو يمتعه أن يرى الصغير ، وقد ارتدى السطيح وحمل القربة وسار بخطوات رزينة ثابتة يفرغها فى المكان المطلوب .

وهكذا طلبت أم آمنة من شوشة أن يتركه ينعس قليلا ولكنه لم يستمع لها ، بل استمر ينادى الصبى ولكن بلهجة أشد :

ـــ سيد . . سيد . . اصحى يا وله .

وفتح سيد عينيه ، ولم يكد يبصر أباه ويسمع صوته ، حتى قفز واقفا بعينين مغمضتين وهو يقول :

ـــ أيوه يابا ، حاضر أهو يابا .

كان سيد يعرف أنه يستيقظ على عمل يلذ له . . ولو كان يعرف أنه يستيقظ للذهاب إلى الكتاب ، لتمطى وتثاءب . . وتطلب المزيد من النداء والزجر والنهر . . أما لبس السطيح وحمل القربة ، والذهاب إلى السراية وسقى التمرحنة . . وما بعد ذلك من أعمال جليلة ممتعة ، فقد كان عملا يستحق أن يقفز من الفراش ، وأن يضحى من أجله بأحلى نومة .

واسرع سيد يغسل وجهه ، أو على الأصح يبل وجهه بأطراف أصابعه ، ثم ارتدى السطيح ، وسار يهرول وراء أبيه ، وقبل أن يعبر الباب صاحت أم آمنة :

ـــ ما تتغدوش بره ، انا حاطبخ لكم .

ووقف « شوشة » فى مكانه ، ثم عاد القهقرى ، وأخرج حافظته وأخرج منها قطعة ذات الخمسة قروش ووضعها فى كف العجوز فى صمت .

واجابت المراة :

ـــ انا معايا فلوس .

ـــ معلهش ، خلى دى معاكي ، يمكن تعوزى حاجه .. تحبى أبعت لك حاجه ؟

ـــ لأ .. زكيه بتشترى اللى انا عايزاه ، مع الحاجه اللى بتشتريها .

ولم تكن زكية تشترى فقط ، بل كانت ، كما سبق القول تؤدى للعجوز كل ما يمنعها بصرها الخابى من أدائه .

وخرج الرجل وابنه يتواثب حوله ، وسار الاثنان يدفعان امامهما العربة المحملة بالقرب الفارغة ، عابرين الدرب متجهين سويا إلى كشك الصنبور فى أول درب السماكين .

ووصلا إلى الكشك .. ولكنه كان مغلقا .. فالمعلم لم يصل بعد .. وكان فى انتظاره امراتان بصفيحتيهما .. وعبد العزيز السقا بقربته .

واوقف شوشة العربة بجوار الرصيف ، واتكأ عليها منتظرا فى صبر وغيظ مكظوم ، والقى تحية مقتضبة إلى الثلة المنتظرة قائلا :

ـــ صباح الخير .

وردوا عليه التحية ، وبدا على عبد العزيز انه يريد تسلية نفسه بالثرثرة ، فبدأ الحديث قائلا :

ـــ المعلم على لازم راحت عليه نومه .

واجابت إحدى المراتين :

ـــ ويسيبه مصالح الناس متعطله كده ؟ وهى دى تبقى اصول ؟ احنا ورانا شغل .

وعلقت الأخرى بقولها :

ــ ودى لطمة إيه ياختى دى ، هوا احنا فاضيين له ؟

ورغم ان شوشة كان اكثرهم غيظا ، إلا انه كان شديد السيطرة على لسانه ، فلم يفه بكلمة ضجر ، أو تعليق سوء ، بل اكتفى بأن أطلق تنهيدة طويلة .

ولكن ابنه لم يكن كذلك .. لقد كان كل ما فيه طليقا متحررا ، لا سيما لسانه ، فصاح مشتركا فى الحديث .. نيابة عن أبيه :

ــ لازم كان سهران فى زفه .. مش مطيباتى ؟

وتهقه عبد العــزيز .. وضحكت المراتان .. وكتم شــوشــة ضحكته ، وقال لابنه ناهرا :

ــ اقصر لسانك ولا تداخلش فى اللى مالكش فيه .

ــ ودا كمان ماليالش فيه ؟ انا مش سقا زيى زيكم ؟ هى دى مش عطله ؟ واحنا ورانا مصالح ناس .. حد قال يجيبوا مطيباتى يعملوه باش سقا .. ويمسكوه حنفيه ؟ . دا حقهم يمسكوه رق .. يرقصوه عشره .

وقاطعه ابوه بصيحة ناهرا :

ــ بس يا واد بلاش قلة أدب ، قلت لك اقصر لسانك يعنى اقصر لسانك .

ولم يجد سيد بدا من الصمت على مضض ، وعاد يلعب بقدميه فى مجرى المياه المنحدر إلى البالوعة .

وبعد برهة اقبل « على دنجل » ، أحمر العينين .. منتفخ الأجفان ، مهدل الشارب ، والقى تحية متجهمة على الجميع فاجابوه باكثر منها تجهما .. واتخذ مكانه على المقعد فى الكشك وراء الصنبور .

وملأت المراتان .. ثم ملأ عبد العزيز .. وقال شوشة مخاطبــا ابنـــه :

— قرب خد قربتك واملا .

فلما ملأ سيد قربته أردف قائلا :

— أسبقنى على السرايه .. وفتح عينيك كويس .. خلى عينك فى راسك .

وكان تحذيرا ثقيلا لم يبتلعه سيد بسهولة .. بل اعتبره نذير سوء ، ولكنه لم يملك إلا أن يجيب :

— حاضر .

وسار سيد بحمله الصغير ، محنى القامة ، مبلل الثوب ، تشوب سعادته المطلقة صدى انذار ابيه وتحذيره إياه بان يضع عقله فى راسه .

— ماذا يقصد أبوه بأن يضع عقله فى رأسه ؟ . ايعنى الا يمد يده إلى شيء من الثمار ؟

سخافة ! . إن هذا هو بالضبط عدم وضع العقل فى الراس .. إنه الجنون بعينه .. أن يذهب إلى حديقة السراى ولا يمد يده إلى ثمارها ؟ . ولو كان ينوى ان يفعل ذلك .. لكان اجدر به ان يجنب نفسه كل هذه المشقة .. مشقة الصحيان المبكر ، وحمله القربة ، والعدو وراءه فى الطرقات .

أجل ! إذا كان ابوه يظن انه قرير بكل هذا من أجل خاطر عيون التمرحنة .. فهو ، ولا مؤاخذة ، مغفل كبير .

ولكنه يربأ بأبيه أن يكون كذلك ، إنه لا شك يقصد بقوله له « خلى عقلك فى راسك » ، الا يرتكب حمقا كالذى ارتكبه بالأمس .. فلا يتسلق شجرة . ولا يكسر فرعا ، ولا يقع من الشجرة على رقبة « عم جابر الله » فيقصفها .

هذا بالطبع ما يقصده ابوه .. ومعه حق .. فمن الغباء ان يرتكب جناية قتل من أجل جوافاية .. أو بلحاية ، أو حتى قشطاية .

يجب أن يضع عقله فى راسه .. فلا يتهور .. بل يأخذ ما يشاء من الثمار بالتى هى أحسن .

وهكذا فسر سيد انذار ابيه .. وازاح بذلك التفسير العبء الذى أثقل ضميره ، واقبل على باب السراى وسعادته مطلقة لا تشوبها شنائبة من خوف أو شك ، واطل ببصره من باب السراى فلمح عم جاب الله مغرقا فى صلاته .. وكان اكثر ما يحبب سيد فى الله هو أمره عبيده بالصلاة .. وتحديده لهم قبلة تربطهم باتجاه معين لا يتحولون عنها . فلولا هذا ما استطاع ان يتسلل بسهولة من وراء « عم جاب الله » الراكع امام القبلة ، المعطى ظهره للباب ، المنهمك فى الركوع والسجود ، والقراءة والتمتمة .

وهكذا دلف سيد إلى الداخل فى سكون .. حامدا الله شاكرا عبده المطيع جاب الله .. واتجه فى صمت وسكون إلى شجرة التمرحنة مصوبا فوهة القربة إلى الحفرة المحيطة بها ، وترك المياه تنحدر إليها حتى نفد كل ما فى القربة فخلعها عنه ووضعها على الأرض وخلع السطيح ووضعه بجوارها حتى يتحرر من قيودهما وتخف حركته .

إن امامه فسحة من الوقت يستطيع ان يتمتع خلالها بالحديقة . فأبوه ما زال يملأ بقية القرب ، وسيمر فى طريقه على بضعة بيوت قبل ان يصل إلى السراية .. أما عبد الله المطيع المدعو جاب الله .. فسيظل مقيدا نفسه إلى القبلة إذ ليس هناك ما يدعو إلى حله .. فهو لم يحس بدخوله .. وهو لا شك مطمئن ، أربعة وعشرين قيراطا .

ونظر حوله يفحص الحديقة بعينيه ليرتب فى ذهنه خطة موضوعة للاستمتاع بها .. فرفع بصره على الفسقية ولما يزل بها بعض المياه التى لم تتصرف بعد فى مجارى الأشجار فعزم على أن ينتهزها فرصة ويلقى بنفسه فيها .

وشمر الجلباب حتى أرجل سرواله القصير واضعا ذيله فى

« عبه » .. ثم قفز إلى الفسقية وأخذ يعدو فيها ضاحكا ضاربا الماء بساقيه ، محدثا عاصفة من الرشاش اغرقت بقية جلبابه ، منشدا احب الأغنيات إلى نفسه « حالى يا حالى .. بس ان مريت .. ع الدقه والفول ابو زيت » .

وهكذا استمر يعدو ويرقص ، متمما بقية الأغنية صائحا : « مر على الباشسجان وغمزنى بعلبة دخان » .

ولمح فى وقفته شجرة لوف ، تتسلق جذع إحدى النخلات وابصر بين اوراقها الخضراء العريضة ، وزهرها الأصفر كوزا كبيرا من اللوف فى متناول اليد .

ودون أن يفكر ماذا يمكن أن يصنع بالكوز قفز من الفسقية ووثب نحو النخلة ، وفى لمح البصر كان قد نزع الكوز من موضعه وأخذ يتسلى بتقشيره ولوث نفسه بمائه اللزج وما عتم حتى قذف به إلى الأرض وراء النخلة .

مغفل !! ما هكذا يضيع الوقت فى الحديقة ؟ . إن اباه قد نصحه بأن يضع عقله فى رأسه ، وما فعله نموذج لتصرف رأس بلا عقل .

وعاد يتلفت إلى الأشجار فوجد الأرض تحت شجرة الجوافة ملأى بالثمار .. نتناول واحدة . ثم تناول ثانية وثالثة .. وما لبث حتى احس بالشبع .

لقد اتبع قول ابيه ، إنه لم يتسلق الشجرة ، ولم يقصف رقبة عم جاب الله .. ولكنه شبع .. فماذا يفعل بعد ذلك ؟

لياكل بلحا .. ولكن النخلة ليس تحتها شىء .

ورفع بصره إلى أعلى فإذا بأربع سباطات حملت بالثمر الأحمر ، وقد تهدلت متثاقلة حول جذع النخلة .

واخذ سيد يفكر بسرعة .

إذا وضع عقله فى راسه كما قال أبوه .. فعليه ان ينتظر تحت النخلة حتى يمن الله عليه ببلحة او بلحتين تسقطهما حداة أو غراب او نسمة من ريح .. ومن يدريه ان الحداة والغراب والنسمة سيهديهم الله إلى إسقاط البلح قبل حضـور أبيه او قبل انتهـاء جاب الله من صلاته .

أما إذا لم يضع عقله فى راسه فعليه أن يتسلق النخلة .. وفى هذه المرة .. إذا سقط .. ستدق عنقه هو .. بدل عنق جاب الله .

واخذ يقيس النخلة ببصره وقد اصابته حيرة شديدة .

أيصعد النخلة .. أم لا يصعدها ؟ يصعد أم لا ؟ . يصـعد أم لا .

إن اللوغة ستساعده ، ولكن من يدرى أنها لن تتهاوى تحت ذراعيه .. لا .. لا .. إنه لن يغامر بتسلقها ، ولكنه مع ذلك يريد بلحا .

وبرق فى ذهنه خاطر ، يغنيه عن المغامرة وينيله مأربه .

لم لا يقوم هو مقام الغراب او الحداة أو النسمة ؟ . انه يستطيع بحجر أن يسقط أضعاف ما يسقطه ثلاثتهم معا دون حاجة منه إلى تسلق النخلة ، وإخراج عقله من راسه .

وتلفت حوله فوجد بجوارا لفسقية حجرا صغيرا .

هذا حجر مضبوط .. ان الله موفقه هذا الصباح .. صلاة عم جاب الله ، والمياه فى الفسقية ، والجوافة جاهزة تحت الشجرة ، والحجر جاهز تحت النخلة .. كل هذا توفيق من عند الله .. أو الشيطان .

وقذف بالحجر بأقصى ما لديه من قوة ، واندفع الحجر من يده مرتفعا إلى قمة النخلة ، متجنبا الجذع ، والسباطات ، والزعف ، مارا بجوار كل ذلك فى دائرة ، عبر بها قمة النخلة مندفعا من الناحية الأخرى تجاه البيت ، تاركا كل واجهة البيت الحجرية ، رافضا أن يستقر إلا على

زجاج إحدى النوافذ ، وسقط الزجاج مهشما محدثا صوتا مريعا ، وفى نفس اللحظة هب « جاب الله » من صلاته مندفعا إلى الداخل ، ووراءه المعلم شوشة حاملا قربته ، ونظر « سيد » إلى النافذة المتهاوية فى يأس ، ونظر إلى السطيح والقربة ثم اندفع يعدو تجاه الباب هاربا بأقصى سرعة ، وصاح به أبوه فى دهشة :

ــ على فين ؟

واجابه « سيد » وهو يعدو :

ــ على الكتاب .

بيدى لا بيد عمرو .

الفصل الخامس

فى الكتــــاب

اندفع « سيد » يعدو كالمجنون فلم يتوقف إلا أمام دارهم فى درب القط ، وعدا فى الفناء مرتميا فى أحضان جدته « أم آمنة » وهو يلهث من فرط التعب .

وصاحت به العجوز متسائلة فى دهشة وفزع :

ـــ مالك ؟ . حصل إيه كفى الله الشر ؟

واستمر « سيد » يلهث دون أن يجيب ، وعادت أم آمنة تستحثه بسؤالها :

ـــ مالك ؟ بطحت حد ؟

ـــ يا ريت .

ـــ قتلت قتيل ؟

ـــ أبدا . . كسرت لوح قزاز فى السرايه ؟

ـــ يا ندامه . . وايه اللى يخليك تقل عقلك وتكسر اللوح . . تخبطت فيه ؟

ـــ أبدا دا فى تانى دور . . وانا كنت فى الجنينه بسقى التمرحنه .

ـــ وايش جاب التمرحنه للقزاز اللى فى تانى دور ؟

ـــ اللى حصل . . انا واقف كده تحت النخله لقيت طوبه راحت خبطه فى الشباك دشدشته .

ـــ ومين اللى حدف الطوبه ؟
ـــ انا عارف بقى .. الله اعلم .
ـــ كان فيه حد غيرك فى الجنينه ؟
ـــ لأ .. عم جاب الله كان بيصلى فى البوابة .
ـــ يعنى انت اللى حدفتها ؟
ـــ ما عرفتش .. انا لقيت الطوبة جت فى إيدى من غير ما احس .. حبيت ابعدها عنى .. رحت حادفها بعيد . عليت لفوق .. لفوق .. عدت النخله ، ولفت ، ومالقيتش حته تنزل عليها فى الدنيا الواسعه دى .. غير لوح القزاز .. اعمل لها إيه ؟
ـــ مالهاش حق .. كان حقها نزلت تانى ترف على دماغك .. عشان تبطلك الشقاوه وتكسير شبابيك الناس .
ـــ وهوا انا كان قصدى ؟
ـــ نهايته .. وبعدين عملت إيه ؟
ـــ ولا بعدين ولا قبلين .. حطيت ديلى فى سنانى وقلت يا فكيك ، والا حاستنى لما آخد العلقه ؟ . انا عارف انها حاترسى فى الآخر على إنى اروح الكتاب .. قلت يا واد خدها من قصيرها وروح من نفسك .. فين الصندل والطربوش واللوح الصفيح ؟ ...
ـــ اهم مطرح ما بترميهم .. يعنى حايروحوا فين ؟ .. انا لا بعرف اقرا ولا اكتب .
ـــ انا حاططهم على الصحاره اللى فى أودة الكراكيب .
ـــ اهم لازم هناك ما حدش شالهم .
وقفز سيد من احضانها مندفعا إلى الصحارة .. فلم يجد عليها شيئا ، وتذكر انه فتح الصحارة عندما كان يبحث عن البنورة ، وتذكر ان عدة الكتاب لابد أن تكون قد سقطت من غطاء الصندوق فوقعت فى المسافة بين الصندوق والحائط فصعد فوق الصـــندوق ومد ذراعه يتحسس الحيز الضيق فاصطدم بالطربوش واخرجه وقد تكور وتطبقت

جوانبه وانهارت أركانه وعلته الأتربة ، وخيمت عليه العناكب ، ثم عاد يتحسس بذراعه مرة أخرى فاصطدم باللوح الصفيح . . . أما الصندل فوجده مختفيا فى ركن الحجرة تحت إحدى القرب القديمة .

واخذ يستعدل الطربوش وينقر قرصه بأصبعه ثم يمسحه بطرف كمه ، فلما عاد إلى أصله وضعه على مؤخـرة رأسه واخـذ يلبس الصندل ، وامسك اللوح بيده وصاح بجدته :

ـــ أنا ماشى .

ـــ استنى لما تفطر .

ـــ عندك إيه ؟ اظن حاتقولى طبق البصاره ، والجبنه والبطيخ ؟ . لا يا ستى يفتح الله . . حــد الله بينى وبين البصــاره بتاعتك . . أنا ماشى .

ـــ امال حتاكل إيه ؟

ـــ آكل اللى آكله . . معاكى فلوس ؟

ـــ معايه . . عايز كام ؟

ـــ هاتى قرش ساغ . . افطر بتعريفه وأتغدى بتعريفه .

ـــ آدى قرش ساغ أهو . . بس اشترى حاجه تربى عليك . . مش تروح تبعزقه فى الكناسه اللى انت بتشتريها حمص ولب وكرمله . . الحاجه اللى اشتريتها بالليل اهى قاعده زى ما هى ما حدش داقها .

ـــ خليها لما ارجع . . أنا ماشى .

ـــ مع السلامه . . حاسب على نفسك ، وامشى على الرصيف ، وخد بالك وانت بتعدى الشارع . . روح ربنا يهديك ويحبب خلقه فيك . . روح ربنا يجعل السعد فى قدمك ويبقيك ويهنيك . . يا سيد يابن شوشه .

وانطلق « سيد » قبل أن يسمع بقية الدعوات . . إذ كان يحفظها عن ظهر قلب . . كما كان يحفظ دعوات السوء التى تفيض بها جعبة خالته « الحاجة زمزم » ، وكان يسائل نفسه أحيانا : هل يسمع الله

فى عليائه مثل هذه الدعوات ؟ .. وهل يفكر فى الاستجابة إليها احيانا ؟ . من يدرى ؟ .. على انه يجب أن يكون على حذر من دعوات زمزم .. فلو فكر الله مرة فى الاستجابة إليها الأودت بالمصاب بها إلى اسفل سافلين .

ولم يكد يتجاوز الباب حتى سمع وقع اقدام تهبط السلم ، ثم سمع صوتا يناديه فى دهشة :

ـ سيد .. رايح فين ؟

وتلفت وراءه فأبصر « على الخشت » هابطا فى طريقه إلى الكتاب .

وتوقف فى مكانه وأجاب فى لهجة لا تخلو من مرارة :

ـ رايح للفقر الأزلى .. رايح للشيخ كفته بتاعكم .. الواحد افتكر إن ربنا تاب عليه .. لكن معلهش .. أهم يومين وينقضوا .

وعاد « على » يسأله فى دهشة فرحة :

ـ صحيح رايح الكتاب ؟

ـ أيوه رايح الكتاب .. إيه ؟ عجيبة ؟ . والا بعد ما شاب ودوه الكتاب ؟ . بلاش ما روحش ؟

ـ ما تروحش ازاى . أنا فرحان عشان حانروح سوا .

وسار الاثنان فى الدرب وقد وضع كل منهما يده على كتف الآخر وامسك بالأخرى اللوح الصفيح ، وزاد على اللوح الصفيح الذى يحمله « على » لفافة ربطت بمنديل محلاوى .

ونظر إليها « سيد » وقال متسائلا :

ـ دى إيه دى يا واد يا على ؟

ـ اكل .

ـ فطار والا غدا ؟

ـ الاتنين .. وانت .. أمال فين الأكل بتاعك ؟

ـ معايا ساغ أهوه .

ــ يا بختك ، وحتاكل إيه ؟

ــ حاخد طبق بليله من عند ابو دومه .

ــ آدى نكله .

ــ وبتلاته مليم شقة وطعميه سخنه من عم سلامه .

ــ يا بختك . . آدى تعريفه . وإيه كمان ؟

ــ واتغدى بالتعريفه التانى من عند عم جراده .

واطرق « على » وقد بدا عليه الأسف ثم قال متنهدا :

ــ قولتلها تدينى ساغ وبلاش القرف اللى هى مديهولى ده . . ما عجبهاش . . قالت لأ . . خدلك حاجه تربى عليك ، وبلاش الرمرمه اللى بتلمها من الشارع . . رمرمه آل ؟

ــ ادتك إيه ؟

وكان معروف بداهة أن « هى » هذه هى « أم على » ، واجاب « على » فى حنق :

ــ انا عارف مديالى إيه ، لازم كفته ورز ولحمه . . وعك م اللى بيعملوه فى البيت .

وأحس « سيد » بشهيته تفتح للكفتة واللحمة وغيرها من الكبدة والمخ أو ما يسميه على « عك » ، وكان « على » يكرهها لأن اباه قصاب ، وهو مغرق فى اللحوم إلى اذنيه . اما « سيد » فكان الحال يختلف عنده اختلافا بينا .

ولكنه لم يشأ أن يظهر لهفته على ما يحمل « على » فى لفافته وعزم على أن يتفاخر بما ينوى ان ياكله رغم انه يعلم جيدا ماذا يبيعه « عم جرادة » من أصناف الماكولات .

قال « سيد » وهو يقلب شفتيه فى اشمئزاز مصطنع :

ــ اخص . . كفته ولحمه ورز . . حاجه تقرف . . الله يكون فى عونك . . انا برضه ام آمنه حبت تعملها معايا . . لكن على مين . دول صنف ما يخفش إلا من العين الحمره .

وعاد « على » يتنهد كأنه ينوء بأثقال من الحزن .. ونظر إلى « سيد » بطرف عينيه وبدا عليه التردد برهة ، ثم قذفه بطلبه فى صوت وجل قائلا :

ــ تشارك .

وأحس « سيد » من قول صاحبه طربا شديدا ، ولكنــه تجاهل مقصده وسأله :

ــ ف إيه ؟

ــ فى الأكل !

ــ ازاى ؟

ــ نشترى حاجات بالساغ بتاعك سوا ، وناكل أكلى سوا .. إيه رايك ؟

ــ لا يا عم .. حد الله بينى وبينك .. أنا ما حبش العك .

ــ طيب يا سيد .. ابقى اعرفها .. لما يبقى معايا حاجه ما تبقاش تيجى تقوللى هات حته .

ــ انت زعلت ؟

وأجاب « على » بصوت مختنق كأنه يوشك على البكاء :

ــ وازعل ليه ؟ كل واحد حر .

ــ طب ما تزعلش .. خلاص قبلت الشركة .

وضحك على وانفرجت أساريره وأردف سيد قائلا :

ــ تحب نشترى إيه فى الفطار ؟

ــ كل واحد طبق بليله .. وبعدين يحلها ربنا .

وكانا قد وصلا إلى ناصية « درب عجور » ولاحت لعينيهما دكان « أبو دومه » ، وقد وقف الرجل على بابها وأمامه « قروانة البليلة » يتصاعد منها البخار ، وقد امسك بكبشته وأخذ يقلب البليلة فى القروانة وبين آونة واخرى يملأ بها إحدى السلاطين ويمد بها يده إلى احد

الزبائن . وبجوار « القروانة » استقرت صينية « بسبوسة » وبجوارها سلطنية صغيرة بها سمن ، وصينية أخرى بها « بلح الشام » .

وكانت الساعة قد جاوزت السادسة والنصف ، وقد التف حول الحانوت بعض الصبية والعمال ، وكان من بينهم « محمود زين » و « دقدق الحمى » فى طريقهما إلى الكتاب ، وما كادا يبصران « سيدا » مقبلا ، وهو يرتدى الطربوش والصندل ويحمل اللوح ، حتى بدت عليهما الفرحة وهشا له ، وصاح « زين » مرحبا به مظهرا دهشته :

ـــ إيه ؟ سيد ؟ إيه اللى جابك ؟ يا ميت مرحبا .

والقى « سيد » التحية فى تؤدة بصوت كساه من الغلظ ما استطاع :

ـــ السلام عليكوا يا رجاله .

وأجابت أصوات متفرقة من هنا وهناك :

ـــ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم انبرى له صوت آخر يقول :

ـــ ما سلامشى ليه ؟ انت صغير .

وقال « الحمى » مؤديا واجبه فى الترحيب :

ـــ أهلا . . أهلا . . دا الكتاب حاينور .

وأردف « زين » قائلا :

ـــ دا الكتاب من غيرك ما يسواش بصله ، ما ضحكناش ضحكه واحده من يوم ما غبت والشيخ كفته مورينا الويل .

وقبل ان يجيب سيد على حديث زين صاح بابى دومه :

ـــ ادينا اتنين بليله وحياة أبوك يا معلم .

وغرف « أبو دومه » البليلة فى الطبقين . . وسلم لكل من الصبيين طبقا . ولم يكن « سيد » ليترك الفرصة تمر دون ان ينتهزها ، فقال بصوت مرتفع ، وفى لهجة الرجل :

ـــ على حسابى الاتنين دول .

وضحك الرجل واجاب يقلد لهجة سيد :

ـــ حاضر يا معلم .. تعيش وتصرف .

وهم « على » بأن يعلن ان المسألة شركة .. وانه هو ايضا سيعطيه من الكفتة التى معه ، ولكنه فضل الا يثير غضب « سيد » حتى لا يفض الشركة ، وعزم على ان يحتمل كل شىء فى سبيل طبق البليلة .

وفى خلال تناول البليلة بدأ استفسار الصبية عن سر عــودة « سيد » إلى الكتاب ، بعد أن أعلن فى عزم وإصرار أنه لن يذهب إليه ، لأن أباه لا يستطيع الاستغناء عن مساعدته ، وانه ينوى أن يجلس فى كشك الصنبور ويترك له العربة والترب .

كان « زين » أول السائلين :

ـــ ايه بقى يا سيد .. ما قولتلناش إيه اللى حصل .. إيه اللى خلاك ترجع الكتاب تانى ؟

ـــ والله ما عجبنيش الشغل .

ـــ ازاى ؟

ـــ اهو محصلش قسمه .

ـــ حد زعلك ؟

ـــ ابدا .. سوء تفاهم بسيط بينى وبين ابويه .

ـــ وإيه السبب ؟

ـــ ولا حاجه .. كل شيخ وله طريقه .. ما اتفقناش قلت له سلامو عليكم .. قال لى عليكم السلام .. يا جماعه الله الغنى .

ـــ لازم فيه حاجه حصلت ؟

وشاركهما « على الخشت » فى التأكيد بقوله :

ـــ ما تقول يا سيد .. احنا فيه بيننا وبين بعض سر ؟

وبدأ الحاح الصبية .. ووجد « سيد » انه لابد أن يقول شيئا فهز راسه فى شىء من الاسف ، وبدأ يحضر فى ذهنه اكذوبة يثير بها نفوس الزملاء ، قال :

ـــ والله يا جماعه اصل الحكايه مش مستاهله ..

ـــ قول يا شيخ .. قول .

ـــ النهارده الصبح .. قمنا احنا الاتنين زقينا العربيه ورحنا على الكشك مليت انا قربتى وتنى رايح على السرايه دخلت السرايه وفرغت القربه وجيت خارج لقيت الفسميه اللى هناك مليانه سمك .. بتشفى .. ما اهتمتش .. أنا أصلى ما احبش السمك .. لكن بصيت لقيت فى وسط السمك سمكه كبيره كده تطلع أد الواد « على » .

وصاح على فى دهشة :

ـــ صحيح يا سيد ؟

ـــ امال بكذب عليك !

ـــ وبعدين ؟

ـــ وقفت على حرف الفسقية .. ورحت مادد إيدى ماسكها من رقبتها .. قعدت تفلفص .. لكن على مين .. حبت تروح كده والا كده .. ما يمكنش .. رحت شايلها من الفسقيه ، ورحت فاتح بق القربه ومدخلها فيه .

ـــ ودخلت ؟

ـــ ما تدخلش ليه ؟ حاتعصى ؟ حطيت السمكه فى القربه واتدورت كده عشان أعدل السطيح ، بصيت لقيتها راحت مطلعه دماغها وجاريه فى الجنينه .. جريت وراها لقيتها جت عند النخله وراحت طالعة بالقربه عليها .

ـــ طلعت على النخله ؟

ـــ بالقربه !! ما هو دا اللى مجننى .. لو كانت طلعت لوحدها .. ما كانتش همنى .. انا أصلى ما حبش السمك .. لكن القربه .. أمشى من غير قربه ؟ ما يمكنش .. (ثم بدأ يلقى بحكمة أبيه) : أصل السقا الأصلى ما يقلعش السطيح والقربه أبدا .. انتم شفتم عسكرى ماشى وقالع بدلته ؟

وأجاب الصبية بصوت واحد :

ـــ لا .

ـــ اهو كده السقا مننا .. لازم تبقى معاه قريته .. السمكه طلعت على النخلة وانا وراها .

ـــ وعرفت ؟

ـــ إلا عرفت .. حمامه .

ـــ ومسكتها ؟

ـــ لا .. مامسكتهاش .

ـــ ليه بقى ؟

ـــ انا يدوبك وصلت طرف النخله ، لقيتها نطت من النخله ووقفت على حرف الشباك .

ـــ وبعدين ؟ نطيت وراها ؟

ـــ اقول لكم الحق .. أنا أصلى ما حبش النتش .. انا خفت .. المسافة بعيده بين النخله وبين الشباك .. قلت يا واد تنط ما تنطش .. تنط ما تنطش !! لقيت نفسى كشيت .. وبعدين ؟!!! وبعدين فى القربه !! انا اصلى اللى يهمنى القربه اصل السقا الأصيل (وعاد يكرر جملته) .

ولكن الصبية اخذوا يستحثونه بقولهم :

ـــ وبعدين ؟ .. عملت إيه ؟

ـــ ولا قبلين .. النخله مليانه بلح .

ـــ احمر والا سمانى ؟

ـــ أحمر .

ـــ فيه مرطب ؟

ـــ ماخدتش بالى .

ـــ هيه وبعدين ؟

ـــ رحت مادد إيدى قاطع سباطه ، ورحت مطوح دراعى وهابد بيها السمكه .

ـــ وقعتها ؟

ـــ لا . . كسرت القزاز .

ـــ والسمكه ؟

ـــ نطت على الأرض رحت ناطط فوقها ، السمكه قلعت القربه وجريت على الفسقيه . . فى نطتى طب ابويا ومعاه عم جاب الله . أبويا افتكر ان انا بالعب والا بقطع بلح ، وعم جاب الله قعد يزعق على القزاز ، وأنا كنت زهقان وروحى طالمه من الجــرى ورا الســمكه ما اســـتحملتش حد يكلمنى كلمه واحده ، رحت ســـايب لهم القربه والسطيح وتنى ماشى .

وكان الصبية قد انتهوا من أكل البليلة ودفع « سيد » الأربعة المليمات ، وسار الصبية فى طريقهم إلى الكتاب ، وهم يمطرون « سيدا » بوابل من الأسئلة عن السمكة أم قربة ، وعن البلح المرطب والفسقية .

وأخيرا وصل الركب إلى الكتاب .

* * *

والكتاب يقع فى أحد الدروب المتفرعة من درب الســـماكين ، او على الأصح فى احد الفجوات المسدودة التى شبهناها بحرف U القائمة على جانبى الدرب . والكتاب ذو اسمين : اسم رسمى معقد ملتوى مكتوب على اللافتة الزرقاء الكبيرة المعلقة على بابه ، واسم دارج سهل جرت به الألسن وتعودت نطقه الشفاه . . أما الاسم الأول فعبثا تحاول قراءته من اللافتة فقد زاده الخطاط ــ بطريقة كتابته ـــ تعقيدا فوق تعقيد ، فأنت ترى الحروف متشابكة ركب بعضها البعض والتف بعضها حول البعض الآخر فهى بالتأكيد لم تكتب لتدل على اسم الكتاب ، بل هى لغز يعجز عن حله إلا من له سابق معرفة بالحل ، فإذا وقفت أمام اللافتة ، وأنت تعرف اسم الكتاب فانك قد تستطيع

قراءته ، أما إذا نويته أن تعرف الاسم من اللافتة ، فليرحمك الله قبل أن تعرفه .

وبعد كل هذا ، اظن من الخير ان اذكر الاسم لك ، حتى أكون عونا لك لو قذفت بك الظروف السيئة أمامه وامتحنت فى قراءته .

الإسم الكريم هو .. هو .. كت .. خوند .. لعن الله الذاكرة .. لقد نسيته .. خد نداخ .. إنه اسم تركى قديم اغلب ظنى انه صاحب الوقف الذى به الكتاب .

تذكرته .. أجل .. أجل .. إنه الأمير كتخدا خوندا طولباى .. هل سمعت بهذا الأمير ؟ .. ولا أنا ، احفظوه إن أردتم ، وإن استطعتم .

تصوروا هذا الاسم مكتوبا بتلك الطريقة المعقدة ، ثم اعذروا بعد ذلك أهل الناحية إذا ما ظلقوا اسم كتاب « الأمير كتخدا خـوندا طولباى » ثلاثا ، اقسموا وراسهم والف سيف الا يسموه بغير « كتاب الشيخ كفتة » .

أى والله اعذروهم ، فالكفتة اسم له معنى ، وهو بلا شك اطعم من الكتخدا خوندا .. الخ .. والكفتة اسم يجرى على لسانهم بسهولة ـ أما الكتخدا فهو اسم لا يعرفون له معنى ولا يستطيعون له نطقا ، وبعد كل هذا ، ان الكتاب هو فعلا كتاب « الشيخ كفتـة » ، فهو ناظـره ومدرسه ، وهو كل شىء فيه ، أما صاحبنا الأمير كتخدا فما عاد له وجود فى الكتاب ولا على ظهر الأرض ولا يعلم إلا الله مثواه .

اجتاز الصبية الأربعة باب الكتاب ، كتاب الشيخ كفتة المفتوح على مصراعيه ، وكان أول ما صادفوه هو « الشيخ كفتة » نفسه واقفا على باب حجرته يمسح بكفه على شاربه وشفتيه بعد بصقة كبيرة ختمت سعالا طويلا .

وكان « الشيخ كفتة » يرتدى جبته وقفطانه ويضع عمامته على راسه الكبير ووجهه المنتفخ الأجفان المتآكل الأنف من آثار الجدرى .

وكان يشرف من باب حجرته على مدخل المدرسة وساحتها ، وعلى الفصول المحيطة بالساحة .

ولم يكد « الشيخ كفتة » يبصر « سيد » حتى تجهم وجهه وصاح بسيد :

ــ انت ياواد انت .. ايه اللى جابك ؟

وأجاب « سيد » ببساطة :

ــ رجليه .

وزاد تجهم الشيخ وقال محتدا :

ــ وكنت غايب ليه ؟

ــ ما كانش ليه كيف يا سيدنا الشيخ .

ــ يعنى إيه ما كانش لك كيف ؟ هى المدرسه بالكيف ؟

ــ قصدى كنت عيان شويه .

ــ وفين أبوك ؟ .. انا مش حا اقبلك فى المدرسه من غير ما تجيب ابوك .

ــ أبويا وراه شغله .. ما يقدرش يعطله .

ــ انا اصلى عارفك ولد لعبى وبطال .

ــ الله يسامحك .

ــ متردش .. أنا حاقبلك المره دى .. والمره الجايه لو غبت مش حدخلك من غير أبوك .. مفهوم ؟ .

ــ مفهوم يا سيدنا الشيخ .. على عينى وراسى .

ــ جاك خابط فى راسك .. خش انجر .

ــ حاضر .

وانجه « سيد » لاحقا برفاقه وهو يدمدم :

ــ طيب يابن الأروبة .. الصبر طيب .. كله بطلع فى الغسيل .. والنبى لاطلع على جتتك البلا .. واخلص الموشع اللى صابح تدهولى على الصبح .

وسمع الشيخ الدمدمة ، ولم يشك فى أنها سباب ، فصاح بالصبى :

ـــ بتقول إيه يا ولد ؟ .

ـــ بدعيلك يا سيدنا الشيخ

ثم همس لأصحابه :

ـــ ادعو له .. ادعو له .

واجابه أصحابه فى مثل همسه :

ـــ الله يخرب بيت آبوه .

ـــ دا راجل طيب .

ـــ الله يخرب بيت آبوه .

ثم انطلق الاربعة يقهقهون ويتواثبون أمام « الشيخ كفتة » .. ولم يجد الرجل بدا من الانزواء فى حجرته .

وكانت ساحة المدرسة رحبة مربعة الأضلاع ، الضلع الأول منها يتوسطه باب الدخول والدهليز الذى يعبر بين حجرتين حجرة الناظر على الميسرة ، اما حجرة الميمنة فكانت كشكول يحوى مخزن المدرسة والكانتين والإدارة والمصلى وعم جراده والشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت .

أما الثلاثة الأضلاع الباقية المحيطة بالساحة ففى الضلع المواجه توجد حجرة بها « سنة ثالثة » ودورة مياه مكونة من مرحاض قذر مرطوب ملوث الجدران مشققها ومسقى (اعنى حجرة للشرب) بها حوض من الزنك قائم على سيقان خشبية ربطت به بعض أكواز من الصفيح .. وكان السقا يملأ الحوض كل صباح ويشرب منه الأطفال بالكيزان بعد أن ترسب الرمال فى قاعه أو بعد أن يرشحونها بمناديلهم بوضعها على فوهة الاكواز .

وفى الضلع القائم على يمين الداخل توجد « سنة أولى » وفى الضلع القائم على اليسار توجد « سنة ثانية » .

وكانت تتوسط الساحة نخلة تعتبر فى المدرسة بمثابة الشيطان فى الدنيا .. ولولاها ما وضعت فى « الفلكة » سيقان وما هوت « الفرقلة » على أبدان .

كان الصبية يبكرون للحصول على ثمرها .. وكان الشيخ « كفتة » يبكر لضبطهم متلبسين بجريمتهم فلا يكاد حجر يتصاعد إلى النخلة حتى يكون « جرادة » قد قبض على عنق قاذفه ووضع ساقه فى الفلكة ، ويكون الشيخ كفتة رافعا يده « بالفرقلة » هاويا بها على قدميه .

ولم يكن أصحابنا فى وصولهم هذا الصباح إلى المدرسة بالمبكرين ولا بالمتأخرين ، وكانت الساحة قد تفرق فيها بضعة صبيان يتحادثون ويلعبون ، وكان عم جرادة قد اتخذ مكانه وسط مطعمه المتنقل تحت النخلة .

كان « عم جرادة » عماد المدرسة والقاسم المشترك الأعظم فيها .. والقدير على كل أعمالها .. كان من ناحية الشكل أشبه بالجرادة ؛ فهو رفيع الأطراف طويلهما ، تبدو أسنانه السوداء المدببة كأنها المنشار وهو يسير حاملا صفيحتيه المدلاتين من حبلين ربطت نهايتهما فى نشابة خشبية محملة على كتفيه .

كان « عم جرادة » كفراش يقوم بنظافة المدرسة واصلاح أدواتها وإعدادها ، وكان كمتعهد كانتين يقوم بشراء الأطعمة والحلوى وبيعها للأطفال ، وكان كضابط يقوم بعقاب التلاميذ إذا ما أخطأوا إما عقابا مباشرا بسبهم وضربهم من تلقاء نفسه ، وإما عقابا غير مباشر بتقديمهم إلى سيدنا الشيخ ، وكان كمدرس يقوم مقام الشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت اذا ما تغيب احدهما أو تغيبا كلاهما ، وكان كناظر يقبض المصروفات ويحل ويربط فى المدرسة إذا ما غاب الشيخ كفتة .

وأخذ الصبية يتوافدون على المدرسة زرافات ووحدانا حتى اكتظت بهم ساحة المدرسة ، وعلا الصراخ وارتفعت الضجة حتى اصبحت الساحة كأنها عش الزنابير ، ووسط هذا الخليط الصاخب اللاعب

كان « سيد » يتوسط جماعة منهم وهو يحاول ان يقف على يديه بعد ان اعطى لوحه لعلى .

ونجح « سيد » فى الوقوف على يديه والسير بضع خطوات وقد سقط جلبابه على رأسه وسقط طربوشه على الأرض وبدا عاريا مقلوبا باللباس والفانلة . وصفق الأولاد ، واعتدل هو منتصبا على ساقيه وتناول الطربوش فوضعه على رأسه .. وتناول اللوح من « على » وصاح متفاخرا :

ـــ ها .. حد فيكو يعرف يعملها ؟

واحجم البعض وانبرى البعض محاولا محاولات فاشلة . وأخيرا وضع « على » ذراعه فى ذراع « سيد » وسحبه من بين الجمع قائلا فى تفاخر :

ـــ دانت ابو السيد والأجر على الله .

وما كادا يسيران خطوة حتى قال « على » :

ـــ مش حاتشترى لنا حاجه ؟ .

ـــ حاجه إيه ، إحنا مش لسه واكلين البليله ؟ .

ـــ تصدى تشترى حاجه من عم جراده .. انا شايف عنده موز حلاوه كويس .

ـــ لا يا شيخ .. أنا ماحبوش .

ـــ طب إيه رأيك فى الطعميه اللى قدامه .. شامم ريحتها .. حاجه تفتح النفس .

وأخذ « على » شهيقا طويلا مغريا « سيدا » .. وأخذ « سيد » مثله فنفذت رائحة الطعمية إلى خياشيمه وكانت الرائحة فعلا أخاذة فقال ضاحكا :

ـــ معاك حق .. يا الله ناخد كل واحد بنكله .. انت مش معاك ميش ؟

ـــ معايا .

ــ طيب ياالله بينا .

ووقف سيد أمام عم جرادة وقال متخذا لهجته الرجالية :

ــ صباح الخير يا عم جراده .. ازاى الحال ؟ .

ولكن « عم جرادة » لم يكن لديه الفراغ لكى يأخذ معه فى الحديث ويعطى ، فقال له فى إقتضاب :

ــ عاوز إيه ؟

ــ عاوز بأربعه مليم طعميه ، كل بنكله لوحده .

ــ مافيش طعميه لوحدها ، لازم طعميه وعيش الشقه وطعميتين بتلاته مليم .

ــ مين قال كده ؟

ــ اللى حصل .

ــ لكن أنا عاوز طعميه بس .

ــ مافيش ، روح بقى بلاش خوته خلينا نشوف غيرك .

وملأ الغيظ « سيدا » وبدا اليأس على وجه « على » وهو يرى « سيدا » يهم بالانصراف فقال له :

ــ معلهش يا سيد .. اشترى وخلاص .

وأجابه « سيد » هامسا :

ــ إذا كان معانا العيش .. أشترى طعميتين بتلاته مليم !! . دا نصاب ، دا ابن كلب حرامى ..

ــ وحانعمل إيه بقى يا سيد ، ماإحنا مافيش أدامنا غيره .

ولكن سيدا جذب يده وهم بالانصراف ، فقال « على » فى لهجة آسفة :

ــ أنا لو كان معايا فلوس .. كنت اشتريت .

واحس سيد بجرح لكبريائه من كلمة « على » ، فاستدار فى حدة وقال لعم جرادة فى غيظ :

ــ هات شقتين .

وأمسك عم جرادة الشقتين فوضع فى كل منهما طعميتين وناولهما للصبيين .

وأمسك كل منهما بشقته ووضع « سيد » يده فى جيبه لاخراج النقود ثم أخرجها ووضعها فى جيبه الآخر واخذ ينقلها من جيب لآخر بسرعة وارتباك وحيرة ، وقد علا وجهه الاصفرار وهمس لعلى قائلا :

ـ اسمع ، انا مش لاقى الفلوس .

ـ يمكن الراجل بتاع البليله ما اداكش الباقى ؟

ـ لا ، ادانى .

ـ افتكر كويس ؟

ـ فاكر كويس قوى .

ـ امال يعنى راحوا فين ؟

وضع « سيد » كفه على جبينه كأنه قد تذكر .. وقال لعلى رافعا سبابته :

ـ لازم وقعوا وأنا باتشقلب .

وكان « عم جرادة » يرقب ترددهما وحيرتهما ، فصاح بهما حاثا :

ـ الفلوس .

وقال « على » مهدئا :

ـ استنى شويه يا عم جراده لما يدور عليهم .. الظاهر انهم وقعوا .

ولكن « جرادة » لم يتمهل بل قفز من وسط الصفائح والصوانى واطبق بكلتا يديه على الشقتين واستعادهما من يدى الصبيين صائحا :

ـ لما تبقوا تلاقوا الفلوس .. ابقوا تعالوا اشتروا .

وتأبط « على » ذراع « سيد » ، وقال وقد أطرق برأسه ذليلا محسورا :

ـ معلهش يا سيد .. تعال ندور عليهم هناك مطرح ما كنتة بتتشقلب .

ووقف الإثنان يبحثان عبثا فى منطقة الشقلبة ، واخيرا قال « سيد » فى صوت مهدد :

ـــ انا حاوريه .. تعال .

وجذب « على » من يده .. واتجها إلى عم جرادة ، وقال « سيد » هامسا :

ـــ اسمع يا على خليك واقف ورا النخله .. وكل اللى عليك تعمله إنك اول ما تلاقى « عم جراده » ساب مطرحه مد إيدك خد اللى يعجبك .

ـــ وإذا شافنى حد ؟

ـــ ما تخافش .. مافيش حد حايشوفك .

ـــ لكن دى سرقه ؟

ـــ سرقه سرقه .. مالكش دعوه انت .. ربنا يبقى يحاسبنى انا .. الراجل « عم جراده » بقاله خمس سنين بيسرقنا . لما نسرقه مره .. ما افتكرش ربنا يزعل .. فاهم .. كل اللى عليك انت تقف ورا النخله وتاخد اللى انت عايزه ، ومافيش حد يشوفك ابدا .

وذهب « على » فأخذ يسير متلكئا حول النخلة حتى استقر وراء « عم جرادة » .. واتجه « سيد » إلى الحجرة المشتركة بين المدرسين والمخزن و « عم جرادة » والكائنة أمام حجرة الناظر حتى وقف بجوار نافذتها المطلة على الساحة ، وأطل برأسه فلمح الشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت وقد جلسا على إحدى « الدكك » وقد دب كل منهما يده فى طبق فول مشترك .

وعلى حين غرة صاح « سيد » بأعلى صوت :

ـــ حريقه .

وقفز الشيخان من مكانهما مذعورين وصاحا فى نفس واحد بأعلى صوت :

ـــ حريقه .

ووصلت صيحاتهما إلى « الشيخ كفتة » فاندفع من حجرته وهو

يصيح باعلى صوت وهو لا يرى شيئا :

ـــ حريقه .

وهاج الطلبة وماجوا واندفعوا نحو الباب يتدافعون بالمناكب والأيدى ويصيحون :

ـــ حريقه .

واندفع « عم جرادة » بلا وعى إلى اتجاه الباب ليتبين أين الحريقة .

وهكذا اندفع كل من بالمدرسة وراء الحريق ، ووجد « على » نفسه « بقدرة قادر » وقد وقف وحده أمام أصناف الأطعمة بلا رقيب ولا حسيب !!

وهم ان ياخذ ما يريد ، ولكنه وجد الكل مندفعين إلى باب المدرسة فى هياج وجنون ، فلم يدر إلا وهو يندفع وراءهم ويصيح هو أيضا :

ـــ حريقه .

واحد فقط هو الذى لم يكن يجرى مع القطيع ، وهو « سيد » ، فقد انزوى فى احد الأركان ، وكانت دهشته شديدة حين رأى صاحبه الغبى يجرى وسطهم مذعورا .. وهتف لنفسه فى أسى :

ـــ يخرب بيتك .. انت كمان بتجرى ورا الحريقه وانا عاملها علشانك ؟

ثم اندفع بسرعة إلى الماكولات المستقرة تحت النخلة ، واخذ يعبىء فى جيبه بسرعة ما خف وزنه وغلا ثمنه .

ورويدا رويدا هدا القطيع عندما أعياهم البحث عن مكان الحريق الذى افزعهم كل هذا الفزع .. وبدأ الناظر تحقيقه عن مصدر هذا العبث .

فشهد الجميع ومن بينهم جرادة ـــ الذى لم يكن الناظر يشك فى شهادته ـــ ان أول من استغاث من الحريق هما الشيخ ثابت والشيخ عبد الرسول .

وحاول الشيخان عبثا أن يقنعا الشيخ « كفتة » أنهما سمعا الاستغاثة من الداخل . وأنهما كانا ضحية مؤامرة .. ولكن الشيخ اندفع في تقريعهما قائلا :

— دى مسخره .. دا لعب عيال .. أنا لازم اشوف شغلى معاكم .. انتم عاملين زى تنابلة السلطان .. اكل ونوم .. والواحد منكم آخر الشهر يقبض الماهية وهو نايم .

وفى تلك اللحظة كان « سيد » و « على » قد انزويا فى حجرة الشرب ، وأخذ « سيد » يخرج الطعمية من جيبه قائلا فى لهجة خليط من الفرحة والسخرية :

— خد اتسمم .. الطعمية نقعت على الجلبيه واللباس ، حضرتك بتجرى ورا الحريقه ؟

— والله أنا لما لقيت المدرسه كلها بتجرى .. قلت لازم حريقه صحيح .

— معذور .. انا كمان الفار لعب فى عبى ، وكنت حاجرى .. ولكن قلت يا واد عيب .. خليك تقيل .. خد يا عم .. وادى كمان موز من اللى كنت عايزه .. وادى شوية براغيت الست ، وادى حتتين خيار مخلل للغدا .. مبسوط يا عم .. إيه رأيك ؟

وقبل أن يبدى « على » رأيه كان « جرادة » يدق الجرس وكان الصبية يصطفون استعدادا للدخول إلى الفصول .

اصطفت الطوابير الثلاثة فى ثلاثة أضلاع ، كل طابور أمام الفصل الذى سيدخله . وفى الضلع الخالى وقفت ادارة المدرسة وهيئة التدريس وجميع المهيمنين على مرافقها .

وقف الأربعة الكبار .. كفتة وعبد الرسول وثابت وجرادة وقد أمسك كل منهم باحدى أدوات الارهاب : كفتة بالفرقلة يطرقع بها على جانب فخذه ، وثابت وعبد الرسول كل منهما بخيزرانة ، وجرادة بالفلكة يعيد ربط أحبالها جيدا .

وكان « على » يهمس فى أذن « سيد » :

ـ الطعميه سخنه .. اعمل فيها إيه ؟

ـ اثبت .. اوعى تتحرك .. لحسن ننكشف .

ـ حافضل مخليها لامتى ؟

ـ لغاية ما تخش الفصل .

ـ وبعدين ؟

ـ ناكلها .

ـ ازاى ؟

ـ أول حصه عندنا قرآن ، وربنا يسهل ويخلى الشيخ عبد الرسول ياخد له تعسيله زى عوايده ، وناكل زى ما احنا عايزين .

ـ لكن افرض ...

ولكنه لم يتم سؤاله فقد أسكته صوت « الشيخ كفتة » يصيح ناهرا قبل أن يبدأ خطبته الصباحية :

ـ الواد اللى بيتكلم ده يسكت أحسن له لحسن آجى اكسر الفرقله على دماغه .

وكان هذا هو انذاره العام الطبيعى قبل أن يبدأ حديثه ثم بدأ الحديث قائلا :

ـ اسمع يا واد يابن الكلب منك له .. بقى انا بقالى تلاتين سنه فى المدارس ماوردش على اللى حصل النهارده . تلاتين سنه ماشفتش هيجان وزيطه زى اللى حصلت دلوقت ، وعلى إيه .. على الفاضى .. حريقه .. حريقه .. أنا بدى أعرف مين اللى عمل الفصل ده عشأن انفصه قدامكُوا هنا ... اشرحه .. انا كنت ناوى اجلدكم كلكم .. لكن حاسبكم المره دى .. عشان انا عارف مين اللى يستاهل الجلد حقيقى (ثم نظر بطرف عينيه إلى ثابت وعبد الرسول) ، ودلوقت عايزكم تخشوا الفصول من سكات .. ياللا .

ودارت الطوابير وبدأ أفرادها يدخلون الفصول فرادى متخذا كل منهم مجلسه فوق التختة الخشبية .

وجلس « على » بجوار « سيد » واضعا كل منهما لوحة الصفيح وقلمه السط على ظهر التختة ، دافعا بمحتويات جيبه فى باطنها ، ولم يتح لهما دخول « الشيخ عبد الرسول » فى أعقاب التلاميذ فرصة التمتع بشىء من محتويات الدرج ، فجلس كلاهما فى قلق ولهفة يرقب فرصة غفلة من الشيخ حتى يدفع فى فمه بقرص طعمية أو بقطعة خيار .

وامسك « الشيخ عبد الرسول » بقطعة الطباشير وكتب التاريخ الهجرى ، ثم كتب فى منتصف السبورة « قرآن كريم » .

والتفت إلى التلاميذ قائلا فى تؤدة :

ـــ النهارده حانبتدى « سورة عبس » .

وهمس « على لسيد » :

ـــ وعبس دا يبقى مين دا كمان ؟

ـــ أنا عارف ؟ لازم يبقى واحد من أعداء النبى زى أبو لهب وأبو جهل .. باين كده من اسمه .

ولم يقتنع « على » ورفع اصبعه إلى أعلى صائحا :

ـــ سيدنا الشيخ ؟

ـــ عايز إيه يا واد ؟

ـــ عبس دا يبقى مين ؟

ـــ مش ضرورى تعرف .. انت عليك انك تحفض من سكات ، ومن غير غلبه .. فاهم والا لأ .. ناقص بقى تقول لى مين تولى ومين الأعمى .

ثم وجه القول إلى التلاميذ :

ـــ دلوقت امسحوا السوره القديمه من على الالواح .

وكان قوله هذا بمثابة أمر بالبصق : فقد اطلق كل منهم أكبر بصقة جاد بها لعابه على السورة القديمة كأن بينهما ثأرا ، ثم امسك بخرقة قذرة

سوداء من كثرة ما علق بها من مسح الكتابات السابقة وأخذ فى تحريكها على صفحة اللوح بحركة دائرية سريعة ماحيا كل اثر لبقايا السورة .

وترك « الشيخ عبد الرسول » فرصة للمسح ثم بدا حديثه :

ــ دلوقت كل واحد منكم يكتب التاريخ فوق ويكتب فى وسط السطر قرآن كريم وتحتها جزء عم .. خلاص .. اكتب بقى .. « بسم الله الرحمن الرحيم .. عبس وتولى .. أن جاءه الأعمى » .

واستمر « الشيخ عبد الرسول » فى الإملاء وهو يلوك الكلمات فى فمه كأنه يمضغها مضغا ويحرك شفتيه بمخارج الحروف فى حركات مبالغة كأنه ممثل فى سينما صامتة .

وفى خلال الإملاء همس على لسيد فى ملل وضيق :

ــ لسه فاضل كتير ؟

ــ علمى علمك .. يعنى هوا انا كنت دخلت جوا السوره .. انا لا اعرف عبس ولا عمرى شفته .

ــ لكن انا بطنى نونوت .

ــ استنى شويه .

ــ والطعميه حاتبرد .

ــ معلهش استحمل .

وأخيرا بدات التباشير عندما صاح الشيخ عبد الرسول « صدق الله العظيم » . وهمس « على » فى فرحة شديدة :

ــ يا سلام .. اهى دى اكتر حاجه باحبها فى السوره .

وقال « الشيخ عبد الرسول » معقبا على السورة :

ــ دلوقت خلصنا كتابه وعايزين نبتدى الحفض .. مش عايز واحد منكم يون والا يسكت .. يالله ابتدى .

وكان امره هذا بمثابة اطلاق للألسنة من عقالها .. أو إيذانا بثورة ، فقد اندفع الصبية بالصياح مرة واحدة هاتفين :

ـــ عبس وتولى ان جاءه الاعمى .. عبس وتولى أن جاءه الاعمى .

واخذوا يكررونها وهم يحركون جذعهم الأعلى إلى الامام وإلى الخلف فى ذبذبة سريعة اشبه بحركة بندول الساعة ، ووقف الشيخ عبد الرسول يرقبهم ، وأخذ يحرك بصره بينهم عله يكتشف مكسالا لم يشارك الجمع فى ضجته وصياحه فلما اطمان رفع عصاه وهزها فى حركة انذارية قائلا :

ـــ مش عايز واحد صوته يوطى .. بكره حاسمعها لكم كلها .. واللى مش حالاقيه حافض .. حاقطع نفسه .. أنا حاوصل لحد دورة الميه .. عايز اسمع صوتكم من هناك .

وخرج « الشيخ عبد الرسول » ليقضى حاجته واصوات الزنابير تطن فى أنحاء المدرسة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

ولم يكد الرجل يختفى حتى بدأت الضجة تخفت واخـذ الصياح يتضاءل ، حتى انتهى إلى سكينة نسبية لا يسمع فيها إلا احاديث الصبية بأصواتهم العادية وتعليقاتهم ونكاتهم .

وكان أول ما فعله « على » بعد خروج الشيخ أن هتف لصاحبه :

ـــ هيه .. اطلع ؟

ـــ أصبر شويه .. لحسن الراجل يرجع : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

ـــ خلاص مشى .. ماتخافش .

وعندما اطمأن سيد إلى ذهاب الرجل كف عن ترديد السورة ، ومد يده فى الدرج فأخرج الطعمية وقال لعلى :

ـــ مش معاك عيش ؟

ـــ أيوه .. مربوط فى اللفه .

ـــ طب هات لقمه .. والا حناكلها حاف ؟

ـــ مافيش وقت للفتح والتفل ، ناكلها حاف أحسن .

ـــ على رأيك .. العيش أهو بناكله فى كل وقت .

ولمح دقدق الحمى — وكان يجلس فى أقصى الفصل — فكى الصبيان وهما يمضغان ، فصاح بسيد :

— بتاكل إيه يا وله يا سيد ؟

— طعميه .

— هات حته .

— خلصت .

— اخص عليك . . أنا مش مديك امبارك بطاطايه ؟

ونظر إليه « سيد » فى غيظ وصاح به :

— دى ما كانتش حتة بطاطايه دى اللى حاتزلنى عليها . . انا مش ادينك قصادها حتة نبوت غفير . . كل شويه تقوللى البطاطايه . . يلعن ابو دى بطاطايه . . لأبو اللى ياخد منك حاجه بعد كده . . خد .

واخرج من الدرج قرص الطعميه الباقى . . ثم قذفه بقوة فى اتجاه دقدق .

ولم يكد « سيد » يقذف القرص ، حتى انبعثت فى الفصل ضجة مفاجئة ، واندفع الصبية فى ترديدهم الجنونى : « عبس وتولى ان جاءه الأعمى » .

كان الشيخ عبد الرسول قد عاد ، وفى اللحظة التى وطأت قدمه عتبة الباب كان قرص الطعمية ينطلق كالقذيفة ، عابرا الفصل من ادناه إلى اقصاه .

ولمح الشيخ عبد الرسول القرص الطائر ، ورآه يهبط فيستقر على درج « دقدق » دون أن يعنى الصبى بأخذه . . بل تركه يتدحرج ليسقط على الأرض ، وهو مستمر فى ترديد السورة ، والتراجع إلى الامام وإلى الخلف ، كان القرص لا يعنيه .

وضرب « الشيخ عبد الرسول » بالخيزرانة على اقرب درج له . . فكف الصبية عن الصياح ، وحملقوا فى وجهه منصتين .

وصاح الشيخ مشيرا بطرف عصاه إلى دقدق :

ـــ هات ده .

وهز دقدق راسه كأنه لا يفهم ما يعنى الشيخ ، وعاد يصيح ناهرا :

ـــ هات الطعميايه اللى وقعت دى .

ونظر « دقدق » حوله فى دهشة كأنه لا يعرف شيئا عن قرص الطعمية .. ثم مد يده فرفعه وأحضره للشيخ .. وعاد الشيخ يصيح متسائلا :

ـــ إيه ده ؟

ـــ طعميه .

ـــ جت منين ؟

ـــ إيش عرفنى .

ـــ مين حدفها عليك ؟

ـــ مش عارف .

ـــ أنا شفتها طايره فى الهوا ووقعت عليك .

ـــ وانا برضك شفتها زيك كده .

ـــ يعنى ما تعرفشى مين حدفها ؟

ـــ ابدا .

والتفت الرجل إلى الصبية وصاح بهم متسائلا :

ـــ مين اللى رمى دى ؟

ولم يجب أحد .

ـــ ما فيش حد شافه ؟

واستمر الصبية فى صمتهم .

وزاد غضب الرجل ، وازداد هديره وصاح مرعدا :

ـــ يعنى السما بمطر طعميه .. طيب انا حاوريكم .. قوم اقف منك له .

وبدأ الرجل بتفتيشهم وتفتيش أدراجهم .. ولم يكد يقترب من « سيد » حتى توقف أمامه ثم أخذ فى شمه قائلا له :

ـــ افتح بقك .

وشم الرجل فمه وقد بدت عليه علامات الفوز وأردف قائلا فى شماتة :

ـــ افتح درجك .

ولم يكد يلقى بنظرة على درجة حتى قبض عليه من عنقه صائحا :

ـــ انت ما فيش غيرك .. أنا عارفك كويس .. افتح إيدك .

ولم يجد « سيد » بدا من تحمل العقاب ففتح يده راضخا ، ثم ركع على ركبتيه كما أمره الشيخ مواجها الحائط .. رافعا يديه إلى أعلى وذهنه يعمل بسرعة يفكر فى وسيلة للثأر من الشيخ عبد الرسول .

وحانت الفرصة سريعا عندما وجد الشيخ يقترب منه معطيا وجهه للتلاميذ موليا ظهره له فمد يده بسرعة ونزع دبوسا يشبك به زر طربوشه .. ثم وضعه عموديا فى جبة الشيخ ووضع الزر فى جيبه .. ثم رفع يديه كما كان .

ولم تمض لحظة حتى اتجه الشيخ إلى كرسيه ثم هبط عليه مادا أطرافه محاولا إراحة جسده ، ولكنه لم يكد يستقر على الكرسى .. حتى قفز صارخا صرخة حادة مستغيثا بقوله « آى » .

وقبل أن يبدأ التحقيق كان الجرس قد قرع ، وانطلق الصبية يعدون فى الفناء .

ومرت الحصة تلو الحصة حتى حلت فسحة الغداء قبل الثانية عشرة ، وجلس « سيد وعلى » على عتبة أحد الفصول واضعين بينهما لفافة « على » ، وقد فتحاها وأخرجا ما بها من رز ولحم وكفتة وبلح .

وأخذا يتناولان طعامهما ، وهما يتسامران .. ويعدان العدة لما

ينويان ان يفعلاه بعد الظهر ، ومر بهما « دقدق » فصاحا به متشبثين ، وقال « سيد » داعيا :

ــ تعال يا دقدق كل .

ــ انا رايح اشترى غدا من جراده .

ــ تعال يا شيخ ، الأكل كفايه ، لقمه هنيه تقضى ميه .

ــ طيب أما اشترى حاجه وآجى آكل معاكم .

وذهب دقدق إلى مطعم « جرادة » تحت النخلة وقد تزاحم حوله الصبية .. واخذ الرجل يغرف من صفيحتيه التي امتلأت إحداهما بالفول النابت وماء الفول النابت .. والأخرى امتلأت باللفت وماء اللفت ، وكانت الصفيحتان هما عماد مطعم جرادة والحاويتان الأهم اغذيته .

وبعد برهة عاد « دقدق » إلى صاحبيه ، حاملا بيديه طبق الفول وعليه العيش وباليد الثانية طبق اللفت .

وبينما هم منهمكون فى الأكل صاح « سيد » فجأة :

ــ يا خبر .. دانا كنت ناسى ؟

وسأله دقدق :

ــ ناسى إيه ؟

ــ النهارده المولد .. النهارده الليله الكبيره .

ــ أيوه حقيقى .. لازم نروحه .. انا شايفهم ناصبين تياترو فى الخرابه اللى ورا الجامع .. وشايف شوادر تانيه .. ما اعرفش فيها إيـــه .

ــ حقنا نقول للشله كلها عشان نروح سوا .

ــ دلوقت نقول « لزين » و « عبد الله » و « سيد » .. واحنا مروحين نفوت على « حريشه » و « زكى » .

وانتهى الصبية من الطعام ، وانتهت الفسحة وعادوا إلى فصولهم لاتمام دراسة اليوم .. ما بين قرآن ، وحساب ، ولغة عربية .

واخيرا انتهى اليوم الدراسى وخـرج الصـبية متزاحمين على باب المدرسة .. وما لبثوا حتى تفرقوا فى الدروب والطرقات .. وسـار « سيد وعلى » وبقية الثلة عائدين إلى درب القط وهم يتواثبون فى الطريق ... وان كان « سيد » لا يفتأ يتذكر حادثة الصباح بين آونة وأخرى ، فتثقل على نفسه ، ويزداد تثاقلها كلما قربت المسافة إلى البيت .. وقرب منه طيف أبيه وما ينوى أن يفعله معه .

واخذ يطمئن نفسـه .. مبعدا عنها طيف عقاب قادم .

ماذا يمكن ان يفعل به ابوه ؟ ان اقصى ما كان يهدده به هو إعادته إلى الكتاب ، وقد اقدم عليه هو بنفسه دون حاجة منه إلى انتظار حكم أبيه ، والواقع أن الكتاب ليس بالشىء الكريه إلى هذا الحد .. حقيقة انه سيحرم من حديقة السراية ومن البلخ والجوافة ، ولكن أى متعة دائمة فى هذه الحياة ، واى نعمة مقيمة ؟

ولكن هل ترى الاب سيكتفى بهذا العقاب ؟ أم تراه سيضربه ؟ . وحتى لو كان ينوى أن يضربه .. فليضربه .. علقة تفوت ولا حد يموت .

واخيرا وصلوا إلى الدرب ، وتفرق كل منهم إلى بيته بعد أن اتفقوا على اللقاء تحت « التوتة » ودخل على وسيد بيتهما فاندفع على يصعد السلم وسار سيد فى الفناء مسترقا الخطى ..

كانت السـاعة تقرب من الثالثة والنصف ، وكانت أم آمنة فى جلستها الشاردة الحزينة وقد أسندت خدها على كفها وامسكت عصاها بيدها الأخرى ملوحة بها على الأوزتين فى حركة لا ارادية ، ولكنها لم تكد تسمع خطا الصبى المتسللة حتى انفرجت أساريرها وصاحت منادية :

— سيد ؟

— إيه يا ست .. ما تزعقيش كده .. هو أبويا هنا ؟

وضحكت « أم آمنة » وقالت :

ـ ما تخافش .. أنا استسمحته خلاص أول ما جه .. وسامحك .. هو فيه أطيب من قلبه .. قلبه ابيض زى حتة البفتة .. بس إياك ربنا يهديك وتبطل الشقاوه .. أنا ما رضيتش أقول له على الجلابيه اللى انت مقطعها .. أنا جيت النهارده اغسلها لقيتها طلعت فى إيدى .. انت أصلك معجون بمية عفاريت .. تعال هنا عندى .

واقترب منها وارتمى فى أحضانها فضمته فى لهفة وشوق وقالت له :

ـ جعان ؟ أجب لك تاكل .. والا تستنى لما ابوك يصحى .. هو مارضاش ياكل إلا لما تيجى ونقعد ناكل سوا .. وزمانه حايصحى .

ـ أنا مش جعان قوى .

ـ كلت إيه ؟

ـ كلت مع على .. امه كانت مدياله كفته ورز ولحمه وبلح .

ـ وعملت ايه بالساغ ؟

ـ اشتريت بأربعه مليم بليله .

ـ والسته مليم ؟

ـ وقعوا منى وانا بتشقلب .

ـ ان شاالله تتفضح .. الشقلبه دى لزومها إيه .. ربنا خلقك عدل تتشقلب انت ليه .. بس اعمل فيك إيه ؟ . ربنا يهديك .. ويحبب خلقه فيك .

ثم استمرت فى دعائها الطويل ، فلم تنته منه إلا على صوت طرق بالباب .

الفصل السادس

فى المولد

كان الطارق هو شحاتة افندى ، وقد وقف بالباب بنفس منظره الذى كان عليه بالأمس .. ينقصه الجاكتة ويزيد عليه لفافة كبيرة فى احدى الصحف القديمة قد وضعها تحت ابطه ...

وقبل أن يجيب على سؤال أم آمنة التقليدى « مين ؟ » . كان « سيد » قد ترك أحضان جدته واندفع إلى الرجل مرحبا به ترحيب صديق أو قريب ، وهو يهز يده ويقول :

ــ أهلا وسهلا عم شحاته .. اتفضل .

لقد أحب « سيد .. عم شحاته » لأنه كان بادى الطيبة ، سليم الطوية ، مرحا مهزارا طروبا .. كان من نوع لا يمكن إلا أن يحب .

ولكن « أم آمنة » لم يبد على وجهها كثير ترحيب ، فقد كانت الصورة التى ارتسمت فى ذهنها عن « شحاتة » (مما قصه عليها « شوشة » باختصار عن واقعة الأمس) هى صورة محتال نصاب تسبب فى خسارة « شوشة » اربعة قروش ذهبت سدى بلا أمل فى استردادها .

وكان أول ما فعله « شحاتة » عندما اندفع إليه « سيد » مرحبا هو أن مد يده فى جيب جلبابه وأخرج منه نايا صغيرا وأعطاه « لسيد » قائلا :

ـ ايه رايك فى الصفاره دى ؟

ـ لمين ؟

ـ لك .. انا جايبها لك مخصوص .. كويسه ؟

ـ هايله .

وقلب « سيد » الناى الصغير فى يده ، ثم نفخ فيه بشدة ، ولكن « شحاتة » تناوله منه وأخذ ينفخ فيه برفق ويحرك عليه أصابعه مصدرا نغما لطيفا راقصا .. قائلا لسيد :

ـ كده .. انا حاعلمك ازاى تزمر بيه .. أمال فين ابوك ؟

ـ ابويه جوه .. كان مقيل شويه .. أصحيهولك ؟

ـ لأ ماتقلقوش .. أفوت عليه كمان شويه .

وهنا سمع صوت « شوشة » يصيح من الداخل :

ـ مين يا واد يا سيد ؟

وما لبث حتى بدا بباب الشقة ، ولم يكد يرى « شحاتة » حتى صاح به مرحبا :

ـ أهلا وسهلا .. اتفضل .

واقترب « شحاتة » مصافحا « عم شوشة » وجذبه معه إلى داخل البيت ، بينما انهمك « سيد » فى الصفير بالناى .

واستقر الرجلان على الشلتة المواجهة للأريكة المنهارة . وبعد تبادل التحيات مد « شحاتة » يده إلى جيبه وأخرج منه بضعة قروش سلمها إلى « شوشة » قائلا :

ـ الاربعه ساغ أهم يا معلم .

ـ وليه التعب ده .. انا مش قلت لك على مهلك قوى .. انا مش مستعجل عليهم .

ـ كتر خيرك . أنا عمرى مافيش دين تعبنى أد دينك أنا مش حانسى جميلك ابدا .. انت عملت جميل فى راجل ما تعرفوش ..

ولا تعرف إذا كان حايرده والا الا . . انت عملت معروف . . لله . . ودا المعروف الحقيقى .

وضحك « شوشة » قائلا :

ـــ ولا معروف ولا حاجه يا أخى . . انت اصلك راجل طيب ورزقك فى رجليك دى كل الحكايه . . ربنا هو اللى بيبعت . . مش العبد .

ولم يجد « شوشـــة » بدا من أخذ النقــود ، وهم « شحاتة » بالنهوض ، ولكن « شوشة » صاح به مجلسا إياه :

ـــ على فين ؟

ـــ نقوم نشوف شغلنا .

ـــ والله ما انت آيم دلوقت . . . اقعد اما تاكل لقمه معانا . . احنا لسه ما تغديناش . . أنا كنت تعبان شويه ، وقلت استنى « سيد » لما يرجع من الكتاب .

ثم صاح مناديا ابنه :

ـــ يا سيد ، واد يا سيد .

وكف سيد عن النفخ فى الناى ودخل ملبيا نداء ابيه :

ـــ قول لستك تحضر لنا الأكل . . انا حاكل انا و « شحاتة افندى » . . هات الطبلية هنا .

ثم نهض إلى الفناء متجها إلى « ام آمنة » وقال فى صوت خافت :

ـــ الراجل الغلبان بتاع امبارح جه يرد الدين . . شفتى بقى الأمر من كده . . انا حاخليه ياكل لقمه معايا . . مش فيه أكل كفايه ؟

ـــ فيه يا خويا أوى . . لازم تمسك فيه . . انا كنت كارهاه لما حكيت لى عنه امبارح افتكرته نصاب . . ظلمته .

ـــ على العموم ابعتى « سيد » يجيب لنا حتة جبنه ورطلين بلح مع الأكل الموجود .

ـــ اطمن يا خويا عندنا كل حاجه . . خيرك كتير . . الجبنه موجوده والبلح موجود ، وزكيه نزلت عملت لنا كام طبق كشك بالكبيبه ، ونلفلت

شوية رز .. خش بس انت مع الضيف ، وانا ابعت لك كل حاجه .. اقعد فى أودتك لغاية ما قوم انا أوضب لك الطبليه .

وعاد « شوشة » إلى « شحاتة » فنهض معه إلى حجرته ، وجلس الاثنان على حافة الفراش يتسامران .

وكان ذهن « شحاتة » قد شرد فى الآيات القرآنية المعلقة فى مدخل البيت .

وعاد يستعيدها فى ذهنه :

« ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

هذه الآيات لم توضع سدى .. ولم تعلق اعتباطا .. ان واضعها ينشد بها الصبر ، ويريد بها أقوالا تشد أزره وتخفف عنه وقع مصاب نزل به .

« والصابرين فى البأساء والضراء » .

اجل .. اجل .. ان صاحب الدار لابد ان يكون احدهم .. احد اولئك الصابرين فى البأساء والضراء .. والذين ابتلوا بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

ودار الحديث بينهما عن زمزم .. وعن السقايين .. وعن « سيد » وما فعل فى الصباح .. حتى دخل « سيد » يعلن ان الأكل جاهز .

ونهض الرجلان وجلسا حول الطبلية التى رص عليها طبقان من الكشك غرس فى باطنهما بعض كرات من الكبيبة وطبق من الارز وحزمتان من الفجل وقطعة جبنة وطبق به بلح امهات .

واتخذ « سيد » مجلسه بين الرجلين وهو يقول لأبيه :

ـــ شفت الصفاره اللى جابها لى عم شحاته ؟

وامسك شوشة بالناى يفحصه ثم قال :

ــ د ناى كويس .. مش خساره تدهوله يخسره ؟

واجاب شبحاتة :

ــ ده عندى من أيام زمان .. ده أعز صديق لى ، ولما ازعل انفخ فيه يضيع زعلى ، أحسن واحد يجاوبنى وينسينى همومى .. لكن دلوقت اقدر استغنى عنه لأنى لقيت أعز منه .. كنت محافظ عليه .. عشان ما كنتش فاكر فيه مروءة بين الناس ، لكن دلوقت غيرت رأيى .

وضحك شحاتة ثم أردف :

ــ على العموم أنا حاعلمه عليه ، وأظن لما أحب أصفر فيه شويه مش حايقول لأ .. والا إيه يا « سيد » ؟

ــ طبعا يا عمى .

واخذ الثلاثة فى التهام ما فى الأطباق .

وفى الخارج كانت أم آمنة تتناول نصف رغيف به قطعة من الجبن وهى قريرة راضية ، حامدة الله انه سترها مع الضيف .

وانتهى الجميع من الطعام .. واحضر « سيد » الطشت والأبريق فغسلوا ايديهم ثم توضأ الرجلان لصلاة العصر ، وقاما للصلاة .

وانتهز « سيد » الفرصة ، فانطلق إلى الخارج ، وقد اخذ كيس البلى وصاح بأم آمنة قبل ان يخرج :

ــ انا رايح العب .

ــ ما تتأخرش .

ــ لا حتأخر .. النهارده مولد الخواص .

ــ يعنى حتتأخر لامتى ؟

ــ انا عارف بقى .. انا حاروح مع العيال ولما يرجعوا حارجع معاهم .

ــ استنى لما اقول لابوك .

ــ خليكى عاقله .. لما اخرج ابقى قوليله .

ـــ بس متتأخرش لبعد العشا .. يعنى اسمع اذان العشا مع رجليك .

ـــ طيب .

ثم أطلق صفيره الطويل مناديا « عليا » ولم يفته الصفير حتى كان « على » واقفا بجواره ، وعدا الاثنان إلى نهاية الدرب حيث ملعبهما بجوار السبيل .

***

لندع الصبيين فى لعبهما اليومى وعراكهما الطبيعى ولنعد إلى المعلم « شوشة » و « شحاتة افندى » ، انتهى الاثنان من الصلاة وكانت الساعة قد شارفت الخامسة .. وارتدى « شوشة » ملابس الخروج وتهيأ شحاتة للاستئذان والانصراف قائلا :

ـــ ربنا يجعله عامر ، وربنا يقدرنا على رد جمايلك .

ـــ برضك بتقول جمايل ؟ انت رايح فين ؟

ـــ ولا .. اهو حاتمشى لغاية القهوة يمكن ربنا يرزقها .

ـــ طيب ما تيجى تاخد لك تعميره على القهوة بتاعتنا . تعرف تلعب طاوله ؟

ـــ اعرف اوى .

ـــ طيب تعالى ناخد لنا تعميره ، ونلعب لنا دورين .. وبعدين نزق على المولد .. نسهر عند الشيخ عبيد .. راجل أمير وطيب ، وعودنا كل سنه يعمل لنا خاتمه فى المولد .. شوية اكل على شوية تعاليق وتفاريح .. يا الله بينا .

وتذكر شحاتة ان الأربعة قروش التى أعطاها لشوشة هى آخر ما يملك من حطام الدنيا .. وتذكر انه بات ليلته السابقة على الأرض .. بعد أن باع كل ما يملك من اثاث الحجرة التى كان يقطن فيها فى شارع

الخليج .. وان الأثاث البالى والجاكتة الممزقة قد سدت ما عليه من ديون ، وانه اضحى بعد ذلك لا يملك سوى عدة الشغل التى ضمتها اللفافة .

كل هذا جعله يعدل عن صحبة « شوشة » حتى لا يكون عبئا عليه وحتى لا يعود فيكلفه مرة أخرى بضعة قروش لا يعرف متى يستطيع ردها .

واخيرا قال :

ــ عافينى النهارده .

ــ عشان إيه ؟ انت مش قلت ما وراكش حاجه .. ورايح تقعد على القهوة . آهى قعده بقعده ، يالله قوم بينا .

ــ واللفه اللى معايا دى .. أقدر أسيبها هنا .. لغاية ما نرجع ؟

ــ اوى ، هات أحطها لك جوه على الصحاره ، عشان محدش يلعب فيها .

وهكذا ترك شحاتة اللفافة .. الحاوية لكل ممتلكاته فى الدنيا ، وخرج مع شوشة ، متجهين إلى المقهى فى شارع البغالة .

ووصل الاثنان إلى المقهى والشمس قد خفت حدتها ومالت إلى الغروب و « عماره » القهوجى قد رفع « التنده » واخذ فى رش الأرض ، حول المقاعد التى قد رصت على الرصيف وهو يغدو ويروح فى خطوات سريعة وقد افتر ثغره الواسع عن ضب عيار ٢٤ ، واخذ يصفق بيديه بين آونة واخرى مرحبا بكل من هب ودب .. وكل من قام وقعد ، أو راح وغدا .

وانتهى « عماره » من عملية الرش وسعى بضع قصارى العتر والريحان وحصا اللبان المرصوصة بجوار الحائط وعلى الرصيف .

وجلس « شوشة » على مقعد امام احدى المناضد النحاسية الصفراء الموضوعة على الرصيف فى احد الأركان ، وجلس « شحاتة » على

المقعد المواجه له .. وأقبل « عماره » مفترا عن الثغر الذهبى ، مصفقا بيديه طربا وهو يصيح :

ـــ يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. القهوه نورت يا معلم شوشه .. يا مرحبا بضيفنا الجديد .

وقال شحاتة موضحا اسمه :

ـــ محسوبك شحاته .

ـــ ومحسوبك عماره .

ـــ عاشت الأسامى .

ـــ انعم واكرم . خدامكم .. طلبات السيادة إيه ؟

وكان على « شوشة » أن يجيب فقال بسرعة :

ـــ اتنين حمى .. وطاوله .

ولم يتحرك « عماره » لاحضار المطلوب ، بل استمر فى مكانه .. ولكنه ادار جذعه الأعلى .. وعوج رقبته تجاه القهوة .. ثم رفع كفه إلى صفحة وجهه ، واغمض عينيه ، وصاح بأعلى صوته كأنه يؤدى الأذان :

ـــ اتنين تعميره حمى .

ثم اندفع هو بخطواته السريعة فأحضر الطاولة ووضعها على المنضدة ، واندفع مرة اخرى ليحضر « الجوزتين » بعد أن اعطى انذارا باعدادهما .

وبدأ رواد القهوة يتوافدون الواحد بعد الآخر .. المعلم مسطرين ، والمعلم على الحمى ، والأسطى محمود الخشت ، وزكى زين ، وغيرهم أصدقاء شوشة وجيرانه ، وتبادل القوم التحيات الطائرة أو المصافحات باليد ، ثم اتخذ كل منهم مكانه المختار ، منهمكا فى الحديث أو فى لعب الطاولة أو الدمينو .

وكان المعلم « جوده » القهوجى واقفا وراء البنك النحاسى يعد الجوز والقهوة والشاى وغيرها من الطلبات ، ولم يكن المقهى متسعا

من الداخل ، فقد كان يكاد لا يتسع إلا للبنك والزير بجواره .. وقصرية لبلاب تسلقت الحائط حتى وصلت إلى نافذة عالية ذات قضبان حديدية تطل على فناء وراء المقهى ، ودكة خشبية امامها منضدة .. هذا كل ما يحويه داخل المقهى .. اما خارجه فقد امتد على الرصيف وفى الشارع فى مساحة تبلغ خمسة أمثال الدكان ٥

وبدأ اللعب بين الاثنين : شحاتة وشوشة ، وقد امسك كل منهما بطرف غابته يمتص منها نفسا بين آونة واخرى ، وبصره موجه لحجارة الطاولة .

وكان المتباريان من نوعين مختلفين ، فشوشة لعيب صامت وشحاتة لعيب لا يكف لسانه عن الحركة بين شدقيه .

ورويدا رويدا زالت رهبة شحاتة من المقهى الجديد والزملاء الجدد ، وبدأ اللعب على حد قوله « يحمى » وبدأ لسانه ينطلق مثرثرا .

ورمى الزهر وهو يصيح :

ـ سايق عليك النبى شيش بيش !

ولكن الزهر أظهر دوبارة ، فصاح شحاتة :

ـ برضك كويس .. نعمه من ربنا .

ورمى شوشة الزهر فى صمت ولعب لعبته فى صمت .

واندفع شحاتة فى الحديث لا ينتظر ردا ولا جوابا :

ـ أيوه كده .. دانا شحاته والأجر على الله الشهير فى الأربعتاشر مديريه ، أمال ، دوباره يا بنت الكلب ، اتصلحى بقى .. أيوه كده .. دش يا قرعه يا بنت القرعه . أمال !! ما يجيبها إلا رجالها ، وراك .. برضك وراك .. مش حاسيبك ابدا .. هى إيه .. سايبه .. حلوه دى .. يا دين محمد .. انا حالعبلك لعبه ما يلعبهاش عنتر بن شداد ، ولا الزبير بن العوام .. شفت دى .. يا وله يا شحتوت يا حلو تسلم ايدك .. أمال .. مش نازل من بطن أمك ماسك زهر . يا جماعه عيب ده شحتوت والأجر على الله .. ولا كل من ركب الحصان خيال ..

ولا كل من مسك الزهر لعيب ، جوهار ياك ، اختشى على دمك يا زهر ، خلى عند امك دم . اخص ، يا نتن .. اتفوه ، عليك زهر هزؤ .. الا .. خليهم الاتنين فى خانة الجوهار .. اخص .. على الفقر الدكر .. يا ام هاشم نظره .. يا ام هاشم عيب .. دى مش لعبه دى ، طيب بلاش ام هاشم يمكن ما كانتش تعرف تلعب طاوله ، يا سيدنا الحسين .. عايزين دش .. اخصى ، دى لعبه دى . هابياك .. يا خساره رحت بلاش .. لكن معلهش يا زهر ، والا عليه ، العشره راحت بلاش .

وكسب شوشة العشرة فى صمت وسكون ، وخسرها شحاتة فى ضجيج وصخب ، وفرح شوشة وإن كان لم يظهر فرحته .. فقد كان اكثر ما يسره كسبه فى الطاولة ، ولكنه كان حريصا دائما على اخفاء مشاعره سواء كانت فرحة أم حزنا .

ولم يحزن « شحاتة » على خسارته فى اللعب وإن أظهر بضجيجه انه قد حزن .. لقد كان على النقيض من شوشة غضوب فى ظاهره ؛ أما فى باطنه فقد كان سعيدا راضيا .

ولم يخف على « شحاتة » أن صاحبه قد سر من الكسب ، فزاد ذلك من رضائه عن نفسه واسعده أن يسبب للرجل الكريم الطيب نوعا من الفرحة ولو بطريق غير مباشر .

وهم الاثنان بلعب عشرة أخرى ، ولكن شحاتة لم يكد يمسك الزهر حتى فغر فاه فجاة وسقط الزهر من يده واخذ يحملق أمامه بذهول ، وهو يتبع بعنقه ذلك الشىء الذى روعه .

ودهش « شوشة » من ذهول صاحبه ، وساله فى عجب :

— ايه الحكاية ؟ .. مالك ؟

وهتف « شحاتة » وهو يأخذ نفسا طويلا كأنه يوشك أن يغرق :

— يا قوة الله .

ـ إيه ؟ . فيه إيه ؟

ـ يا جاه النبى .

ـ إيه بس فيه إيه ؟

ولم يجد « شوشة » بدا من أن يستدير بمقعده ملتفتا إلى الإتجاه الذى يحملق فيه شحاتة ليرى علة ارتياعه .

ولم يستطع أن يكتم ضحكة أفلتت من شفتيه .. وهتف بصاحبه مؤنبا :

ـ إيه ده يا سيدنا ؟

ـ ودى تبقى مين دى ؟

ـ دى عزيزه نوفل .

ـ عزيزه إيه ؟

ـ نوفل ..

ـ يا أخى قول عزيزه زبده .. عزيزه قشطه .. عزيزه شهد .. عزيزه مهلبيه .. آل نوفل آل !

واستمر شحاتة محدقا فى الجسد الممتلىء الملتف فى الملاءة التى انحسرت عن ثوب أحمر انجليزى قد بدت منه ذراعان بيضاوان ناصعتا البياض ، وكشفت فتحة صدره عن ملتقى الثديين المكتنزين المتوثبين .. وبدا الوجه أبيض مستديرا ، والشفتان ملتهبتين حمراوين ، والعينان متسعتين داعيتين غامزتين .. فإذا ما ولت وجهها بدا ظهرها على قلة تفاصيله أشد تفصيلا وتفسيرا واقناعا واغراء واستدعاء .

وهز شحاتة راسه كالمنتشى وهو يصفق بيديه وينادى باعلى صوته :

ـ يا رفاعى مدد .. أموت فى اللبن ابو قشطه .. هز يا وز .

وضحك القوم السامرون فى المقهى ، واحس شوشة من مجون صاحبه وضحك القوم ، شيئا من الحرج ، فما كان ذلك مما يلائم طبيعته الجادة ومظهره المتزن المحترم .

ورغم انه فى قرارة نفسه لم يثر على « شحاتة » أو يحس من عمله

غضبا عليه ، الا أنه ترك علامات التجهم تكسو وجهه حتى يوقف الرجل عند حده ، وحتى يمنعه من الاسترسال فيما بعد حديثه الغزلى كلما مرت امراة بالمقهى .. وفوق هذا كله حتى يقتنع القوم الضاحكين انه ليس شريكا فى حملة الغزل والبصبصة ، وأنه لا يقر صاحبه عليها .

ولاحظ شحاتة تجهم « شوشة » ، وأدرك ما سببه له من حرج ، فتمتم معتذرا وقد أطرق برأسه وهو يشيع الحسناء الغاربة بطرف عينيه :

ـــ عدم المؤاخذه يا معلم .. ما تآخذنيش . انا اصلى لسانى فرط شويه .. ما اعرفش بيجرالى إيه لما بشوف صنف الحريم .. طول عمرى كده .. اصلى دنى احب اللحمه .. داء يا معلم ما يسبنيش ابدا .. وكل ما قول بكره الواحد يكبر ويعقل .. ما بعقلش أبدا .. بالعكس الحكاية بتزيد وبلاقى نفسى بحبهم أكتر .. خفة عقل .. والا خفة قلب ما تعرفش .. لو تقعدنى كده طول اليوم أتفرج على نسوان ما ازعقش أبدا .. يسيبولى انبساط وغرفشه زى الخمره والحشيش .. الجنس كله يعجبنى .. كله يعمر دماغى . انما اللى بيدوخنى حقيقى الصنف اللى فات .. أهو ده بقى بيطير برج من عقلى .. ما ببقاش حاسس بنفسى .. أعذرنى يا معلم ، متآخذنيش ، اوعى تزعل منى ، انا برضه غلطان ، كان حقى امسك نفسى شويه قدام الناس الغرب وخصوصا ان انا عارفك راجل عاقل ما تحبش الهلس والمسخره . يا بختك بعقلك صدق من قال : أصحاب العقول فى راحة . تلعب كمان عشره ؟ .

ثم نظر حوله ليرى ما إذا كان الجمع ما زالوا فى مراقبتهم ولكنه وجد كلا منهم قد انصرف إلى ما كان عليه .. فعاد إلى زهره من كان يلعب الطاولة ، وعاد إلى حديثه من كان يسمر ، إلا واحد قد ظل معلقا به يرقبه بعينيه بنظرة فاحصة متسائلة .

كان رجلا أسمر ، حاد التقاطيع ، مبروم الشارب ، مفتول العضل ، رتدى جلبابا بلديا من الصوف الأزرق ، بدا من فتحة صدره الصديرى

المخطط وقد وضع ساقا على ساق مظهرا الحذاء الأصفر ذا الرقبة الأستك ، كاشفا عن جورب من الحرير « أبو حربة » ، وقد اتكأ بأحد مرفقيه على منضدة أمامه ، وترك كم الجلباب المتسبع يسقط عن ذراعه فيكشف عن كم الفانلة الفلتكودس البمبة المشغولة بالاجور ، وقد أمال اللاسة على أحد حاجبيه حاجبا بها نصف العصفورة الخضراء التى وشم بها صدغه .

واحس « شحاتة » بقلق من مراقبة الرجل وخشية من نظراته ، وخيل إليه ان الرجل لابد وأن يكون على صلة بالمراة ، وانه قد ساءه منه أن يغازلها بمثل هذ الطريقة الفاضحة .. وبدا له ان الرجل لابد سينتهى به الأمر إلى أن ينهض فيوسعه ضربا ويعطيه درسا قاسيا فى احترام النساء .

ولم ير « شحاتة » خيرا من تجاهله والتشاغل بالحديث مع شوشة أو لعب الطاولة وأمسك بالزهر يهزه فى راحته قائلا :

ـ المره دى مش حاخليك تاخد ابن واحد . حاديهالك صبايمه .. انا اصلى حبيت أجر رجلك بالعشره اللى فاتت .

ثم انطلق بقهقهته مرسلا نظرة مسروقة بطرف عينيه إلى الرجل إياه الشارب المبروم ، المفتول العضل ، فرآه ما زال يرمقه بنظراته المزعجة .. فسرت رجفة فى أوصاله وراح يحدث نفسه وهو يهز الزهر فى يده :

ـ « والله أجلك حان يا شحتوت الكلب ، أهو ده حقيقى اللى حايجيب أجلك .. لو لهفك بونيه مش حاتاخد غيرها وده باين عليه صعيدى ما يعرفش عربى ، وحكاية الشرف عنده مهمه أوى .. مين عارف يمكن الوليه تطلع مراته ، والا اخته والا قريبته والا رفيقته ، يعنى كان لازم تنسحب من لسانك .. أهو ده تلاقيه حاجه نوفل .. عبده نوفل .. والا رزق نوفل » .

وعاد يسترق إليه النظر .. فوجده ما زال يرمقه وهو يبرم شاربه .

« وآخرتها ؟ باينها مش حاتتم على خير ابدا .. الراجل حياكلك .. اذا كان شوشة نجاك من ايد زمزم .. فالمره دى مافيش حد حاينجيك أبدا .. غير ربنا .. وربنا ما افتكرش حايرضى يحشر نفسه بينك وبين ابن الصرمه ده . يا منجى يارب .. ،افيش طريقه غير « الزوغان » .

وعاد يهز الزهر ويزدرد ريقه ويقول لشوشة :

ـــ هه .. مش حاتلعب ؟ .

وجاءه الجواب المنقذ من فم « شوشة » وهو يغلق الطاولة ويجبيه قائلا :

ـــ كفايه النهارده .. ياالله بنا على المولد .. الدنيا ليلت .

وهتف شحاتة فى حماس قائلا :

ـــ ياالله بينا .

ودفع شوشة الحساب ونهض الاثنان مغادرين المقهى ، وبحركة غير إرادية التفت « شحاتة » ليلقى نظرة أخيرة على مطارده ومراقبه ليرى ما إذا كان مستمرا فى مطاردته بنظرته الصارمة .. أم صرف عنه نظر .

ولكن العين المحدقة كانت ما تزال تحدق ، والنظرة الصارمة الفاحصة ما تزال تطارد وتلاحق .

وأسرع « شحاتة » فأمسك بمرفق صاحبه كالمستغيث وناداه متسائلا :

ـــ يا معلم شوشه ؟

ـــ أيوه يا شحاته افندى .

ـــ الراجل ده يبقى مين ؟ اللى قاعد جنب باب القهوه على إيدك اليمين ؟

ـــ أنهى ده ؟

ـــ الراجل أبو دقه .. اللى عاوج اللاسه ولابس جلابيه كحلى . اللى بيزغر لنا قوى زى اللى حياكلنا .

ــ قصدك .. شرف .

ــ اسمه .. شرف ؟

ــ أيوه .. مش اللى داقق عصفوره ؟

ــ هوه هوه .. وده يبقى إيه ؟

ــ ده ، شرف الدين .. شرف الدين الدباح .

ــ يا باى .. دباح .. دباح .. يا مغيث ..

قالها شحاتة بفزع وهرول فى مشيته كالهارب .. مما جعل « شوشة » لا يمنع ضحكة انطلقت من شفتيه وهو يقول :

ــ حيلك يا عم شحاتة ما تخافش .. الراجل ما بيدبحش ولا حاجه .

ــ ما خافش ازاى ؟ وهوا من ساعة ما فاتت البت عزيزه ولقحت عليها بالكام كلمه اللى قولتهم وهوا ما رفعش عينه عنى ، وبيزغرلى كأنى قتلت ابوه ... وبعدين اسألك اسمه إيه تقوللى شرف الدباح ، وبعد كده انت عايزنى ما خافش ؟ طب مد بينا مد .

وعاد « شوشة » إلى ضحكه ، وهو الجاد الرزين ، ودهش « شحاتة » وسأله :

ــ هوا فيه حاجه بينه وبينها ؟ . فيه معرفه ؟ . قرابه ؟ .

ــ أكتر .

ــ أكتر يعنى إيه .. ابوها ؟ .. أمها ؟

ــ حاجه زى كده .

ــ يعنى إيه مش فاهم ؟

ــ ولى أمرها يا شحاته أفندى .

ــ يعنى إيه ولى أمرها ؟

ــ يعنى ولى أمرها .. ما تعرفش لما تلميذ يروح المدرسه ويكون ابوه ميت يقوموا يقولوا فين ولى أمرك ، أهو ده ولى أمرها .. يعنى

المسئول عنها .. يعنى بالعربى بيشغلها .. مش بس هى لوحدها ، ودسته زيها .

وتوقف « شحاتة » فى محله من فرط الذهش واخذ ينظر إلى « شوشة » محملقا ، وقد تسمر فى مكانه ، ثم قال مذهولا :

ـــ شرف الدين .. الدباح .. بيشغل عزيزه نوفل ؟ الراجل الفحل . ابو الشنبات المبرومه ، يشتغل الشغلانه دى ؟

ـــ وإيه دخل الشنبات المبرومه .. فى الحكايه دى ؟ . دى حاجه .. ودى حاجه .

ـــ مش معقول .. مش ممكن .

ـــ إيه هوا اللى مش ممكن ؟

ـــ دا باين عليه الشهامه .. وكان يبص لى البصه يخلينى اترعش ، وكنت فاكر ان احنا لو طولنا شويه كان قام كسر دماغى .

ـــ احنا لو كنا طولنا شويه كان جه جنبك وجياك .. وقال لك احنا فى الخدمه .. عندنا حاجات نضيفه أوى .. أحسن من اللى فاتت .

وقاطعه « شحاتة » بقوله .

ـــ وهوا فيه أحسن من اللى فاتت دى حاجه.؟

واستمر « شوشة » متمما حديثه :

ـــ لكن الظاهر انه مالقاش فيك الرمق ، عشان كده قعد يفحص فيك ويدقق .. بدل ما يقوم ويتعب نفسه .. وبعدين ييجى نقبه على شونه .

وسار شحاته بجوار شوشة ، وقد شرد ذهنه .. وان كانت مظاهر الفزع والخوف قد غادرت وجهه .. وحلت محلها مظاهر الارتياح والغبطة .

اذا .. فعزيزة نوفل « ماشية » ، وشرف الدين الدباح « قوادها » أو السبيل إليها . ومعنى هذا ان عاملا الاستحالة والخطورة قد زالا .. واصبحت المسألة سهلة هينة ، ولم تعد « عزيزة نوفل » أملا متعذرا ،

أو صيدا طائرا .. بل هى رجاء يستطاع تحقيقه ، وعصفور يمكن أن يكون فى اليد .. ولم يعد هناك ثمة خطورة من هذا الوحش المفترس المدعو « شرف الدين الدباح » بعدما تبين أنه دباح أعراض .. وأن بينه وبين الشرف ما صنع الحداد .

وتجهم وجهه فجأة ، وعلته سحابة هم .. ان المسألة حقا ليست مستحيلة ، ولكنها كذلك ليست سهلة المنال كما يتصور فهى تحتاج إلى نقود .. فهذا « القواد » لا يمكن ان يشكك بضاعته .. بل هو لابد أن يقبض الثمن مقدما ، وهو لا يملك مليما واحدا .. وهو لا يملك ثمن أكلة قادمة .. ولا نومة مقبلة .. انه لا يملك إلا نفسه ، والصرة التى بها عدة الشغل التى تركها فى بيت شوشة .. لقد باع كل ما يملك لكى يسدد دينه على صاحبه الكريم .. فهو أول دين يحس بثقله .. كانت الديون السابقة كلها ديون غير مستحقة الدفع .. أما هذا الدين الذى دفعه عن طيب خاطر .. دون أن يطالبه صاحبه برده .. فقد حرك مشاعره ، وايقظ ضميره فلم يصل إلى حجرته .. حتى باع كل ما بها وسدد ديونه ، ثم غادرها نظيفا خفيفا إلا من « صرة الشغل » والأربعة قروش التى دفعها إلى « شوشة » .

والآن ، وهو صفر اليدين ، تسنح له هذه الفرصة الهائلة . وتلوح له « عزيزة نوفل » وصاحبها الدباح ، أمنية مستطاعة ورغبة محققة .. ولكن بالنقود .. يعنى .. أمنية محققة ، بشىء مستحيل ، وثمن غير كائن .

وضرب كفا بكف وقال بصوت مسموع :

ـــ عليه العوض .

والتفت إليه « شوشة » متسائلا :

ـــ خير ؟ إيه هو اللى عليه العوض ؟

ـــ ولا حاجه .. الحمد لله على كل حال .

« أجل .. الحمد لله .. انها على أية حال أمل مستطاع .. ومسيرها ترزق » . وبهذا طمأن شحاتة نفسه ، وعاد إلى سابق ضحكه ومرحه ، وهما يوشكان على الدخول إلى المولد .

وأحس الرجلان باشتداد الزحام وازدياد الضجيج وارتفاع الطبول والدفوف والمزامير . كانت مظاهر المولد بادية فى الحى كله .. فقد انتشرت الأعلام ، وعلق البطيخ الزجاجى الملون ، ولكن المظاهر كانت تزداد تركيزا كلما ازداد المكان قربا من ضريح المحتفى بمولده .

واضطر « شوشة وشحاتة » إلى التنحى عن الطريق والتزام الرصيف عندما بدت بشائر أحد المواكب ، وقد تعالت وسطه الأعلام الملونة ، المزركشة بالآيات والكتابات المختلفة مثل : « الله أكبر » و « لا إله إلا الله » وأسفل هذه الآيات الإلهية كان عبيد الله يتراقصون ويتواثبون ويتصايحون ويدقون الدفوف ، حتى بدا كأن الله لا يمكن الوصول إليه إلا بتخت أو بزفة .. ومر موكب عبيد الله المنتشين بذكر الله الراقصين تحت أعلام الله . وغاود « شوشة » وصاحبه السير متخذين طريقهما وسط الأجساد البشرية ، ولكنهما ما لبثا حتى توقفا مرة ثانية لزحام أشد من زحام الموكب الراقص .

كان السبب فى هذه المرة ، ليس ذكر الله ، ولكنه كان ذكر البطون ، أو ذكر « الفول والعيش » .

كان حانوت « الحاج عمار » تاجر المانيفاتورة يباشر عمليته السنوية فى تفريق شقق الفول النابت والعيش التى كان ينذرها الحاج فى كل مولد ، وكان الناس يتقاتلون حول الحانوت فى سبيل الوصول إلى الشقق المليئة بالفول ، وكان أحدهم يصيح بالآخر :

— أمسك دى ، أنا خدت لغاية دلوقت خمس شقق ، الحاجات دى عايزه دراع ، لو قعدت هنا عمرك ما انت طايل حاجه ، خش عافر زى الباقى .

واستطاع الصاحبان تجاوز موكب الفول والعيش ولكنهما لم يسيرا بضع خطوات حتى اصطدما بموكب الشيخة « زبيدة » .

فى دكان حجب بستارة قذرة خضراء وقف رجل أشعث وبجواره رسم لرأس امرأة على منضدة كتب فوقها لافتة « الشيخة زبيدة .. المعجزة البشرية » واندفع الرجل يصيح بأعلى صوت :

ــ قرب هنا .. شوف الست العجيبة .. الشيخه زبيدة بقرش ابيض . الرأس اللى بتتكلم من غير جسم . يا بلاش .

وبجواره وقف رجل آخر يقرع الطبلة وثالث ينفخ فى مزمار .

ومر الرجلان بالشيخة زبيدة ، ثم اتجها يمينا وتجاوزا رحبة متسعة اقيمت عليها « المراجيح » بكافة أنواعها ... مرجيحة الوزة ، والمروحة ، والمركب ، وقد أخذت تزن وتطن كأنها عش الزنابير .

وبعد مسيرة بضع دقائق وصلا إلى حانوت « الشيخ عبيد العطار » . وكان الحانوت يجاور الضريح أى فى قلب معمعة المولد .

كان « الشيخ عبيد » قد رص الأرائك حول مدخل الحانوت وعلق الأعلام والزينات ، وفى ركن منعزل فرش بعض الحصر على الأرض استعدادا لحلقة الذكر .

وحيا شوشة القوم المتناثرين على الأرائك وعلى الحصر ثم تجاوزهم إلى مدخل الضريح وقد تبعه شحاتة ، ودلفا من ممر ضيق قادهما إلى الميضة وكانت لا تزيد على مجرى فى الأرض ملىء بالمياه يجلس المتوضئون على حافته فيتناولون منه الماء بأيديهم للوضوء وبعد أن تجرى المياه على اطرافهم وتقوم بواجبها فى ازالة الأتربة العالقة بها والقاذورات المتراكمة عليها تعود فتهبط مرة أخرى إلى المجرى نفسه يصاحبها ما تيسر من البصاق والمخاط الذى يستعمل فى وضوء من يليهم من عباد الله المتوضئين .

وانتهى الرجلان من الوضوء وصليا فريضة المغرب ثم خرجا للانتظام فى عقد المدعوين فى ختمة الشيخ عبيد .

وجلس شحاتة على الحصير بجوار المعلم شوشـــة ، وقد أخذ يتلفت يمنة ويسرة محاولا اكتشاف ما عسى أن يحصل عليه من جاسته هذه ، ولم يبد لعينيه شيء ينبيء بخير .. لا أكل ولا نساء ولا طاولة ، ولا أى نوع من أنواع الطرب والتسلية .. صبرا .. فربما « جرت سنحا طير الحوادث باليمن » .

وبدأ فقيه فى تلاوة القرآن ، وفى خلال التلاوة بدت ثلة أطفـــال مقبلة على الحلقة ، ولم تكد تقترب حتى اندفع منها سيد ، فلما وصل إلى أبيه همس فى أذنه :

ــ عايز تعريفه .

ــ ليه ؟

ــ أضيع فى المولد .

ــ عايز تعمل به إيه ؟

ــ أروح الشيخه زبيده ، وأتفرج على خيال الضل واتمرجح ، واشترى كبده وكشرى .. مش كل ده عايز فلوس .. والا يعنى كده أخرج م المولد بلا حمص ؟

ومد الأب يده إلى جيبه فى صمت فأخرج كيس النقود وأعطى منه قرشا لابنه ، وانطلق سيد مرة أخرى إلى صحبه بين الصبية صائحا بهسم :

ــ يالله بينا على خيال الضل .

* * *

ولنترك شوشة يستمع إلى القرآن ، وشحاتة محملقا بعينيه فى الفقيه ، شاردا بذهنه فى « عزيزة نوفل » ولنعد وراء سيد فى جولة لاهية بالمولد حتى تنتهى تلاوة القرآن فى شادر الشيخ عبيد .

انطلق الصبية يتواثبون ويصرخون إلى خيمة خيال الظل ودفع كل

منهم مليما عند الباب ، وبعد لحظة كانوا يصطفون على بضع دكك امام الستارة .

وكانت الخيمة المهلهلة قد قسمتها الستارة الدمور البيضاء قسمين قسم حوى النظارة وقسم حوى المسرح ، أو الملعب ، او سمه كما شئت .. وكان كل من القسمين مضاء « بلمبة جاز » ولم يكن الصبية يدرون شيئا عما يدور فى القسم الآخر وراء الستار ، ولكنهم كانوا يتوهمونه عالما صاخبا مليئا بالحياة والحركة مختلف الأشخاص ، وكانوا يجلسون وذهنهم عامر بشتى الأوهام .. ولو تجاوز احدهم ببصره إلى ما وراء الستار لأصيب بخيبة شديدة ولانهار ذلك العالم الموهوم الملئ بالحياة والحركة .

كان يجلس وراء الستار رجل .. وهو الكائن الحى الوحيد الذى يحرك بقية الكائنات الصامتة من الورق المقوى وينفخ فيه الروح .

كان وحده رب العالم الموهوم .. هو خالقه وهو محـركه وهو منطقه ، وهو راسم مصائر مخلوقاته .

كان الرب مرتديا « فانلة ولباس » قد انهمك وقتذاك فى خلق بعض المخلوقات الجديدة من الورق ولم يكد ينتهى منها حتى دق بكعب « برطوشته » على ظهر صندوق خشبى انذارا ببدء العمل .

وتشبه هذه الدقات إلى حد كبير الدقات التى تؤذن ببدء التمثيل ورفع الستار ، ولكن فى مسرحنا الصغير لا ترفع الستار ، لأن رفع الستار ـــ كما قلت ـــ يعد كارثة فهو يكشف عن ضآلة العالم الموهوم وحقارته ويظهر للنظارة ربه ذا القميص واللباس ممسكا بيده البرطوشة يدق بها .

اجل .. كان هذا كل ما وراء الستار قبل البدء فى العمل . وعلى ذلك فقد كان الستار .. ستره .

وعندما انتهت الدقات دخل الرجل الواقف على الباب والذى جمع

النقود ، فأطفأ المصباح الكائن فى قسم النظارة . فبدا الستار مضاء بالمصباح الكائن خلفه .

وقبل ان يبدأ التمثيل صاح سيد :

ـــ عايزين حكاية الشيخ عبد الرسول لما سيد رقعه علقه .

وهكذا كانت الروايات تملى من النظارة فى لحظتها ، وعلى الرب الكائن وراء الستار القادر على كل شىء .. اخراجها حسب ما يشتهون .

وظهر « الشيخ عبد الرسول » على الستار ، وكان الرب قد جلس فى الأرض وراء الحاجز الخشبى الكائن أسفل الستار حتى لا يظهر ظله على الستار وحتى يبدو الأبطال متحركين من تلقاء أنفسهم . وكان يمسك بقطعة من الورق مقصوصة على هيئة شيخ معمميرفعها بين المصباح وبين الستارة فيقع ظلها على الستارة ، ويبدو للنظارة من الجانب الآخر كما تبدو الصور فى الشاشة البيضاء ولكن بلا تفاصيل سوى التفاصيل الخارجية للظل .

وتكلم الرب بصوت غليظ قائلا :

ـــ انا الشيخ عبد الرسول .. المهول .. اضرب على طول .

ثم يرفع الرب بيده الأخرى صورة طفل صغير .. ويقول بصوت رفيع :

ـــ وأنا سيد السقا .. لابس خلقه زرقه .. وأديلك دقه بدقه .

وضج الصغار بالضحك .. وصفقوا بأيديهم مشجعين الطفل الصغير صائحين :

ـــ ولى سيد .. اديله يا سيد .. اديله فى عين زنبيله .

***

لنترك الصبية متحمسين للمعركة الدائرة وراء الستار .. ولنعد إلى شوشة وشحاتة ، فنجد الفقيه يوشك أن يختم قراءته ونجد شحاتة قد انتهى من جولته مع « عزيزة نوفل » فى الوهم مع انتهاء القراءة .

وهمس شحاتة فى أذن شوشة متسائلا :

ــ وبعد كده فيه إيه ؟

ــ نصلى العشا .

ونفخ شحاتة نفخة ملل ، وحدث نفسه :

ــ « وآخرتها ، صلاة وقرآن ، وذكر .. لا .. يفتح الله ، أنا ما تدرش على الحكايات دى » .

ولكنه لم يملك سوى القيام وراء الجماعة المتجهة إلى الجامع ، وبعد انتهاء الصلاة عادوا مرة أخرى إلى أماكنهم ولكنه فى العودة وجد أن « العود أحمد » .. فقد فوجىء بوعاء كبير من الثريد تعلوه قطع كبيرة من اللحم المسلوق ، قد وضع على الأرض وسط الحلقة كأنما نبت بقدرة قادر من الأرض أو هبط من السماء .

وجرى ريقه .. وتمنى لو هجم فانشب أظافره فى اللحم وعب من الثريد .. ولكن كان عليه أن ينتظر حتى ينتظم العقد ويدعو صاحب الدعوة ضيوفه إلى الأكل فيتمنعون ويدعون شبعا ، فيعيد الدعوة ويعيدون التمنع ، حتى تكون روحه قد بلغت التراقى قبل أن ينهضوا للأكل .

ومرت الفترة العسيرة « بعم شحاتة » على خير .. وبدأ الطعام ، واندس « شحاتة » بين جمهرة الآكلين و « هبر » قطعة من اللحم قذف بها فى جوفه فلم تترك إلا فراغا يسيرا للثريد .

واخيرا انتهى الطعام ورفعت القصعة وبدأ الاستعداد للذكر واصطف القوم جلوسا فى حلقة دائرة ، وبدأ شيخ منهم فى الانشاد والجمع يردون عليه ، ولم يحاول « شحاتة » أن يركز ذهنه لمعرفة ماذا ينشد الشيخ ، ولم يكلف نفسه مشقة الترديد مع الجمع حتى بدأ الكل يرددون بطريقة ملحنة .. « يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف » كأنهم كورس يردد اغنية ، وهنا لم تعد المسألة صعبة فاندفع معهم يردد مغنيا « يا لطيف .. يا لطيف » .

وفجاة نهض الشيخ ، فنهض القوم معه ، ثم بدأ يردد فى صوت

خفيض أخذ يرتفع شيئا فشيئا « الله حى .. الله حى » وكان الترديد مصحوبا بترنح للأمام وللخلف .. وأحيانا لليمين ولليسار ، ولم يكن هناك بد من أن يقلد « شحاتة » القوم فى صياحهم وترنحهم ، ولم يكن الأمر بالعسير فقد كان الترديد والتقليد من السهولة بمكان .

وهكذا! ظل شحاتة وشوشة يترنحان ويضجان مناديان « الله حى » .. ولم يحاول « شحاتة » أن يفكر فى المسألة كثيرا ولا أن يتناول صياحه وترنحه بالبحث والتمحيص .. ولكن عندما طال الأمر .. وكلت حنجرته . وخذلته ساقاه ، بدأ يفكر فى قوله « الله حى » ، وأخذ يسائل نفسه ماذا يريد هو وصحبه من الله .. ولم يصحبون اسمه بوصفه حى .. وهو أبسط ما يمكن ان يوصف به مخلوق .. فهم يشركونه فى الوصف مع أحقر المخلوقات الحية ، التى تملأ رحاب الأرض .. وماذا يفيد من اصرارهم على وصف الله ـــ الذى لا يمكن أن يكون غير حى ـــ بأنه حى .. واستمرارهم على الصياح بمثل هذا الصراخ ؟

وتصبب العرق من وجهه .. ودعا الله الحى .. أن ينزل على المخابيل « نقطة » تسلبهم الحياة حتى يكفوا عن هذا الصياح والترنح ، ونظر إلى الشيخ عبيد صاحب الدعوة وهز رأسه آسفا ، وهو يقول لنفسه :

ـــ « يا شيخ عبيد ياابن الحرام .. كأنك فعلت بنا معروفا .. لقد سلبت بالذكر ما أعطيت بالثريد .. انت والحياة صنوان .. كلاكما يسلب باليد ما يعطى بالأخرى .. كلاكما يسترد النعمة بالربح المركب .. ان الثريد واللحم الذى ملأت به بطوننا قد هضمه الذكر .. فكأنه ما كان .. يا ليتنا ما أكلنا وما ذكرنا » ! .

«الله حى .. الله حى » .

ـــ لا .. لا .. لا يمكن أن يكون حيا .. ولو كان حيا لكان يسكت عن كل هذا الصراخ ، دون أن يصيب القوم بصاعقة تسكتهم .

« الله حى .. الله حى » .

وآخرتها .. عرفنا أنه حى .. والله العظيم حى .. يا ناس ارحمونا .

واخيرا .. جدا .. بدأ الترنح يخف ، والصياح يهبط .. حتى صمت القوم تماما وهبطوا إلى الأرض .

وهمس شحاتة فى اذن شوشة :

ــ هه .. مش خلاص ؟

ــ ايوه خلاص .. بس حانصلى ركعتين .

ــ لا وحياة أبوك .. كفايه بقى .. أنا مش عاجز عن الصلاه .. بس انا صعبان على صراخ الناس دول .. كفايه اللى عملناه ده .. يالله بقى وحياة أبوك لحسن بعدين يدخلونا الذكر تانى .. يالله يا معلم الله لا يسيئك .

ونهض « شوشة » وغادر الاثنان الحلقة وسارا فى الطرقات التى اخذ الزحام يخف عنها رويدا رويدا .

وعندما وصلا إلى تقاطع « درب عجور » توقف « شحاتة » قليلا ومد يده مودعا وهو يقول :

ــ تصبح على خير يا معلم .. متشكرين خالص على السهره اللطيفه دى .

ــ على فين ؟

ــ نروح بأه .

ــ انت ساكن فين ؟

وتمهل شحاتة برهة قبل أن يجيب بضحكة قصيرة ساخرة ويقول :

ــ كنت ساكن فى شارع الخليج .

ــ ودلوقت ؟

ــ دلوقت مانيش ساكن .. دلوقت انا كده زى ما انا يعنى ماليش متعلقات ابدا .. ساكن على رجلى ، او سارح .. زى القطط والكلاب .

ــ مالكش حته تبات فيها ؟

ــ كان ليه أوده وسيبتها .. عزلت منها .

ــ ليــه ؟

ــ والله مش قد المقام .. البحرى بتاعها مش خالص وانا راجل أحب الطراوه فقلت أعيش فى الخلا .

ــ اتكلم جد يا شحاته .. إيه الحكايه ؟

ــ أنا بتكلم جد .. كان ليه أوضه وسيبتها النهارده .. الحال واقف بقاله مده ، وكان متكوم علّى ايجار كام شهر ومديون بكام قرش .. لكن ما كانش هاممنى ، ولا كان على بالى .. لغاية ما داينتنى انت بالأربعه ساغ .. فحسيت بتقل الدين .. الديون اللى فاتت كلها كانت كوم ، ودينك كوم .. الديون اللى فاتت جتتى تلمت عليها من كتر الحاح اصحابها ومطالبتهم بيها ، ما بقاتش تهمنى ، بقى عندى مقاومة ضدها .. زى الرجل الحافيه لما تبقى عندها طبقه واقيسه من الزلط والحصى والقزاز من كتر الدوس عليها .. أصل كتر المطالبه تولد التلامه .. ولما الواحد ما بيلاقيش حد يرحمه احساسه بيعدم ولا يبقاش عنده دم ، وكنت مستريح على كده .. لغاية ما جيت انت وعملت فيه الفصل بتاعك ده ، ودفعت لى الاربعه الساغ من غير ما تعرفنى ومن غــير ما تنتظر منى أن أدفع .. الله يسامحك ، انت السبب فى اللى حصلى ده .. وريتنى إن فيه فى الدنيا انسانيه ورحمه وتضحيه .. وان البنى آدم ممكن انه يعمل معروف من غير ما ينتظر منه مقابل .. خليتنى أحس ان فيه قلوب رقيقه ونفوس رحيمه ، وكانت النتيجة انك ضيعت الطبقه الواقيه من التلامه والبجاحه ، وخلتنى أرجع زى ما كنت .. اشعر واتألم وانكسف واحزن .. الله يسامحك ، زى ما بيعتنى اللى حيلتى ، وخلتنى داير من غير مأوى زى الكلاب اللى من غير أصحاب .. يعنى لو كنت سبتنى فى أيد زمزم ، مش كنت زمانى خدت العلقه وانتهيت ، وعلى

راى المثل علقه وتفوت وما حد يموت .. واهو كان الواحد بعد العلقه حا يرجع يلاقى أوده تتاويه .

واحس شوشة أن الدمع قد تفز إلى مقلتيه .. وأنه يراودهما على الانسكاب .. لقد اصاب حديث الرجل منه مقتلا ؛ ولكنه كان يكره البكاء فاستعان بالظلمة على اخفاء تعابير الألم التى علت وجهه وجاهد حتى قهر الدمع وأعاده إلى منابعه .

وبعد فترة صمت قصيرة .. قال لصاحبه وهو يحاول ان يضحك :

ــ معلهش يا شحاتة افندى حقك على ، وعلى العموم هى ملحوقه .. انا عندى أوده فاضيه ما حدش بينام فيها تعال بيت فيها لغاية ما ربنا يفرجها .

ــ لا يا عم كفايه جمايل بقى .. انت عايز تعمل فى اكتر م اللى عملته .. عايز تقضى على شوية النلامه والبجاحه اللى فاضلين ؛ واللى اقدر آكل بيهم لقمة تصلب عودى .. لا يا عم .. حد الله بينى وبينك .. انت غرقتنى جمايل .. وخلتنى بنى آدم ذوق حساس ؛ رقيق .

ــ ايه الكلام اللى بتقوله ده ؟ . جمايل إيه وبتاع إيه ؟ الأوده فاضيه ، وبدال ما تروح تنام فى السكه تعال نام فيها .

ــ لا يا عم أنا حنام فى السكه أحسن .

ــ ما تبقاش مجنون ؟

ــ لا .. لا .. كفايه ضايقتك طول النهار .. آجى كمان أشاركك فى نومك .. ليه .. هو انت ابتليت بيه .

ــ يا راجل ما تقولش الكلام ده .. الأوده فاضيه ، والله العظيم .. ما فيهاش غير الصحاره وشوية القرب .

ــ لا .. لا .. السلام عليكم .

ــ طيب تعالى اجرها ؟ .

ـــ أنا معاييش ولا نكله .

ـــ معلهش بكره ربنا يفرجها ، وتبقى تدفع الحساب ، يالله يا أخى .. ما تعملش تكليف . دا انت حتى حاتونسنى .

وتردد شحاتة برهة ، ولكن شوشة جذبه من يده جذبة لم تترك له فرصة الهروب وسار الاثنان متجهين إلى البيت .

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ، ودرب عجور قد أغلقت حوانيته وخفتت ضجته ، وساد السكون على دوره حتى يخيل للسائر أنه قد بات يسمع حفيف الأنفاس متصاعدة من النوافذ .

واقترب الرجلان من درب القط ودلفا فيه يخوضان وسط ظلماته المعتمة وقد سار « شوشة » بالتوجيه بخطوات ثابتة وأخذ « شحاتة » ينقل قدميه فى حذر متمثلا قول الشاعر « قدر لرجلك قبل الخطو موضعها » .. وكانت التوتة تبدو فى نهاية الدرب كشبح داكن يحجب بصيص الضوء الذى يتسرب من اشعة النجوم .

ودخل الاثنان الدار ، وبدا باب الشقة مفتوحا ، وقد لاحت من خلاله « أم آمنة » متربعة على الأرض وهى تجلس جلستها المطرقة الواجمة ، كأنها تمثال للصبر واليأس والجمود ، مسندة خدها براحتها متكئة بمرفقها على ركبتها ، ولم تكد تسمع وقع الخطوات حتى رفعت راسها كما يرفع الكلب الحارس راسه فى تحفز وصاحت :

ـــ مين ؟

وأجاب شوشة فى رفق :

ـــ انا شوشة .

ولكن الاقدام كانت أكثر من اقدام شوشة ، فعادت تسأله فى دهش :

ـــ حد معاك ؟

ـــ أيوه ، شحاته افندى حايبات معانا عشان الوقت متأخر .

ونهضت العجوز متثـاقلة وتحسست طريقهـا إلى الحجرة التى يرقد فيها « سيد » ثم اغلقت الباب نصف اغلاقة وهى تقول :

ــ احضر لكم عشا ؟

واجاب شوشة :

ــ كتر خيرك .. اتعشينا فى المولد .

ــ بالهنا والشفا .

واحس « شحاتة » أنه قد أزعج المراة الآمنة الطيبة فهمس لصاحبه :

ــ انا قلقتكم .. ما تسيبنى أروح .

ــ خش يا جدع .. الأوده فاضيه .

ودخل « شحاتة » يشق طريقه بين جلود القرب القديمة وافترش الصحارة .. وبعد لحظة كان اهل البيت يغطون فى نومهم .

الفصل السابع

قهـــوة لفنـــدية

استيقظ شحاتة فى الصباح وقد غمر ضوء الشمس الحجرة وتلفت حوله وفرك عينيه ومضت برهة قبل أن يستبين معالم الحجرة ويكتشف اين هو .. واخيرا تذكر دعوة « شوشة » له للمبيت فى داره فتحامل على نفسه ونفض عنه غبار النوم ، وهبط من فوق الصحارة ووقف فى منتصف الغرفة وأخذ يقلب البصر فى أرجائها .

كانت الغرفة ضيقة مشققة الجدران ذات نافذة حديدية تطل على « منور » ترتع فيه أوزتا « أم آمنة » ومعزتها .. ولم تكن محتويات الحجرة لتزيد على الصحارة التى قضى ليلته منكمشا فوقها وعلى قطع الجلود القديمة من بقايا القرب والسطايح وبعض متخلفات لسيد من كرة شراب إلى هيكل من بوص لطائرة قديمة إلى نحلة .. الخ .. وكان يوجد غير هذا كله .. صرته العتيدة .. جامعة ممتلكاته فى الدنيا .

وانصت شحاتة عله يسمع صوت « شوشة » أو « سيد » ، ولكن الدار كانت مغرقة فى صمت لا يقطعه غير صيحات متقطعة من الأوزتين بين آونة وأخرى ، واحس بكثير من الحرج ولم يدر ماذا يفعل وخشى أن يخرج من الحجرة فيجرح حريم الدار .

واقترب ببطء من الباب محاولا أن يصدر بقدميه صوتا ينبىء عنه

ويحذر منه أهل البيت ، ولكن أحدا لم يأبه له أو يسال عنه .. فوقفه بجوار الباب وطرقه بضع طرقات فلم يجده الطرق نفعا فتجاوزه إلى التصفيق بيديه صائحا :

ــ يا ساتر .. يا ساتر .

وأخيرا مد عنقه من فرجة الباب فوجد القاعة خالية فتقدم بساقيه ووقف يتطلع ببصره فيما حوله .. عجبا ! .. ليس هناك من مخلوق يوحد الله .. طبعا .. لقد تأخر فى نومه ، و « شوشة » قد ذهب إلى عمله ؛ و « سيد » ذهب إلى مدرسته .. فهما ليسا مثله نئومى الضحى .. ولكن أين أم آمنة ؟

وتقدم قليلا إلى باب الشقة وأخذ يتلفت حوله عندما سمع :

ــ صباح الخير يا شحاته افندى .

وأخيرا ، ظهرت ، كانت أم آمنة منحنية تحت بير السلم تكنس الفناء .. وقد أحست به من وقع خطواته فبدأته بالتحية .

ــ صباح الخير يا خالة أم آمنة .

ــ خير عليك يا بنى .. نوم العوافى .

ــ الله يعافى بدنك .

ــ اذا كنت عايز تغسل وشك .. الطشت والابريق عندك فى المطبخ ، ودلوقت حا حضر لك الفطار حالا .

ــ يا ستى كتر خيرك .. ما تتعبيش نفسك .

ــ ودى فيها تعب إيه ؟ .. الاكل موجود وخير ربنا كتير .

ــ والله ما تتعبى نفسك ولا تعملى حاجه أبدا .. أنا ما تعودتش افطر بدرى .. خليتك بعافيه .

ــ يا شحاته أفندى ما يصحش .. هى دى تيجى ؟ تخرج من غير ما تغير ريقك ؟

ولكن « شحاتة أفندى » كان قد تناول صرته وأسرع يعدو مهرولا

غارا من الجمائل والكرم وطيب الخلق .. التى صهرت ما تبقى من تلامته وبجاحته .. وجعلته رقيقا واهيا .. لا يستطيع المقاومة .

وانطلق الرجل بصرته إلى حال سبيله ، ولم يبق فى الدار سوى أم آمنة .

ومرت ساعات الصباح ، وانتصف النهار ، وكل منهمك فى عمله وكان « شوشة » أول من عاد إلى الدار قبل الساعة الثالثة .. وكان يحمل لفافة فى يده وقرطاسا وحزمة فجل فى اليد الأخرى .. والقى التحية إلى أم آمنة التى كانت تنتظر فى موضعها المعتاد أسفل بئر السلم ، وسألها قائلا :

ـــ سيد ما جاش ؟

ـــ لسه .

ـــ وعم شحاته ؟

ـــ برضه ما رجعش .

ـــ هوا خرج امتى ؟

ـــ قرب الضحا ، وعزمت عليه يغير ريقه مارضيش .

ـــ أنا جايب رطلين سمك مقلى وشوية بلح أمهات .. وحاخش أصلى واقيل شويه عقبال ما يكونوا جم ناكل كلنا سوا .

ودخل « شوشة » إلى الشقة ، بعد أن وضع ما فى يديه على الطبلية التى تتوسط القاعة ، ومضت نصف ساعة والدار مغرقة فى سكون لم يقطعه الا صوت صفير مألوف وأقدام مندفعة إلى داخل الدار وصيحة منادية :

ـــ أم آمنة يا ويكا .

وقذف « سيد » باللوح الصفيح وارتمى فى حجر جدته المتهللة الأسارير ، المبسوطة الذراعين .. وقال لها وهو يتخلص من ذراعيها :

ـــ فين الصفاره ؟

ـــ أنهى صفاره ؟

ـــ اللى اداها لى شحاته افندى .

ـــ انا شفتها !! لازم متلقحه مطرح ما سيبتها .

ـــ انا عايزها ضرورى .. النهارده حانلعب عسكر وحراميه .. وحاتنفعنى أوى .. ما لعبتيش أبدا عسكر وحراميه ؟

ـــ ان شالله تتفضح .. انا برضه حابقى عسكر ؟

ـــ طيب بلاش .. تبقى حراميه .. غيه اكل إيه ؟ . انا جعان .

ـــ أبوك جايب سمك مقلى . وبلح أمهات .

ـــ طب ما تيالله ناكل ؟

ـــ بس اما ييجى شحاته افندى .

ـــ هوا راح فين ؟

ـــ خرج م الصبح من غير ما يغير ريقه وماجاش لسه .

ودلف سيد إلى الداخل ونفذت إلى خياشيمه رائحة السمك فمد يده إلى اللفافة التى نضح الزيت عليها ؛ ولكن قبل ان تمس يده السمك سمع صوت أبيه يناديه :

ـــ سيد .

ـــ ايوه يابا .

ـــ استنى لما ييجى عمك شحاته افندى .

ـــ حاضر يابا . انا بس كنت بشوف الورقه فيها إيه .

ـــ فيها سمك .

ـــ عال .. انا أحب السمك اوى .

ـــ دلوقت نتغدى كلنا .

ودخل « سيد » إلى حجرة الصحارة فاخرج كيس البلى واخذ يتسلى بعده ، ثم بدأ فى صبغ كرة شراب ، ثم تشاغل باصلاح سن النحلة حتى شعر بحركة فى أمعائه فألقى بكل ما فى يده وعدا إلى حجرة أبيه صائحا :

ـــ آبا .. مش حناكل باه ؟ .. انا جعت .

وكانت الساعة قد أوشكت على الرابعة ، ولم تكن أمعاء شوشة ماقل صياحا من أمعاء ولده ، وبدأ يقول متململا وكأنه يحدث نفسه :

ـــ هو ايه ؟ . مش ناوى ييجى والا إيه ؟

وأجابه « سيد » مؤكدا :

ـــ الظاهر كده .. لأنه خد الصره بتاعته .

ـــ إيش عرفك ؟

ـــ عشان مش محطوطه فى الأوده .

ـــ لازم مش ناوى يرجع .. مسكين . ربنا يسهل له . راجل طيب وغلبان .. يالله ناكل .

وأسرع « سيد » ينادى جدته ، وفتحت اللفافة وجلس الثلاثة يتناولون الطعام حول الطبلية .

وعندما اوشكوا على الانتهاء من الطعام سمعت وقع أقدام متثاقلة تتقدم فى الفناء ، فأنصت الثلاثة وكانت أم آمنة أول من تحدثت قائلة :

ـــ دا لازم شحاته افندى !

وكانت لها قدرة عجيبة على تمييز وقع الأقدام .. فقد أخذت الخطوات تقترب من الباب مترددة ، ثم انزوى صاحبها وراء الباب ولم يبد منه للأعين المتطلعة غير ذراع يطرق الباب وصوت يقول مستأذنا :

ـــ يا ساتر .

وكان الصوت يؤيد قدرة أم آمنة ، ويؤكد أن القادم هو شحاتة افندى . أما الذراع الطارق فقد كان يجزم بأن صاحبه ليس شحاتة افندى .

كان الذراع يرتدى كما اسود ، مما يدل على أن صاحبه يلبس جاكتة سوداء ، بينما كان شحاتة افندى قد باع جاكتته ولم يبق له من رداء سوى الجلباب .

اما ان يكون الطارق غير شحاتة افندى .. أو يكون شحاتة افندى اشترى جاكتة ، وكلا الأمرين اكثر استحالة من الآخر .

ولم تطل الحيرة بالقوم ، فقد بددتها صيحة شوشة : « اتفضل » ، ثم تفضل الطارق بالدخول ، واثبت أنه فعلا شحاتة أفندى .

عجبا ! والف عجب !

اهذا هو شحاتة افندى ؟

أستغفر الله .. انه شحاتة بك .. شحاتة باشا .. لا يمكن أن يقل عن هذا ؟

ألم يكن شحاتة أفندى وهو جربوع ، سنكوح ، هلفوت لا يرتدى سوى الجلباب ؟ فكيف به وهو يرتدى الآن بذلة سوداء كاملة مما يرتديه العظماء فى المناسبات والحفلات .

كيف به وهو يرتدى ردنجوت من جاكتة وبنطلون وصديرى وقميص وياقة وكرافتة ؟

ان الرجل لاشك قد حصل على كنز !! فهو فوق ارتدائه لهذه الحلة الفخمة .. قد اقبل محملا بالقراطيس واللفائف والخيرات .

وبدأ شحاتة أفندى ينزل أحماله الواحد بعد الآخر حتى وضعها جميعا فوق الطبلية ، ولم تبق غير الصرة فى يده .

فقذف بها على الأرض ونفح الجميع بتحية ملؤها النشوة والطرب قائلا :

ــ يا ميت أنس .

وكان على الثلاثة (ومن بينهم العجوز الضريرة التى أحست من حركة القراطيس ان الرجل يحمل خيرا وفيرا) ان يبذلوا جهدا كبيرا لاستعادة سيطرتهم على مشاعرهم وهم يرون هذه المعجزة الكبرى .

وصاح الثلاثة فى نفس واحد :

ــ اهلا وسهلا .. اهلا وسهلا .

وأردف « شوشة » يقول للرجل مؤنبا :

ــ فينك يا راجل ؟ إيه الغُياب ذ ؟ .. احنا غضلنا مستنيينك على

الغدا لغاية الساعه أربعه ، وبعدين عرفنا انك اخذت الصره ، قلنا لازم مش ناوى يرجع ؟

واجاب « شحاتة » ضاحكا :

ـ وانت بتقول فيها ؟ انا صحيح ما كنتش ناوى ارجع .. لأنى كنت مستتقل نفسى كده ، وانا قاعد زى تنابلة السلطان .. أكل ونوم .. لكن ربك سترها .. الحمد لله .. دا ما ينساش عبيده أبدا .. « ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

ثم رفع كفه إلى أعلى وصاح فى دعاء :

ـ الستر يا رب .. مانيش عايز الا الستر .

وضحك « شوشة » وقال معقبا :

ـ هوا ده ستر بس ؟ ده ستر بنغنغة .. ده رزقك من غير حساب .. بعدما بعت الجاكتة اشتريت بدله .. وبدله إيه ؟ بدلة بشوات .

وسأله « شحاتة » فى دهشة :

ـ اشتريت بدله ؟ انهى بدله دى اللى اشتريتها ؟

ـ اللى انت لابسها .

وانطلق « شحاتة » مقهقها ، وهو يقول :

ـ الله يسامحك .. دى بدلة الشغل .. دى العده اللى كانت ملفونه فى الصره .. لبستها وقلعت الجلابيه وصرتها مطرحها .

ـ دى بدلة شغل ؟ ! دا انت لازم بتشتغل فى وظيفة كبيره قوى .. بتشتغل وزير ؟ انا اعرف ان الواحد لما يلبس هدوم الشغل .. يلبس .. يلبس حاجه مقطعه مهربده تستحمل الشغل .. لكن ما شفتش حد أبدا يتفسح بجلابيه دمور .. ويشتغل ببدله جوخ .

وكان « شحاتة افندى » ما زال واقفا .. فقالت « أم آمنة » مقاطعة شوشة :

ـ اقعد يا شحاته افندى .. اقعد استريح عشان تاكل لكّ لقمه .

ورفع « شحاتة أفندى » سيقان بنطلونه بكلتا يديه ، ثم رفع ذيل الجاكتة وهبط إلى الأرض متربعا أمام الطبلية .

وكانت عين « سيد » لم تغادر الرجل لحظة واحدة .. فهى تنتقل خلاله فاحصة باحثة مدهوشة مذهولة .. لقد بدا « شحاتة » لأول وهلة عندما هل من الباب فخما مهابا ، ولكن عندما اقترب ووقع هو وحلته تحت الفحص المباشر بدت بذلته الفخمة رثة بالية .. كانت البذلة سوداء .. ومع ذلك فلم تكن سوداء سوداء ، بل سوداء خضراء مما يؤكد انها لم تسلم من الصبغة بعد أن حال لونها ، وكانت يد الزمان قد جالت فيها وصالت ، وكانت البذلة كلها « مطفية » .. عدا الكيمان والركب فقد كانت « لميع » مقواة منتفخة يبدو بها اثر الكوع أو الركبة ، حتى ولو لم يكن بداخلها كوع ولا ركبة .. اما الياقة فلم يكن لها وجود ، بل حلت محلها ياقة من القطيفة السوداء ، واما حجر البنطلون فكان مجوز إذ وضع على الحجر الأصلى حجر جديد .. يستر بلى القديم ويعطيه مقاومة ضد الزمن ، وكما كانت البذلة ليست سوداء سوداء كان القميص ليس ابيض ابيض ، بل ابيض اصفر إذ يحيط بالياقة المنشاة اطار أصفر من العرق الذى لم تنفع فى ازالته يد الغسيل ، ويشد الياقة فى عنق صاحبها « بمباغ » أسود من النوع الذى يشبك الياقة بقطعتين من الحديد .. اشبه « بالكلبس » .

أما القميص .. فلم يكن قميصا بمعنى الكلمة .. بل كان لا يزيد عن صدر قميص واسورتين .. تبدوان من طرف كم الجاكتة .

هذا هو ما استطاع ان يراه « سيد » من المنظر الجديد الذى طرأ على « شحاتة » .. اما بقية ملابسه فقد كانت هى هى .. نفس الطربوش المنهار .. والحذاء الحائل الخالى من الرباط ، والجورب الصوفى الكاكى .

وأخذ « شحاتة » فى فتح اللفائف الواحدة بعد الأخرى ، كانت

بالأولى كفتة وممبار ، وبالثانية جبنة حلوم ، وبالثالثة بلح امهات ورطل بسبوسة .

وصاح « شحاتة » ، وهو يفتح القراطيس :

ــ كلوا .. كلوا بالهنا والشفا .. اللى ربنا قدرنا عليه .

وأجاب « شوشة » بالنيابة عن الباقين :

ــ والله سبقناك يا عم شحاته .. احنا لسه مخلصين أكل دلوقت .. أكلنا سمك .. كان يستاهلك .

ــ ما يمكنش لازم تاكلوا لقمه معايا ، تفتحوا نفسى .

وكان « سيد » يتلهف على الكفتة ، وخشى أن يستمر أبوه على التحدث بلسانه ويصر على الرفض . فتدخل لانقاذ الموقف قائلا :

ــ ما تزعلش يا شحاته افندى .. انا حاكل معاك .. عشان افتح نفسك .

ولم ينتظر تصريحا من أحد ، فقد كانت المسألة مجرد معروف فى « شحاتة أفندى » ، وصنع المعروف لا يحتاج إلى استئذان .. وأخذ الاثنان فى تناول الطعام « ونهضت « أم آمنة » إلى مترها فى الفناء .

وعاد « شوشة » يسأل :

ــ ما قلتلناش يا شحاتة أفندى إيه شغلتك دى .. اللى بيقلعوا لها الجلابية ، ويلبسوا لها البدله ؟ .. أنا كل ما اجى اسألك تتوه الموضوع ؟

وأجاب شحاتة وهو يدفع « بكفتاية » فى فمه ، ويلوكها بين شدقيه :

ــ شغلتى موصلاتى .

ــ موصلاتى ؟ !! يعنى إيه موصلاتى ؟

ــ يعنى موصلاتى .. يعنى بوصل الناس .

ــ قصدك شيال ؟

ــ شيال إيه يا معلم شوشه .. أنا أقدر اشيل نفسى !! انا بمشى كده لوحدى خفيف لطيف ظريف .

ـ مانيش فاهم .. بتوصل مين ؟ وفين ؟

ـ بوصل اللى انتهى .. لنهايته .. موصلاتى ذهاب بس مش ذهاب واياب .. اللى اروح معاه ما يرجعش ابدا .. اسيبه وتنى راجع .

وضحك شحاتة مقهقها .. ولكن « شوشة » لم يضحك بل غامت على وجهه سحابة حزن وضيق ورهبة وقال فى صوت خفيض :

ـ انت حانوتى !

وعاد شحاتة يقهقه (فى غير مناسبة للضحك) ، وهو يقول بخفة وبساطة أذهلت « شوشة » :

ـ يا ريت .. واحنا نتوصل .. الحانوتى راجل معلم كبير .. متريش ومبسوط .. زى المنشار .. عالطالع واكل ، وعالنازل واكل .

ـ امال تبقى إيه !

ـ حاجه كده زى صبى حانوتى أو مطيباتى جنازات .

ـ مطيباتى جنازات ؟

ـ ايوه أمشى كده قدام الجنازات من باب الافتخار والقيمة والنفخة .. نفخة الأموات .. أو آخر نفخة بيتمتع بها البنى آدم المغرور .

ـ انت من اللى بيمشوا قدام الميتين ؟

ـ مافيش كلام .. يسمونا لفنديه .. واحنا ما فيناش من لفنديه غير البدله .. الواحد منا يلبس البدله الرسمى اللى حيلته ويلبس الفوطه الحمره اللى زى فوط بتوع العرقسوس على وسطه .. ويمسك فى ايده المنقد أو القمم .. ونزف المرحوم لغاية التربة .. يعنى بالعربى تقدر تعتبرنى زى صبى العالمه .. بس هيه بتزف الذى لن يرحم ، وانا بزف المرحوم .. هيه بتزفه لقلبة الدماغ .. وانا بزفه لراحة البال .. بالذمة مش برضه احسن ؟

ولكن شوشة لم يكن على استعداد لتقبل مزاح الرجل الماجن ، بل كان يبدو راسخا تحت اثقال من الحزن .

وكان « سيد » قد انتهى من اكل آخر « كفتاية » وبدت على وجهه عدوى الفزع من رجل الأموات الذى يتشدق بذكر الموت والحانوتية ، وغير ذلك من الأشياء المروعة ، وكأنه يتحدث عن البلى والترنجيلة .

وازدرد « شوشة » ريقه واطلق تنهيدة طويلة .. واطرق براسه واجما .

وكان « شحاتة » قد انتهى من الأكل ، فغادر الثلاثة الطبلية وتناول الصرة وهو يتجه إلى حجرة الصحارة قائلا :

ــ أهو النهارده ربنا فرجها مره واحده .. صدق اللى قال : « شحاتة » لما يسعد تيجى له جنازتين فى يوم . ومش بس كده .. بكره كمان فيه جنازتين .. ياما انت كريم يارب .. أهو دلوقت اقدر صحيح اقعد معاك بقلب قوى ، وأدفع أجرة الأودة .. عن اذنكم اما أغير .

ودخل الرجل يغير ملابسه ودلف « شوشة » إلى حجرته مطرق الراس شارد الذهن .

لشد ما ملىء « شوشة » بالحزن والتشاؤم .. لقد كان يرحب به ويطرب لصحبته .. قبل ان يشم منه رائحة الموت والجنازات والقبور .. أما الآن فهو يحس منه رهبة شديدة .

والمصيبة أن الرجل ينوى أن ينزل بالحجرة بعد أن كان يصر على ألا يثقل عليه ، وشوشة لن يجسر على طرده أو منعه من النزول معه بعدما ابدى له تلك اللهفة على اضافته .

وبعد برهة كان الرجلان قد أبدلا ثيابهما واستعدا للخروج ، وعلى باب الدار قال شحاتة :

ــ النهاره بقى أنا اللى عازمك .. يالله عشان افرجك على القهوه بتاعتنا .. قهوة لفنديه .

وكان شوشة لم يزل على جزعه وتقززه من شحاتة وهو يكاد يشم منه روائح القبور ، فلم يكد يسمع دعوته حتى هز راسه بشدة قائلا :

ــ مافيش لزوم يا شحاته افندى .. انا رايح القهوه بتاعتنا عشان عندى شوية شغل عايز اقضيهم .

ــ وماله .. تقضى شغلك وبعدين نروح سوا .

ــ معلهش .. بلاش النهارده .

ــ ما يمكنش .. انا عازمك .. والا مش قد المقام ؟ . ما يصحش .. لازم تجبر بخاطرى ، انا برضك راجل عندى مقدره .

وكانت تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التأثير على « شوشة » .. وكان ذلك هو أدق وتر يمكن الضرب عليه ، فقد كان شوشة يكره أن يخذل إنسانا أو يترفع عن إنسان ، فلم يكد يسمع قول شحاتة حتى أجاب على الفور :

ــ ابدا .. ابدا .. انا متصدشى .. داحنا اللى مش قد المقام .. يالله بينا .

ــ أيوه كده ما تكسرش بخاطرى .. دانت حاتنبسط قوى ...

ولكن « شوشة » كان واثقا أنه لن « ينبسط » مطلقا وكيف يتأتى « الانبساط » فى قهوة الجنازات بين مشيعى الأموات ؟

ومع ذلك فقد كان لابد من الذهاب ولابد من احتمال السهرة وصاحبها مهما كانت الظروف .

وسار الاثنان فى الطريق وجرى الحديث بينهما فاترا متقطعا فقد كان « شوشة » شديد الوجوم شديد الشرود حتى لكأنه هو نفسه يشيع جنازة .

واخيرا وصلا إلى قهوة لغندية بالقرب من باب الشعرية فى شارع الخليج المصرى وكانت تقع فى ركن مرطوب أسفل بيت خرب مهدم ولم يكن هناك ما يميزها عن بقية المقاهى ولا ما يدل على طبيعة روادها وزبائنها اللهم إلا ذلك الحانوت المجاور لها والذى لا يفصلها عنه إلا باب البيت والذى كتب عليه « الحاج سرور أبو الفرج مقاول عموم

اشغال الجنازات ، مستعد لتوريد ما يلزم من جميع مستلزمات الجنازات من أفندية وفراشة ومزيكة وخلافه » .

كان هذا الحانوت هو الدليل الوحيد على طبيعة المقهى ، اما فيما عدا ذلك فما كان هناك اى شيء يوحى بالموت .. أو تستدل منه على ان المقهى انما هو مخزن لفندية المعدين لعمل مواكب الجنازات .

كانت أبواب المقهى الخشبية تفتح عن رحبة ضيقة رصت فى أحد أركانها الأدوات الخاصة بالمقهى كالكنك والفناجين والجوزات والشيشات ، وفى أعلى الواجهة فتحة بسعة الباب مغلقة بقضبان حديدية متوازية .. أما المناضد والمقاعد والأرائك فقد وضعت داخل الرحبة وخارجها ، وبجوار الواجهة وجدت بعض أصص حوت احداها صبارة والباقى حوت خليطا من الريحان والعتر والبردقوش وفى نهاية الأصص وفى الناحية الأقرب لباب البيت الذى يفصل المقهى عن حانوت المقاول كانت توجد صفيحة ملأى بالطين غرست عليها لبلابة تسلقت على بضعة خيوط امتدت بين الباب وبين واجهة المقهى .

دخل الرجلان المقهى وبشوشة غير قليل من الدهش فقد كانت فى ذهنه صورة موحشة للمقهى ورواده وكان يتوهمه مكانا معتما كئيبا معفرا يخيم عليه الصمت وتجوس خلاله الأشباح وترص به التوابيت وشواهد القبور .. فإذا ما نطق به ناطق كان حديثه أنينا وصياحه ولولة .

ولكنه ما كاد يلقى عليه نظرة حتى اخذ .. كان المكان على ضيقه مكتظا ، لا بالأشباح ولا بالتوابيت ، بل بالزبائن الضاحكين الصاخبين ولم تكن تعلو منه أصوات ولولة بل ترن ضحكات خالصة لا تشوبها شائبة هم ولا حزن ، وكانت تقرع فيه قشاطات الطاولة وتتجاوب النكات وتترامى الشتائم المرحة .

كان المكان محفل انس ومجمع مرح وطرب ، ولم يكن يختلف قط عن أى مقهى صاخب ضاح إلا فى ظاهرة واحدة هى طابع رواده واشكالهم

.. كانوا كلهم من عينة واحدة وشبه واحد بحيث لا يستطيع الناظر إليهم ان يميز أحدهم عن الآخر من اول وهلة .

كانوا كلهم صورا طبق الأصل من « شحاتة أفندي » ... هيكل عجوز متداعى يلفه جلباب من الدمور المخطط وجاكتة قديمة ، وطربوش منهار الأركان ، وحذاء أجرب بلا رباط وجورب منزلق من الساق الرفيعة الجرداء متساقط على الحذاء .

كانوا كلهم كذلك .. نفس الرأس الأشعث .. والوجه المغضن المعروق والذقن التى تناثرت عليها الشعيرات البيض فلا هى ملتحية ولا هى حليقة .

وسأل شحاتة صاحبه وقد وقف الاثنان فى مدخل المقهى يقلبان البصر فى أرجائه :

ــ تحب تقعد فين ؟

ــ تعال نقعد فى الركن اللى هناك ده اللى جنب الليلابه .

ــ أمرك .

وجلس الاثنان على المقعدين الخاليين بجوار اللبلابة حول منضدة على قارعة الطريق ، وقال شحاتة فى لهجة ملؤها الأريحية والكرم :

ــ تشرب إيه بقى يا عم ؟

ــ اى حاجه .. هات لنا قهوه .

ــ قوه بس ؟ ودى تيجى .

ثم صفق بيديه وصاح بلا كلفة كأنه فى بيته :

ــ يا محمود .. اتنين قهوه مضبوط واتنين حمى على كيفك .. وهات كمان طاوله .

وانبعثت من وسط المقهى صيحة منغمة طويلة تطوى فى جوانحها كلمة « حاضر » ، ورفع شوشة حاجبيه فى دهش وقال وهو يهز رأسه هزات بطيئة :

ــ عجيبه ؟

ــ إيه دى اللى عجيبه ؟

ــ أنا كنت فاكر ان انا حاجى اقعد فى وسط محزنه .

ــ محزنه . ليه كفى الله الشر ؟

ــ أهو قلت يكونوا طالعين جنازه ، والا جايين من جنازه .

ــ طالعين جنازه والا جايين من جنازه ؟ ودى حاجه تحزن .. دى حاجه تبسط .. دى حاجه تفرفش .. الظاهر انك ما عندكش فكره ابدا .

ــ فكره عن إيه ؟

ــ عن شغلتنا .. أنت عارف المثل اللى بيقول مصائب قوم عند قوم فوائد .. أهى دى الفوائد .. الجنازات عند الناس مصائب لكن عندنا فوائد .

ــ يا ستار يا رب !

ــ يا ستار على إيه ؟ . وهوا لولا جنازة النهارده كنت كلت أكلة الكفته اللى بشتهيها بقالى سنه ، وهوا اللى كان حايجرالى من زمزم لولاك مش من تحت راس وقف الحال وقلة الجنازات .

ــ لكن ده موت .. موت .. عارف موت يعنى إيه !

ــ عارفه يا سى شوشه .. عارفه كويس .. هوا انا لى شغله غيره .. طول النهار رايح جاى فيه .. رايح فين .. رايح التربه .. جاى منين .. جاى من التربه .. وبعد كده تقوللى عارف الموت يعنى إيه ؟ أنا حاقول لك يعنى إيه .. حافهمولك كويس .. وافهمك قيمة البنى آدم إيه .. عشان ما تبقاش موهوم قوى كده .. وتبص لى زى ما اكون مبتلى .

وفى هذه اللحظة اقبل الساقى وبيده الطاولة فوضعها أمامهما وعاد يحمل إليهما صينية القهوة .. ووضع الفناجين وسكب ما فى الكنكة ثم حياهما وانصرف .

ورشف شحاتة من فنجانه أول رشفة ، ثم اعتدل فى مجلسه كمن ينوى حديثا طويلا .. وغادرت وجهه سيماء المزاح التى كانت ترتسم عليه ، وبدأ حديثه لشوشة يفهمه معنى الموت وقيمة ابن آدم .

* * *

قال شحاتة : إن وجه الأرض متغير ، وان مركبات هذا الوجه من مختلف الكائنات محدود وجودها بفترة معينة ، لها بداية ونهاية .. ففترة الوجود تبدأ بالخلق وتنتهى بالفناء ، وتمر بمراحل الجدة والقدم والانعدام ، وابن آدم لا يزيد عن ان يكون أحد مركبات وجه الأرض ، فوجوده عليها محدود بفترة معينة ، حكمه فى ذلك حكم هذا المقعد الذى نجلس عليه ، وهذه القطة الرابضة اسفل المنضدة ، وهذه اللبلابة المتفرعة على الجدار .. انه لا بد بعد الجدة ان يصيبه القدم والانهيار والانعدام ، ثم ينتهى ويغادر وجه الأرض لينبت سواه ويأخذ مكانه فى الوجه المتغير . هذه ظاهرة لا جدال فيها ولا مناقشة . ولذا كان حريا بالإنسان أن ينتهى كما ينتهى هذا المقعد أو هذا الجلباب ، وأن يغادر محله الذى على وجه الأرض فى هدوء كما يغادر هذا الجلباب البالي فكذا سطح الأرض لا يطيق الإنسان البالى ، وكما يمزق الجلباب وهو جديد قبل أن يبلى فيخلعه الانسان .. كذا تخلع الأرض بعض سكانها وهم جدد إذا ما أصابهم القدر بمزق جعلهم غير لائقين بوجه الأرض .

ولكن الانسان يمتاز عن بقية مركبات وجه الأرض بالغرور ، فهو يأبى أن يقارن نفسه بغيره من الكائنات التى توجد لفترة محدودة ، تبدأ بالخلق وتنتهى بالفناء .. ويأبى الا ان يعتبر نفسه كائنا غير فان وغير قابل للانعدام ولذا فهو يفزع من أن تكون له نهاية . فإذا ما وجد نفسه مكرها عليها غير مستطيع عنها فكاكا ، ووجد ان جسده الملموس والشىء الذى يدلل على كيانه ، قد فنى .. أبى إلا ان يفرض بقاء الشىء غير الملموس والذى لا يدرى كنهه ولا يستطيع تحديده الا وهو الروح ،

وهو فى سبيل ذلك يحقر الجسد ويقلل من شأنه ويعظم من ذلك الشيء الذى يتوهم بقاءه وخلوده .

وهو يقول ان الانسان باق بروحه .. ما قيمة الروح فى ذاتها بلا جسد ؟ . ان كيان الانسان وتصرفه ومشاعره ورغباته وملذاته وآلامه .. منعكسة من الجسد ، هو يشتهى لأن جسده يشتهى ، وهو ينعم بالملذات لأن جسده يرغبها ، وهو يعشق لأن جزءا من جسده ابصر جزءا من جسد آخر .. فمن الغباء أن يحاول جعل الروح شيئا مستقلا عن الجسد ، ومن الغباء أن يتصور بقاءها بعد فناء الجسد .. فكما لا يستطيع أن يبقى بلا روح ، كذا لا يمكن أن يكون للروح وجود بلا جسد .

إن الإنسان روح فى جسد .. فكيف يستطيع مخلوق ان يتصور روحه بلا معالم ولا ملامح ، ولا مميزات ، ولا رغبات ، ولا لذات ، ولا آلام ؟ . ما فائدة الروح الباقية إذا كانت لا تزيد على هبة هواء لا شكل لها ولا لون ولا رائحة .. ولا .. ولا .. ولا شيء ابدا ؟

هذه الروح الباقية ما قيمتها ؟ وما احساسها وما عملها ؟ ان قدرة الروح فى الأرض كامنة فى الجسد ، مسيرة لخدمته ، فهى شيء تابع للجسد ، ولا قيمة لطاقتها إذا لم توجه لتحريك هذا الجسد .. ولتمكينه من اداء وظيفته .. لينال رغباته ومتعاته .

انها اشبه بالقوة المحركة للقاطرة او لاية آلة .. حقيقة انه ليس هناك قيمة للآلة بغير القوة المحركة .. ولكن هل هناك قيمة للقوة المحركة فى حد ذاتها .. إذا لم تجد الآلة التى تحركها ؟

ما قيمة أن تبقى الروح بعد فناء الجسد .. أو بعد فناء الشيء الأصلى المكون للمخلوق الآدمى ؟

ولكن الإنسان المغرور يكره ان يقارن نفسه بالكلب او بالمقعد او باى مخلوق من المخلوقات ذوات المدد المحددة فى البقاء على وجه الأرض .

وهو لذلك يكره الموت ويابى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته بأوهام كريهة .. ويرفض تعوده ، وترويض نفسه عليه .

انها مسألة ترويض وتعويد لا أكثر ولا أقل .

وانتهى « شحاتة » من رشف فنجانه ، وكان الساقى قد احضر التعميرتين ، فتناول احداهما ، وتناول « شوشة » الأخرى .. واخذ الاثنان فى جذب الأنفاس من خلال المبسم ، وعاود « شحاتة » حديثه و « شوشة » انصاته .

قال الرجل لصاحبه :

ـ خذنى انا وانت مثلين لما أقول .. انت تفزع من حديث الموت وتروع من سيرته .. لقد رأيتك تنفر منى وتنظر إلى كأنى عفريت أو شبح .. كل هذا لأنك لم تروض نفسك على عملية الموت ، ولا تعودت مظاهره ، كل شيء يحدث على ظهر الأرض يهون بالتعود .. لقد كنت مثلك منذ بضعة اعوام قبل أن أندمج فى مهنتى .. كان شعر رأسى يقف عندما أسمع صواتا ، وكنت أرتجف إذا ما طرقت اذنى ولولة .. وكنت إذا رأيت نعشا يسير خشعت وطأطأت وقرأت الفاتحة وترحمت .. اما القبور فقد كنت أخشى رؤيتها ، أما الأموات فما جسرت على أن أقترب من ميت قط . فماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد سرت فى الجنازة الأولى مطأطىء الرأس ، متجهم الوجه ، وعندما وصلنا إلى المقابر واخـذوا يوارون الجثة فى القبر ، وعلت أصوات الرجال والنساء بالنحيب ، انتحبت معهم كأن الميت قريبى .. واندفعت فى النحيب حتى كاد يغمى على .

وضحك منى الزملاء واتخذونى موضع تسلية وفكاهة ، واكدوا لى انى يجب أن اتناول أجرا مضاعفا وأسير وراء الجنازة ، لأنى بين الأفنديه « لقطه » ، ولكنى فى الجنازه الثانية كنت أقل تأثرا .. وفى الثالثة والرابعة لم يكن هناكَ تأثر قط .

كنت اسير فى الجنازة كأنى فى نزهة .. وكان نحيب الناحبين يصل إلى اذنى كأنه صفير القطار ، أو مأماة المعيز . وعندما كنت أصل

إلى المقابر .. كنت اجلس على شواهد القبور ، واضعا ساقا على ساق ، وانا الذى كنت لا اجسر على الاقتراب منها .

لماذا ؟ انها اكوام من الحجارة رصت على الأرض .

وأكثر من هذا ، لقد بدأت اتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسه .. اتصدق هذا ؟ لقد فعلت هذا لأنى عزمت على ان أهزم فى نفسى كل خوف من الموت أو رهبة له كشىء مروع . عزمت على ان اكتشفه تماما ، وأن اصل فى كشف خباياه إلى أعمق الاغوار .

لقد تطوعت لحمل احد الأموات إلى داخل المقبرة .. ولا اكتمك ان الأمر كان يحتاج منى إلى شىء من الجرأة فقد ارتجفت عندما مست يدى لحمه البارد وجلده الباسى .. ولكن بعد لحظات ذهب عنى الخوف ، ولم يزد شعورى عن شعورك عندما تحمل فخذة خروف أو أوزة مذبوحة . اليس كلاهما جسد ميت من لحم وعظم ؟

وهكذا تعودت أن انزل مع الأموات إلى المقابر .. انها مسألة بسيطة جدا .. فالمقبرة لا تزيد على كونها قبو تحت الأرض ؛ تناثرت العظام فى ناحية منها ، وفى الناحية الأخرى جيف لم يقدم عليها العهد حتى تضحى رميما .

ولا تسل عن الفائدة التى جنيتها من ذلك !!

لقد أصبحت رجلا شجاعا .. بل أصبحت أشجع رجل فى العالم .

لقد بت أحتقر الموت وأحتقر اكثر منه .. الانسان .

الانسان حقير يا صاحبى إلى اقصى حدود الحقارة .. والعجب !! انه حقير ومغرور .. وغروره يعمى عينيه عن حقارته .

انظر إلى الناحية الأخرى من الشارع .. اترى هذا الشىء الملقى هناك الذى يعف عليه الذباب .. انها جيفة كلب ميت منتفخ الجسد .. انظر إليها جيدا .. لا تشمئز كثيرا ، واسمع حكايتى التى سأقصها عليك :

كنت اسير ذات يوم فى احد الطرقات فرايت الطريق قد اخلى ،

والناس مزدحمة على الأرصفة ، وقد صفت الجنود على الجانبين ، وسألت عن الخبر ، فعلمت أن كبيرا سيمر ، وأن الطريق قد أخلى له ، حتى لا يعرقل سير موكبه رائح ولا غاد ، وحتى لا يشاركه الطريق مار من البشر يفسد فخامته وأبهته ، وبعد لحظة أقبل الموكب ، خيل مطهمة وجند مدججون وحراس مزركشون وعربات مزينة مزخرفة .. ومر الكبير ، وهو يرفل فى أبهى مظاهر العظمة والروعة ، واخذت من مرآه ، وبدا لى كأنه قد هبط من السماء ، وأنه من المستحيل أن يكون بشرا مثلنا ، بوجهه الأبيض المتورد وحلته الجوخ المزركشة بالقصب ، وقد حفت به كوكبة من الفرسان برماحهم وسيوفهم .

واحسست بالضآلة والانكماش .. واحتقرت نفسى احتقارا شديدا .

ومرت بضعة أشهر ، ثم سمعت أن الكبير قد مات .. ووقفت أرقب جنازته ، وبدا يمر موكبها رائعا فخما .. لا يقل فخامة عن موكبه ، وهو حى .. كانت فصائل الفرسان والجنود يتقدمون النعش بملابسهم الزاهية الملونة تتخللهم الموسيقى العازفة الصادحة ، وهى ترن على جانبى الطريق فتحدث صدى مروعا ، وبدا النعش محمولا على مدفع ضخم ملفوف فى علم أخضر ، تجره الجياد السود الضخام .. وتحلت مقدمته بصنوف النياشين والمداليات .

وتلا ذلك حشد زاخر من المشيعين يتقدمهم الرجال الرسميون بحللهم السود المزركشة ، ثم تلت بعد ذلك وفود لا حصر لها .

واخذت من روعة الموكب .. وقلت لنفسى .. تبارك الذى خلق .. « علو فى الحياة ، وفى الممات » .. وعظمة حتى بعد أن قضى .

مرتين كان فيهما الرجل الكبير رافلا فى أبهى مظاهر الأبهة والفخامة .. تحف به مواكب الحراس والجند .. مظهرة اروع صورة لعظمة الإنسان وسلطانه مما يجعل النفس تتضاءل بجوارها .

ثم رأيته فى المرة الثالثة !!

انظر إلى جيفة الكلب المنتفخة النتنة الملقاة امامك .

لقد كان كذلك .. لا يفترق عنها قيد أنملة .

لقد تصادف أن مات قريب له بعد ذلك ، وكان اقل منه قدرا مما سمح لى بأن اشترك فى زفافه حاملا قمقمى لابسا حلتى وفوطتى ، ودفن الرجل فى نفس مقبرة الكبير وتطوعت لحمل جثته داخل المقبرة ، وهبطت إلى المقبرة .

وهناك وجدت الآخر .. بلا فخامة ولا ابهة .. ملقى كالقربة الملأى التى تحملها على ظهرك أو كالخروف المذبوح الذى نفخه الجزار إعدادا لسلخه .. بلا حراس ولا جنود ، ولا موسيقى ولا مواكب .. اللهم إلا مواكب الدود .. دود عادى لا يلبس التشريفة ولا يمسك رماحا ولا سيوفا .. دود بسيط كذلك الذى يحف بجثتك وجثتى وجثة هذا الكلب .

ولم اتمالك نفسى من ابتسامة ساخرة .

أرأيت احقر من الإنسان أو اشد غروراً ؟

إياك أن ترهب إنسانا لمظهره ومنصبه .. إياك أن تروع بتلك الألقاب وتلك الثياب .. انها مهما ضخمت فلن تحوى فى طياتها سوى بشر ، ومهما ضخم البشر .. فمآله إلى جيفة نتنة .. كهذا الكلب .

ليفتر ما شاء له الغرور ، وليتكبر وليتعاظم وينعجرف . ليفعل كل شىء .. كل ما عليك أن تعطيه موعدا أقصاه بعد أعوام .. لتلقاه فى مقبرة وانظر كيف يبدو .. اسأله عن القابه وعن ثيابه وعن حراسه وعن امواله وعن سلطانه وعن جبروته وعن قوته ثم انظر بماذا يجيبك .

إذا أجابك بأكثر مما يجيبك ذلك الكلب .. فابصق فى وجهه .. وفى وجهى .

كلها أعوام .. والأعوام تمر على الزمن الطويل كالدقائق ، ثم تلقى صاحب العزة وصاحب السعادة وصاحب الرفعة ، وصاحب أفخم لقب من الألقاب البشرية على الأرض ممدد الأطراف منفوخ البطن لا يحميه من

عادية الدود قانون ولا يصون ذاته الكريمة التي لا تمس صائن ، ولا يقي جثته المرغة في التراب المشرفة للمقبرة .. واق ولا حام .

ليس هناك أحتر من البشر ولا أغفل . أهناك أشد غفلة من مخلوق يغفل عن نهايته ؟

أهناك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يعتبر بها ؟

هذا هو الموت يا صاحبي ، وهؤلاء هم البشر .

نهاية طبيعية .. لمخلوقات غير طبيعية .

* * *

وانتهى « شحاتة » من حديثه وسرعان ما زالت عنه مظاهر الجد ثم أطلق ضحكة عالية وقال لشوشة :

ـ ايه بقى رايك يا عم في المحاضرة دي .. صدقت والا لسه ؟ .

وانبعثت من صدر « شوشـــة » تنهيـدة حارة ولم يجب فأردف « شحاتة » متمما :

ـ انا عارف ان ما فيش فايده .. ما فيش فايده .. إلا إذا شفت بنفسك واتعودت بنفسك .. انا برضك لو كان واحد حلف لى على الميه تجمد على الكلام اللى قولتهولك ده قبل ما اجربه ماكنتش صدقته .. على العموم كل اللى عايزه انك ما تتضررش من عشرتى والقعده معايا .. لانى ابتديت أحبك ، ونفسى أننا نفضل أصحاب على طول ، لكن إذا كنت انت ما تقدرش تتخلص من ضيقك منى ومن وهمك من الجنازات والموت .. فأنا ماحبش أضايقك ولا أتقل عليك .. وأنا من النهارده ارجع معاك وآخد الهدوم بتاعتى ...

وقفز الدمع فجأة إلى عينى « شوشة » وبذل جهدا كبيرا لاعادته إلى موضعه ، وان كان « شحاتة » قد لمح احمرار عينيه .

وبعد أن تخلص من دمعه قال :

ـ يا شحاتة افندى .. انت زى ما حبيتنى أنا حبيتك .. أنا بتالى

مده مش لاقى صاحب أستريح له ، وأفضفض له . والبنى آدم من غير صاحب ما يسواش بصله .. البنى آدم أكتر ما يحتاج له فى حياته صاحب ، وأنا حاسس انك صاحب حقيقى ، وزى ما انت مش عايز تفرط فيه أنا مش حافرط فيك .. انا بيتى بيتك ، وأهلى أهلك .. خليك قاعد معانا على طول .

وعندما طفرت الدموع إلى مقلتى « شحاتة » لم يحاول أن يعيدها بل تركها تنساب فى أخاديد وجهه المغضن .

وأخيرا نهض الرجلان مغادرين المقهى متجهين إلى البيت . وفى الطريق توقف شحاتة أمام مقلة الحسينية وابتاع خليطا من الفول السودانى واللب والحمص ثم سأل شوشة :

ـ حانشترى عشا إيه ؟

ـ ما فيش لزوم .. العشا موجود .. فيه جبنه وفيه بلح وفيه البسبوسة وفيه عسل اسود . مافيش لزوم للرطرطه .

ـ طب نشترى حاجه لسيد .

ـ كفايه اللب والفول .. هو حاينهب .

ووصلا إلى البيت وكانت أم آمنة تقوم بعملية تشطيف سيد ، وكان صراخه التقليدى يعلو محتجا على استعمال الصابون .

ووقف « شحاتة أفندى » فى القاعة وهو يصيح بسيد مستفسرا :

ـ مالك يابو السيد ؟

ـ بتغسل لى راسى بالصابون .

ـ وإيه يعنى ؟ ودى حاجه تستاهل الصريخ دا كله ؟

ـ طيب تعالى أنت كده ورينا شطارتك .. خليها تغسل لك راسك بالصابون وشوف حاتصرخ والا لأ .

ـ لا يا عم . حد الله بينى وبينها .. أنا بقالى تلاتين سنه ما غسلتش راسى لا بميه ولا بصابون .

ـ طيب أمال عامل حدق ليه ؟

— لما كنت صغير قدك كنت بستحمل .. لكن دلوقت كبرت .. عقبال ما تكبر انت كمان وتتمتع بالوساخه .

وانتهت أم آمنة من تشطيف سيد ، وذهبت إلى حجرتها للصلاة ، وعدا سيد إلى شحاتة فى حجرة المحارة قائلا له :

— انت خلاص حاتسكن هنا ؟

— ان شاء الله .. لو ماتضايقوش منا .

— نتضايق ازاى ؟ احنا ديكى الساعه لما يسكن معانا شحاته افندى بحاله ؟

— عشت يابو السيد .. عشت .

— بس اسمع بقى .. فيه حاجات عايزها منك .

— إيه هى .

— أول حاجه تعلمنى الصفاره .. عشان طول النهار بانفخ فيها .. مانيش عارف .

— بس كده .. خليها على الله .

— تانى حاجه .. عايزك كل يوم تسمع لى السوره .

— سورة إيه ؟

— السورة اللى علينا فى الكتاب .. انته ما انتساش حافض القرآن ؟

— والله مش قوى .

— ليه مارحتش كتاب وانت صغير ؟

— رحت .

— طيب ما حفضوكش القرآن ؟

— حفضونى ونسيته .

— معلهش .. على العموم السوره مكتوبه فى اللوح .. وكل اللى عليك انك تسمعها لى من اللوح .

— بسيطه .. فيه إيه تانى ؟

ـــ تعرف تعمل طيارات .

ـــ طيارات ورق ؟

ـــ امال يعني حاتعمل طيارات حربيه ؟

ـــ والله كنت زمان بعمل .. وافتكر برضه ان أنا أقدر اعمل دلوقت .

ـــ طيب عايزك تعمل لى طياره .

ـــ عندك الورق والغاب ؟

ـــ عندى الغاب ؛ وهات لى انت الورق .

ـــ حاضر .. فيه حاجه كمان ؟

ـــ تعرف تعمل كوره شراب ؟

ـــ واعمل كوره شراب .

ـــ وتلعب بالنحله ؟

ـــ والعب بالبيضه والحجر .. كل اللى انت عايزه حاعملهولك يابو السيد .. ما تحملش هم أبدا .

ـــ يا سلام يا شحاته افندى .

ثم صاح هاتفا بأعلى صوت :

ـــ يعيش شحاته افندى .. يعيش شحاته افندى .

وكانت « أم آمنة » قد انتهت من الصلاة وصاحت بسيد :

ـــ هات الأكل اللى جوا من المطبخ رصه على الطبليه يا سيد .. عشان أبوك وعمك شحاته ياكلوا .

ـــ وانتى مش حاتكلى معانا ؟

ـــ أنا كلت .

ورص الطعام وانتهى الثلاثة من تناوله وآوى شوشة إلى حجرته فجلس بجوار النافذة جلسته الصامتة الحزينة رانيا ببصره إلى النجـوم المطلة من سقف الدرب .. وجلس شحاتة ممسكا بالناى وقال :

ــ هه .. نبتدى ؟

ــ أيوه .

ــ انا حاصفر لك حته سهل .. وبعدين حاعلمك ازاى تصفرها .

ثم بدأ يصفر لحنا بسيطا لم يكد يسمعه سيد حتى صاح فرحا :

ــ عارفه .. مش ده .. « خد البزه واسكت .. خد البزه ونام » ؟

ــ أهو هوه .

واستمر الرجل فى الصفير وسيد ينشد معه صائحا :

خذ البزه واسكت خد البزه ونام
امك السيده وابوك الإمام

ثم كف « شحاتة » عن الصفير وبدأ فى الشرح قائلا :

ــ شوف بقى يا سيدى ، هات ايدك اليمين .. خلى صباعك الكبير تحت الصفارة وافرد صوابعك الأربعه وحطهم على الخروم اللى فى الآخر .. أيوه كده .. وكمان ايدك الشمال .. خلى صباعك الكبير على الخرم اللى تحت الصفاره والتلات صوابع اللى بعديه حطهم على الخروم اللى ناحية بقك .. ودلوقت عايز تنفخ .. شيل صباعك التانى وبعدين الأول .. حطهم الاتنين وشغل التالت والرابع .. أيوه كده ، تانى انفخ .. شيل الأول ، والتانى .

واستمر شحاتة فى درسه حتى استطاع سيد أن يصفر المقطع الأول من اللحن فقال الأستاذ :

ــ بس .. الليله دى كفايه كده .. بعد جمعه .. حتبقى أحسن زمار فى مصر .. ولا البزرى .. ودلوقت بقى هات اللوح لما اسمعلك السوره .

واحضر « سيد » اللوح الصفيح واعطاه لشحاتة قائلا :

ــ آخر سوره خدناها هى سورة عبس .

ــ ومال خطك وحش كده ليه .. زى نغبشة الفراخ ؟

ـــ ده وحش ؟
ـــ أنا مش عارف اقرا منه حاجه ابدا .
ـــ لازم مبتعرفش تقرا .. تلاقيك نسيت القرايه .. زى ما نسيت القرآن !
ـــ يا واد بلاش نقوره .
ـــ امال مش عارف تقرا خطى ازاى ؟ مع انه احسن خط فى الكتاب كله ؟
ـــ طب قول بلاش غلبه .. ابتدى .
وجلس « سيد » متربعا على الأرض ، واعتدل فى مجلسه ، ثم بدا يهتز للأمام وللخلف مرددا :
ـــ عبس وتولى أن جاءه الاعمى .
واعترض « شحاتة » قائلا :
ـــ وهو يعنى عبس دى .. ما تتقالش إلا إذا اتهزيت قوى كده ؟
ـــ آه .. زى ما علمونا .
ـــ طيب كمل .
وعاد « سيد » إلى الترنح مرددا :
ـــ عبس وتولى أن جاءه الأعمى .
وبدا أن الكلمة التالية قد غابت عن ذهنه ، فقد أخذ يردد الجملة بضع مرات ، ثم خرج عن السورة محاولا التخلص من مأزق النسيان بسؤاله « شحاتة » قائلا :
ـــ الا على فكره يا عم شحته .. يبقى مين عبس ده ؟
ـــ عبس ؟
ـــ أيوه عبس .
ـــ ما يبقاش حد .
ـــ يعنى إيه ما يبقاش حد ؟ يطلع من الكفار والا من المسلمين ؟
ـــ لا من الكفار ، ولا من المسلمين .

ــ امال يبقى ايه ؟

ــ هوا حد قال لك ان عبس ده راجل ؟

ــ امال ست ؟

ــ يا بنى آدم . . عبس . . يعنى كشر . . تولى . . يعنى انصرف . . الأستاذ ماقالكش كده ؟

ــ لا .

ــ امال قال لك إيه ؟

ــ ولا حاجه ابدا ، بيخلينا نحفض كده من غير سؤال . خدنا جزء عم كله . . من غير ماحنا فاهمين ولا كلمه ، واهو كلام بنقوله عمالين زى البغبغانات .

ــ طيب يا سيدى انا حافهمك ، حكاية عبس وتولى دى . . كان فيه واحد من الصحابة اظن ان اسمه ابن ام مكتوم .

ــ ابن ايه ؟

ــ أم مكتوم . . اسمه كده .

ــ ماله ابن أم مكتوم ده ؟

ــ ده كان راجل أعمى ، فراح يوم للنبى عليه الصلاة والسلام ، فلقاه مشغول مع جماعه من الكبار . . اللى عليهم القيمه بتوع قريش ، وعمال يهدى فيهم ، فراح حاشر نفسه وسطهم وقطع عليه الكلام ، وقال له « علمنى مما علمك الله » وقعد يزن عليه ، والرسول مش سائل فيه ومشغول بالجماعه التانيين ، فنزلت الآيه دى على سيدنا محمد تقول له انه ما كانش حقه يعبس ويكشر ويسيب الراجل الأعمى الغلبان لأنه عايز يتعظ ، ويمكن الموعظة تفيده . . أهى دى كل الحكايه . طبعا ما كنتش عارف عنها حاجه وعشان كده لازم بتحفض غصب عنك . . وانت متأذى ؟

ــ بحفض لخوفى من الفلكة والمقرعه .

ـــ يا خسارة القرآن بين الجهله .. القرآن دا « يا سيد » كلام حلو .. بس لازم يتفهم .. ده معجزة .. دا مافيش حاجه فى الدنيا تخلينى انطرب اد سماع القرآن والانصات له . انت لو فهمته حاتحفظه من نفسك .. شايف الآيه المتعلقه على الحيط دى .. اقراها كده .

وبدأ « سيد » القراءة ، وكانت الآية مكتوبة بالخط الثلث المتشابكة حروفه ، فلقى « سيد » صعوبة فى قراءتها وأخذ يردد فى بطء :

ـــ ولنبلو .. ولنبلو .

ثم صاح فى يأس :

ـــ احنا ما خدناش الخط المشبك ده .

ـــ ولا حاتخدوه .. دا شغل خطاطين .. بيكتبوا حاجات عشان الزينة مش عشان القرايه .. انا حاقرالك انا .. (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) .

يعنى ان ربنا بيمتحنا بالخوف والجوع وضياع الأموال وهلاك الأنفس والأولاد فبشرى للصابرين اللى لما تصيبهم مصيبة قالوا ان احنا ملك لربنا ، واننا راجعين له .. شايف الآيه دى وشايف حلاوتها .. فيه حاجه تصبر المخلوق المصاب اكتر من كده .. وشوف الآيه التانيه :

(والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

يعنى اللى يصبروا على الفقر والمرض وعلى الضنك والأذى هم دول المتقين الصادقين .. فيه تكريم للمصاب أكتر من كده ! وفيه تشجيع على الإيمان واحتمال المكاره والصبر والجلد أكتر من كده ! دى حاجه تخلى الواحد يتمنى المصيبه عشان يصبر عليها .

وهز « شحاتة » رأسه فى تأثر ، وهو ينظر إلى « سيد » ليرى مدى تأثير قوله عليه .. ولكن الصبى فاجاه بسؤاله :

ـــ لما ما يكونش لها ديل بتقلب ليه ؟

ودهش الرجل أيما دهشة فقد ظن ان الصبى منهمك فى الانصات إليه .

ولم يملك إلا ان يسأله فى دهشة :

ــ من غير ديل ؟

ــ ايوه .. بتقلب ليه ؟

ــ هى إيه دى ؟

ــ الطياره .

ــ آه .

وتبين أن ذهن الصبى كان شاردا طول الوقت فى الطيارة ، وانه لم يع شيئا من درس التفسير الذى لقنه إياه . ولم يجد بدا من اجابته بقوله :

ــ عشان الديل يحفظ التوازن بتاعها .

ــ توازن ؟

ــ أيوه .. يعنى ما يخليش جنب أتقل من جنب .. تبقى زى الميزان لما تكون الكفتين قصاد بعض .

ــ طيب وليه تضرب بالراس ؟

ــ هى إيه دى ؟

ــ برضه الطياره .

ــ والله حكاية ضرب الراس دى معرفهاش .. ده علم جديد ، اصل على أيامنا ما كانتش تضرب بالراس أبدا .. كانت طيارات مؤدبه .. ومع كل انت زعلان ليه .. لما تضربك بالراس ابقى اضربها انته بالراس .

ــ هوا إيه أصله ؟ هى حا تضربنى انا بالراس ؟

ــ أمال حاتضربنى أنا ؟

ــ لا .. حاتضرب الهوا .

ــ طيب يا سيدى تضربه .. انته يعنى صعبان عليك الهوا ..

خليهم يصطفلوا مع بعض .. ما هو تلاقى الهواء يرضه لازم عمل فيها حاجه .. يعنى هى حاتضربه كده من الباب للطاق .

ـــ ما هى لو ضربت بالراس .. حاتقع على الأرض وتنكسر .

ـــ بقي تستاهل .. عشان تحرم تضرب بالراس .

ثم امسك « شحاتة » باللوح الصفيح وهز رأسه قائلا :

ـــ الحقيقة لهم حق يحفضوكم صم ، دول عشان يحفضوكم بالتفسير ويخشوا معاكم فى حكايات عن الطياره ، وضربها بالراس ، لازم حايخدوا لهم أد ميت سنه لما يخلصوا جزء « عم » .. سمع يا خويا سمع .. قول الله يعينك .. خلينا نقوم ننام لحسن ورايا بكره تلات زفق .. قول يا سى سيد .. « عبس وتولى » .

وجلس الصبى جلسته المتربعة ، ونصب هامته ، ثم أخذ فى الترنح للأمام وللخلف قائلا :

(عبس وتولى .. أن جاءه الأعمى .. وما يدريك لعله يزكى) .

الفصل الثامن

استعداد لمعركة

مرت الأيام و « شحاتة » ينزل فى شقة « شوشة » ويقطن حجرة الصحارة ، وشارك الأسرة فى أكلها ومقرها حتى بات كأنه عضو فيها وانه ساكن أصيل يعيش معهم من عشرات السنين ، فقد ألفوه والفهم حتى لم يعودوا يتصورون أنهم كانوا يعيشون من غيره .

ولا شك أن وقف الحال الذي كان قد اصاب « شحاتة » فى الفترة الأخيرة قد ولى عنه تماما ، وأن الدنيا — أو على الأصح الآخرة — قد اقبلت عليه ، واغدقت عليه من أمواتها الجم الكثير ، وأن الله قد أصاب الناس بوباء أو بفرة ؛ وأن عزرائيل قد نشط من أجل « شحاتة أفندى » نشاطا عظيما ، واندفع بين الخلق يطيح برقابهم ويقصف أعمارهم .. فكان « شحاتة » يخرج من الدار بصرته ويظل غائبا طول اليوم ، فلا يعود إلا فى آخره مرتديا بدلة الشغل منهك الجسد متعب الساقين من فرط المشى والتشييع .

وبدت مظاهر العز والنغنغة على « شحاتة » جلية واضحة ، وكانت اول تلك المظاهر هو نفحه شوشة « ريالا » كأجر للحجرة التي يقطنها وابتياعه لنفسه جاكتة « نصف عمر » من سوق الكانتو بدا فيها محترما مهابا .. ثم اغداقه القروش على « سيد » واغداقه الماكولات والحلوى على أهل الدار فى كل غدوة وروحة .

وفى ذات يوم خرج قبيل المغرب مع « شوشة » قاصدين المقهى الذى تعود ان يجلس عليه شوشة ، وكان شحاتة يرتدى جاكتته الجديدة أو نصف الجديدة وقد كوى طربوشه وغسل جلبابه ومسح حذاءه الاجرب وابتاع له رباطا أغلق به فاه ورتق الثقوب التى به بما تيسر من اللوز ورفع الجورب المتساقط وشده على ساقه بقطعتى دوباره .

بوجه عام كان شكل الرجل مقبولا ، لا سيما وقد حلق ذقنه ، ولم يعد هناك اثر لطبقة الشعيرات البيضاء المتناثرة على صفحة وجهه والشبيهة بغزل البنات المفروك .

وصل الرجلان إلى المقهى واتخذا مكانهما فى الركن الذى تعود ان يجلس فيه « شوشة » ، وفرقا بضع تحيات هنا وهناك ، وكان « شحاتة » قد أصبح شخصية معروفة فى المقهى .

ورآه أحد الجالسين فهمس لصاحبه :

— الراجل ده بيشتغل إيه ؟

— من بتوع القماقم اللى بيمشوا قدام الجنازات .

— يا ساتر يا رب .. اللهم ابعده عنا .

والتقطت أذن « شحاتة » الحادة السمع حديث الرجلين فصاح مقهقها :

— اطمن .. انا بمشيش فى جنازات الهلافيت ابدا .

وعبس الرجل ، ولكن رواد القهوة اندفعوا فى الضحك .

ووجه شحاتة القول إلى شوشة متسائلا :

— فيك من عشره طاوله ؟

— أوى .

— بس خلى بالك . انا ناوى أضحضحك ، انا النهارده فايق لك قوى .

— أدها وأدود .. تطلب إيه ؟

— هات لنا قهوه وتعميره .

وصفق شوشة بيديه فأقبل الساقى وأعطاه الأوامر بالطلبات فصاح مناديا بها بطريقته الفنائية ، وكان شحاتة يتلفت حوله فاحصا وجوه الموجودين كأنه يبحث عن شخص معين واخيرا أمسك بذراع صاحبه وسأله فى لهفة :

ـ اسمع .. مش ده صاحبك ؟

ـ صاحبى مين ؟

ـ صاحبك الدباح .

ـ قصدك شرف الدين ؟

ـ ايوه .

والتفت شوشة الى الناحية التى يشير إليها شحاتة فوجد شرف الدين جالسا على مقعده ، واضعا ساقا على ساق ممسكا بيده « فردة شارب » بزيده برما وبالأخرى مبسم الشيشة فقال شوشة :

ـ أهو هوه .

ثم استدرك قائلا :

ـ لكن مش صاحبى ولا حاجه .

وضحك شحاتة قائلا بخبث :

ـ طب ومالك بتتبرى منه كده ليه ؟ هو معره ... يا سيدى ياريت يكون صاحبى انا .

ثم رفع يديه إلى السماء داعيا :

ـ اللهم اجعلنا من بركاتك يا سيدى شرف الدين يا دباح .. نظره يا سيدى شرف نظره .

والتفت إلى شوشة مردفا :

ـ انا اصلى ما قدرش حد فى الدنيا قد الجماعه دول . كفايه انه من ريحة عزيزه نوفل ، دا زى سيدنا رضوان .. فى ايده مفاتيح الجنه .. هو يقدم لنا حوريات الأرض .. ورضوان يقدم لنا حوريات السماء ، واحد بياخد اجره منا والتانى اجره على الله .

واطرق شوشة برهة براسه قبل أن يجيب قائلا :

ـ يا عم حد الله بيني وبينهم .. انا كافى نفسى شرهم .. انا اكبر دعوه بدعيها فى صلاتى « اللهم اكفنى شر رغبات نفسى » . هوا فيه حاجه بتذل الإنسان وتستعبده أد رغباته ، رغبته فى النسا بتذله وبتخليه يجرى وراهم ويسترضيهم . ورغبته فى المال بتذله لجمعه والحرص عليه ، ورغبته فى الاكل بتذله لبطنه . هوا فيه درع يعين الانسان على الحياة .. قد الزهد .. هو فيه أقوى فى الحياة من انسان غلب رغباته وقتل مطالب جسده .. ده يبقى الإنسان الحر اللى يقدر يدوس على الحياة بجزمته ...

ـ وليه ده كله يا سى شوشه ؟ تدوس الحياه بجزمتك ليه ؟ هى عملت فيك حاجه ؟ وهوا لما تبقى مالكش ولا رغبه وتزهد فى كل حاجه .. تعيش ليه . وإيه فايدة انك تبقى حر إذا كنت مانتاش عايز حاجه .. ما تسيب الدنيا أحسن .. الدنيـــا ما فيهاش حاجه تستاهل العيشه غير شوية الرغبات اللى انت عايز تزهد فيها .. ما فيهاش غير ساعة حظ .. فإذا كنت مانتاش عايز ساعة الحظ .. يبقى موتك احسن .

وضحك شوشة وقال :

ـ ماهو أصل الواحد ما يلاقيهاش بالساهل .. بيدوخ لغاية ما يطولها يا سى شحاتة .

ـ ماهى دى لذتها .. هى دى الدنيا .. إنك تجرى ورا حاجه عايزها .. يوم ما يكونش لك حاجه تعوزها ، وتجرى وراها .. يعنى مته .. لما تلقى كل حاجه جاهزه قدامك .. بعد مدة بسيطة الواحد حايزهأ .. هوا فيه حاجه بتزهأ الواحد من مراته غير انها قدامه يلاقيها وقت ماهو عايز .. لكن لو كان بينطلها من شبابيك وبيترتع علقه ، ويتدشدش قبل ما يطولها .. ما كانش زهق منها ابدا .. على العموم

سيبك من ده كله .. خلينا فى المفيد .. قول لى .. الجدع الدباح ده .. الواحد يتعرف بيه ازاى ؟

ـــ ولا حاجه .. قوم كده خده بالحضن .

ـــ انا باتكلم جد .. ايه الطريقه اللى تعرفنا بيه ؟

ـــ ولا حاجه اصبر عليه هوا حايجيلك لحد عندك .. اصل له بصيره نافذه ، نظرته ما تقعش الأرض .. يشمشم زى الكلاب .. دلوقت يعرف انك انت صيده ويجيلك لغاية هنا .. هوا المره اللى فاتت لو كان لقى فيك الرمق كان عتقك .. لكن اصله لقاك وقيع خالص .

ـــ والمره دى .. فيه أمل ؟

ـــ قوى .. فيك الرمق خالص .. يالله نبتدى .

وفتح شوشة الطاولة ، وبدأ فى رص الحجارة . ثم رمى بالزهر :

ـــ شيش جوهار .. العب .

ولكن شحاتة لم يلعب .. فقال له :

ـــ ما تلعب .. مستنى إيه .. الزهر قدامك .

ولكن « شحاتة » لم يمد يده إلى الزهر ، ورفع « شوشة » بصره ليرى ما اصاب صاحبه ، فوجده فاغرا فاه ، محملقا بعينيه فى الرصيف الآخر .. ولم يلبث حتى انطلقت منه صيحة مدوية قال فيها .

ـــ يا حلو ..

ثم رفع عقيرته بالغناء منشدا :

ـــ « ما كانش كده طبعك يا غزال .. والنبى انا مقدر على دى الحال » .. انا قتيل الهوى .. انا صريع الغرام .. « ياللى جرحت القلب داويه .. غيرك انا معرفش طبيب » ، « كادنى الهوى وصبحت عليل .. زى النسيم فى روض الحسن » اموت فى العسل النحل .. اموت فى الشهد المروق .. يا خلق يا هوه .

وصاح به « شوشة » زاجرا ، محاولا ردعه عن إحداثه تلك الضجة :

ــ يا جدع العب ما تفرجش علينا الناس .

ــ العب .. العب والقمر سايب سماه ، وبيتمشى على الرصيف اللي قدامي .. ليه ؟ ما عنديش نظر .. انطسيت في عنيه ؟

ثم اندفع ثانية في غزله الصاخب صائحا منشدا :

ــ « بشراك يا قلبي آدى اللي كنت به موعود

زارك حبيبك وطاب أنسك على موعود »

يا ميت حلاوه .. يا ميت فل .. يا ميت مسا .. يا سيدى بنمسى !

وهكذا ظل سيل الغزل يندفع من فمه بلا توقف ، حتى اختفت « عزيزة نوفل » عن ناظره ، وعاد إلى وعيه فأمسك بالزهر وقذف به في نشوة معتذرا لشوشة بقوله :

ــ ما تآخذنيش يا معلم .. انا اصلى ما بيقاش في وعيي ، بتوه .. انا بابقى في عالم تاني .. انا عارف ان ده عيب ومايصحش .. لكن ما بقدرش .. اعذرني .. اوعى تزعل مني يا معلم شوشه .

ــ معلهش .. حصل خير .. العب .

ــ جوهار ياك .. حلوه دى .. أهو انا حابسك في خانة الياك .. ومش سايبك .. ولو بالطبل البلدى ، دى أصلها لعبة حريفه .. ولا أتخن شنب يعرف يلعبها .. دى اصلها ...

ولكن قطع عليه استرساله في الحديث صوت أجش صاح من ورائه بقوله :

ــ سلامو عليكم .

وتلفت « شحاتة » ليرى صاحب التحية .. فإذا به « شرف الدين » فتهللت أساريره وهتف مرحبا :

ــ أهلا وسهلا .. عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. اتفضل يا معلم دباح .. يا الف مرحب .. هات لك كرسي واقعد .. احنا حانخلص بسرعة .. انا حاديهوله مارس واخلص ، شايف قافشه في خانة الياك

ازاى ، قانفشه بكلبش ! اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا .. انستنا يا معلم .. شرفتنا .

ــ الله يشرف مقدارك .

ــ ازيك كده ؟

ــ الله يحفظك .

وجذب شرف الدين كرسيا وجلس يرقب اللاعبين وهما يتبادلان الزهر ، وأخيرا انتهى اللعب واغلق شحاتة الطاولة وهو يقول :

ــ أظن كفايه كده ؟ ازاى الحال يا معلم شرف ؟

ــ رضا .. الحمد لله .

ولا شك أن المعلم « شوشة » قد احس حرجا من جلوس صاحبنا الدباح بجواره ، فقد بدأت الأعين ترمقهم خلسة ، وبدا له انه قد يؤخذ بتهمة هو منها براء ، فأخذ يتململ فى مجلسه ثم ما لبث أن نهض قائلا :

ــ عن اذنكم يا جماعه .. لحظه واحده .. اما اقول للمعلم خشت على موضوع كنت عايزه منه .

وأجاب الاثنان فى نفس واحد :

ــ اتفضل .

فلقد كان كلاهما يحس نفس الحرج الذى احسه المعلم شوشة ، ولم يكن يعرف أحدهما كيف يفتح الموضوع الذى يدور برأس كل منهما .. ولكنه لم يكد ينصرف ويخلو كل منهما إلى الآخر حتى كشف كل منهما قناع الحياء عن وجهه :

قال شرف وهو يفرك يديه ويتنحنح :

ــ عندنا حاجات طيبه أوى يا سيدنا لفندى .. عندنا ولاد ناس طيبين .

ــ ناس طيبين إيه يا سى شرف ؟ . احنا حانخطب .. انا محبش الناس الطيبين أبدا .. مره اتجوزت بنت ناس طيبين .. كانت زى

لوح التلج .. صدت نفسى عن الدنيا .. لا يا عم .. حد ألله بينى وبين الناس الطيبين .

ــ طيب بلاش الناس الطيبين .. أنا عندى جماعه يعجبوك قوى .

ــ فين ؟

ــ فى درب كبيبه .

ــ عارفهم .. مش أد كده .

ــ طيب فيه جماعه على كيفك فى عطفة سطيح .

ــ برضك عارفهم .

ــ طيب الجماعه اللى فى حارة المهلبيه ؟

ــ مش فى بيت شباره ؟ عارفها .

ــ طيب وإيه اللى مخليك قاعد هنا ؟ .. ماتقوم تشتغل معايا ...

وضحك « شحاتة » وقال :

ــ بقى اسمع يا سى شرف .. خلينا نتكلم دغرى من غير لف .. أنا بالعربى .. عايز اللى فاتت دلوقت من هنا .

وهز شرف رأسه هزات بطيئة وقال فى تمعن :

ــ تقصدك .. عزيزه نوفل ؟ .

ــ أيوه .. هى مافيش غيرها .

ــ دى غاليه عليك .

ــ يعنى بكام ؟

ــ خمسين قرش .

ــ خمسين قرش ؟ ! فى الليله ؟

ــ لا مؤبد .. مش قولتلك شيل على قدك .

ــ خمسين قرش حته واحده !! يعنى ليله .. بخمس أموات .

ــ خمس إيه ؟

ــ ده حساب ما تعرفوش .. حساب بينى وبين نفسى (وخفض صوته قليلا كأنما يحدث نفسه) .. خمسين قرش يعوز لهم خمس

جنازات لا وشك ولا ضهرك . يعنى الواحد عشان يتنعنش ليله .. لازم ينكد على خمس عيلات .. الحكايه عايزه شوية همه من عزرائيل .. لازم يشد حيله شويه معانا .. ويقصف لنا خمس ست سبع أعمار .. عشان خاطر « ست عزيزة » .. على العموم هى تستاهل .. انا نفسى مستعد أموت فى دباديب رجليها (ثم رفع صوته موجها الكلام إلى شرف) خمسين قرش ، خمسين قرش .

ــ مافيش ناقص مليم .

ــ ما تهزها شويه .. اعمل لنا اكرام شويه .

ــ الأسعار محدده .

ــ طيب خلاص انتهينا .. معادنا امتى ؟

ــ الليله الجايه .

ــ حانتقابل فين ؟

ــ هنا فى المغربية .. حاستناك لغاية ما تيجى وبعدين آخدك ونروح على البيت .

ــ اوعى تتأخر .

ــ أتأخر ازاى ؟ من خامسه حاكون مستنيك ، استبينا ؟

ــ استبينا .

ــ ايدك ع العربون .

ــ عربون إيه ؟ بكره ؟ بكره يحلها الحلال واديلك المبلغ كله .

ــ إيدك ع العربون .

ومد « شحاتة » يده فأخرج كيس نقوده ثم أخرج منه قطعة بعشرة قروش وقال :

ــ خد آدى بريزه .

ــ مش كفايه .

ــ ما معييش غيرها اللى حيلتى .. خدها واحمد ربنا .

وأخذ شرف القطعة الفضية ووضعها فى جيبه وفى تلك اللحظة اقبل « شوشة » ، فنهض الرجل مودعا وانصرف .

وجلس الرجلان يتحدثان برهة ، ثم ما لبثا حتى نهضا عائدين إلى البيت .

وصلا إلى البيت وتناولا العشاء ، وجلس « شحاتة » يتسامر برهة مع « سيد » ، ثم قام كل منهم إلى مضجعه .

وعندما جلس « شوشة » على فراشه يرنو ببصره من خلال النافذة إلى النجوم المتلألئة في رقعة السماء السوداء سمع طرقا خفيفا على الباب ، وأبصر « شحاتة » يدلف من الباب ساريا كالشبح ولمح فى يده نايه الذى أهداه لسيد .

وجلس « شحاتة » على طرف الفراش بجوار « شوشة » وبعد لحظة صمت قال فى صوت خافت :

ــ عايز أقول لك كلمتين يا معلم .. تسمح بيهم ؟

ــ اتفضل يا شحاته أفندى .

ــ أنا خايف أكون زعلتك النهارده ، وخايف أكون نزلت من عينك ، أنا كنت باعمل اللى أنا عايزه ماكنتش بيهمنى .. كنت بغلط وماحسش انى غلطان لأنى ما كنتش بشوف الصح .. ما كانش عندى مستوى مقارنه .. كنت فاكر انى بعمل الشيء الطبيعى ، لكن لما شفتك حسيت ان فيه حاجه اسمها الصح .. وحسيت ان اللى بعمله مش صح . لكن اعمل إيه .. بعد ستين سنه عمر ، مقدرش أغير نفسى فى يوم وليله .. ومافتكرش ان أنا حاعرف اغير نفسى .. وحتى متهيألى ان لازم يبقى فيه فى الدنيا ناس زيى .. عشان اللى زيك يبان .. مش المثل قال « وبضدها تتميز الأشياء » لازم يكون فيه خطايا عشان يكون فيه غفران ، ولازم يكون فيه غلط عشان يكون فيه صح ، ولازم يكون فيه وحش عشان يكون فيه حلو .. وإلا لو كانت كل حاجه كويسه وحلوه وصح ، كانت الدنيا تبقى مايعه ، مالهاش طعم ولا كان حد عرف الكواسه

والحلاوه والصح ، أعذرنى يا معلم « شوشة » واغفر لى ذنوبى ، لان لولا سواد ذنوبى ماكانش بان بياض طهرك .

ومد شوشة يده وربت على كتف شحاتة قائلا فى رفق :

ــ انت راجل أمير .. كل واحد له ذنوبه ، وهوا مين اللى مالوش ذنوب .. الكمال لله وحده .. المهم انك متئذيش حد قد ما تقدر .. ربنا يهدينا كلنا ويفوت عمرنا القصير على خير .

ــ كتر خيرك يا معلم .. ربنا يريح قلبك زى ما ريحت قلبى .. تحب اصفر لك ع الناى شويه ؟

ــ أيوه ، سمعنا .

ووضع « شحاتة » طرف الناى بين شفتيه ، وبدأ الصفير ، وعلا اللحن خفيضا كالهمس ، ثم بدأ يعلو طويلا حزينا يسرى فى سكون الليل كأنه البكاء والأنين ، واستمر الرجل يعزف حتى أحس بيد « شوشة » توضع على كتفه ، وسمع صوته المختنق المتحشرج يهمس به :

ــ كفايه .. كفايه كده يا عم شحاته .

ورفع بصره إليه فلمح الدمعتين تتلألآن فى مقلتيه ، ثم تجريان على خديه .

فى هذه المرة لم يقو الرجل على اعادتهما إلى منابعهما ، لقد كان اللحن اقوى من إرادته .

واشار « شوشة » إلى صدره ، واضعا يده على موضع القلب وعاد يهمس :

ــ المصيبة هنا ، المصيبه فى الاحساس اللى ما يخمدشى ابدا .. تصبح على خير يا شحاته افندى .

ــ وانت من اهله يا معلم شوشه .

وعاد « شحاتة » إلى مضجعه فوق الصحاره وساد السكون الدار ، واغرق كل فى فيض احلامه .

استيقظ « شحاتة » كعادته ، وكانت الشمس قد نفذت من النوافذ

فانفترشت ارض الدار ، وكان « شوشة » وابنه قد ذهب كل إلى شأنه ، و « أم آمنة » جلست فى الفناء متشاغلة بعجن بعض النخالة واعدادها للأوزتين .

وارتدى الرجل جاكتته وحذاءه وطربوشه ، وتناول صرته التى حوت حلة الشغل ، وودع « أم آمنه » وغادر الدار . وعندما تجاوز درب القط ودلف يساره فى درب عجور .. لم يكد يسير بضع خطوات حتى تمهل أمام جزارة « الخشت » وترددت خطواته برهة ، وهو يتأمل الدواب المعلقة من سيقانها ، والتى تقطر الدماء من أعناقها ، وتتناثر الأختام الحمراء على لحمها الأبيض ، ثم بدا كمن حزم أمره ، ونوى شيئا خطيرا ؛ وتقدم إلى الدكان بخطوات ثابتة ، غير هيابة .. وكان « الخشت » قد وقف بجلبابه الأبيض الملوث بالدماء .. وجسده السمين المربرب ، وطاقيته الشبيكة .. وقد أخذ يهوى بالشاطور على « الأرمة » مهشما إحدى العظام .

وكان التعارف قد حدث بين الرجلين فى المقهى فتقدم « شحاتة » إلى الرجل وصاح به محييا :

ــ صباح الخير يا معلم خشت .

ــ صباح النور .. أهلا وسهلا .

ــ وحياة أبوك أنا عايز رطل من بيت الكلاوى بتلو .

ــ عنيه الاتنين .

ووضع الرجل الشاطور جانبا .. ثم تناول من أحد الخطاطيف قطعة كبيرة من اللحم قائلا :

ــ انا حاديلك حته من الفخده على كفيك .. بيت الكلاوى ما تنفعكش .. كلها عضم .

ــ زى بعضه يا معلم .. كله كويس .

وانتهى « الخشت » من الميزان بعد أن وضع فى كفته قطعة كبيرة من الورق الأصفر وأغرقها بالمياه لكى يثقل وزنها ، وعندما انتهى من لف

اللحم اقترب منه « شحاتة » ، وقال بصوت خفيض ، وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ أنا عايزك توضب لى بقى شوية مخاصى على شوية مواسير على حتة كلوه . . توضيبه من إياها دى ؟

وضحك « المعلم خشت » وصفق بيديه طربا ، وقال فى حماس كأنما هو الذى سيفيد من التوضيبة :

ـ سيبنى أنت بقى خلينى أعمل لك التوضيبه على كيفى . . أنا حاخليك تدعى لى . . حارجعك عشرين سنه لورا ، وحاقول لك كمان على وصفه ماتقولهاش لعدوك . . حاجه مجربه . . ماتخيبش ابدا .

وأخذ الرجل يقطع من هنا خصية ، ومن هنا كلوه وجمع بعض العظام المليئة بالنخاع وقطعة من ذيل الخروف ثم لف كل ذلك فى ورقة واعطاها « لشحاتة » قائلا :

ـ شوف بقى يا عم ، تاخد الحاجات دى وتحطهم فى حله وتتك تغليهم لما يسلى دهنهم من غير ما تزود الميه . لغاية الشوربه ما تبقى مش شوربه . . تبقى عصيده . . حاجه كده مش سايطه ، وتكون محضر شوية تحابيش تاخدهم معاها يخلوك بمب .

ـ كتر خيرك يا معلم . . ماعدمكش ابدا .

وأمسك « شحاتة » باللفافتين وبدا عليه التردد ، ثم قال فى شىء من الخجل :

ـ الفلوس حاديهملك وانا راجع من الشغل . . ممكن ؟

ـ ممكن أوى . . يا سلام يا شحاته افندى . . بلاش فلوس خالص . . داحنا جيران .

ـ الله يخليك . . السلام عليكم .

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وعاد « شحاتة » إلى الدار ثانية ، وفوجئت « أم آمنة » بسماع وقع اقدامه فتساءلت فى قلق :

ـــ إيه اللى رجعك يا شحاته افندى .. كفى الله الشر .. نسيت حاجه ؟

ـــ لا مافيش حاجه .. انا بس جايب رطل لحمه تطبخيه لنا على الغدا .

ـــ ولزومه إيه التعب ده .. شوشه ماهو مدينى الفلوس ، وبيجيب معاه الحاجه ، وهو راجع .

ـــ معلهش ده حاجه بسيطه يمكن تحبى تعملى شوية خضار والا حاجه .

ـــ كتر خيرك .. دايما تاعب نفسك كده .

ـــ مافيش تعب ولا حاجه .. خدى .

ثم ناولها اللفافة الأولى وأعقبها باللفافة الثانية قائلا :

ـــ دى اللحمه ، ودى شوية مواسير على شوية تناتيش عايزك تسلقيهم لى لأن عندى روماتزم فى ضهرى وواحد وصف لى الوصفه دى عشان تصلب ضهرى .. بس عايزها تغلى قوى وما تزوديهاش ميه .. يعنى يدوبك تطلعى منهم فنجان شوربه .

ولم تعلق « أم آمنة » على الوصفة التى أكدها « شحاتة » بل ركزت كل اهتمامها فى مسألة ظهره الموجوع فصاحت فى فزع :

ـــ ضهرك بيوجعك ؟ سلامتك .. ألف بعد الشر عنك .. لازم استهويت .. تلاقيك نمت والشباك مفتوح . الليله دى لازم تقفله وتحبش على القزاز المكسور بحتة ورق ، واحسن طريقه تضيع البرد ، ان أعمل لك كام قدره تشد الهواء اللى فيك .. انا حابعت « لزكيه » ..

ووجد « شحاتة » أن « أم آمنة » قد ابتعدت جدا عن الموضوع الأصلى .. فلم يجد بدا من مقاطعتها لاعادتها إليه فقال :

ـــ لا .. لا .. مافيش لزوم .. الحكايه بسيطه قوى . بس اسلقى لى شوية العضم دول هم يطيبونى .. انا واخد على الحكايه دى من زمان .

ولكن « أم آمنة » قالت محتجة :

ـــ عضم إيه يا شحاته أفندى دا اللى يخففك ؟

ـــ بس اعمليهم انته ومالكيش دعوه .

ـــ حاضر يا خويه . . ان شاء الله تيجى تلاقيهم جاهزين على الغدا .

ـــ كتر خيرك .

وعندما اطمأن « شحاتة أفندى » على مصير المخاصى والكلاوى ، واقنع أم آمنة بعدم ضرورة القدرة . . تناول صرته وغادر الدار مستحثا الخطا إلى « قهوة لفنديه » .

ووصل إلى المقهى فوجد النشاط على اشده و « الأفندية » رائحين غادين بين حانوت الحاج سرور والمقهى فأدرك أن هناك « جنازة حارة » ، وانه قد تأخر عن الوصول فقد صاح به المعلم سرور عندما وقع عليه بصره :

ـــ ما تمد شويه يا سى شحاته ، والا خلاص بقيت مستغنى ؟

ـــ مستغنى ازاى بقى . . دا أنا مش فى عرض جنازه واحده . . انا قتيل خمس جنازات . . معذور فيهم قوى . . الحقيقه تستاهل .

ـــ إيه هى اللى تستاهل دى ؟

ـــ مره زى اللوز .

ـــ طب مد . . آدى اللى انت فالح فيه . . تنك غرقان فى النسوان لغاية ما يجيبوا أجلك . . ان شاء الله حاتموت قتيل مره ، ويكره انكرك .

ـــ وانا فى ديك الساعه لما أموت قتيل الهوى ؟ ياريت .

واسرع « شحاتة » فنزع جلبابه ثم ارتدى حلته ولف القوطة الحمراء حول وسطه وتناول المجمرة التى تعود ان يحملها وصاح ببقية الزملاء :

ـــ ايه يا جماعه . . ماتيالله بينا . . هى الجنازه فين ؟

ورد الحاج سرور :

ــ حاتقوم من مصر عتيقه للمجاورين .

ــ يا نهار ابوه اسود .. يعنى مالقاش قرافه أقرب من كده ؟ هى ترب الامام مالها ؟ وحشه ؟

ــ اللى حصل يا سى شحاته .. مدافنه ومدافن أهله فى المجاورين .

ــ ولما هوا عارف انه حايدفن فى المجاورين بيسكن فى مصر عتيقه ليه ؟ . ما يسكنش فى الدراسه والا فى الحسين والا حتى فى الكحكيين والا درب الاحمر والا الجماليه .. ضاقت به الدنيا عشان يعيش فى مصر عتيقه ويموت فى المجاورين ؟

وكان ترام (نمره ٥) قد اقبل فصاح الحاج سرور فى عجلة :

ــ طب يالله يالله .. يالله يا جماعه عشان نلحق .. الساعه تسعه دلوقت ولازم نكون هناك عشره .

وهرول الأفنديه بمجامرهم ومناقدهم والموسيقيون بمزاميرهم وطبولهم فاحتلوا عربة الترام وقد تعالت صيحاتهم ونكاتهم كأنهم العوالم ذاهبات إلى زفة عروس .

وجلس شحاتة على مقعد الترام ، وكانت جلسته بجوار « الشيخ سيد الخولى » ، ولا شك أنها كانت جلسة مقصودة ، فقد أخذ شحاتة يكثر من التحيات العاطرة على « الشيخ سيد » ، والشيخ يتلقاها ببرود ، فلا يسمع لها فى نفسه رنينا كأنها النقود الزائفة ، والواقع ان «الشيخ سيد» كان لا يسمع فى نفسه رنينا لأى شىء ، فقد كان من نوع ناعس الطرف مسبل العينين ، كأنه رائح أبداً فى سبات عميق ، وكانت تلفه طبقة سميكة من اللاشعورية قمينة بأن تصد عن باطنه كل أنواع المؤثرات الخارجية فلا تثير فى نفسه اية مشاعر لا بالفرح ولا بالحزن ولا بالغضب .. كان الرجل يجلس ويتحرك ويتكلم كأنه فى غيبوبة .

وعندما انتهى شحاتة من سيل التحيات التى اغدقها على « الشيخ سيد » التائه .. مال عليه بجسده وهمس فى اذنه :

ــ ما معكش حته يا شيخ سيد ؟

ويبدو كأن هذا هو السؤال الوحيد الذى استطاع النفاذ إلى وعى « الشيخ سيد » واختراق نطاق الجمود الذى حصن به نفسه فقد ارتجفت جفنا الرجل ، ثم قال دون أن يوجه بصره إلى محدثه فكأنما يجيب نفسه :

ــ هو انته ما تفرغلكش طلبات ؟ . . انت مش لسه واخد حته اول امبارح ؟

ــ أصلى معذور فيها اوى النهارده .

وتمتم « الشيخ سيد » ببعض كلمات الاستياء ، ثم مد يده مدفعها فى صدره من خلال البدلة والقميص وأخرج من جيب الصديرى المخطط لفافة قذرة أخذ فى فتحها ببطء وتؤدة وأخرج منها قطعة صلبة فى حجم البندقة وفى لون الشيكولاتة الباهتة ثم قسمها بأصابعه مستعملا ظفر ابهامه . . وكان القسمان متساويين تقريبا فأمسك بأحدهما وحاول تجزئته فعجز عن ذلك بأصابعه فرفع القطعة إلى أسنانه .

وصاح شحاتة فى ضيق وغيظ مكتوم :

ــ متجيبها يا أخى ، حاتكسر فيها إيه ؟ هى مستحمله كسر .

ــ يا باى على عينك الفارغه . . خد . . حار ونار فى جتتك .

ثم دفع إليه بالقطعة ، فتناولها شحاتة ووضعها فى جيب صديريه ، وعندما اطمأن إلى استقرار القطعة فى جيبه تهللت أساريره ، ثم عاود سيل التحيات يغرق به الشيخ سيد ، فلما انتهت الدفعة الثانية من التحيات عاد يميل بجسده مرة أخرى وهمس بنفس الطريقة الأولى :

ــ الاقيش معاك ملوه ؟

وكان تيقظ الشيخ سيد فى هذه المرة على أشده ، فقد رفع حاجبيه فى دهش وفتح عينيه بأقصى ما تستطيع عضلات جفنيه ثم زوى ما بين حاجبيه وهتف متسائلا :

ــ انت إيه حكايتك ؟ . . انت رايح جنازه . . والا رايح فرح ؟ . . عندك عزومه والا إيه ؟ .

ــ أناح . . عندى سهره بياتى .

ـــ مع مين ؟ .

ـــ مع مين ؟ .. مع قالب زبده .. مع طبق قشطه .. مع صباع موز .. مع صنية كنافه بالفزدق .. مع ...

ـــ طب بس بس .. انسد .. ما انت أصلك دنى ورمرام .. خد .. ادى اللحسه أهى .

ومد يده مرة أخرى فى جيب صديريه فأخرج علبة صفيح صغيرة مستديرة اشبه بعلبة النشوق ثم أخرج علبة كبريت جذب منها عودا وفتح العلبة الصفيح فإذا بها مادة سوداء اشبه بمرهم الاكتيول وهم بوضع عود الكبريت داخلها ليرغع بطرنه بعض ما بها ولكن شحاتة أوقفه بقوله :

ـــ ايه اللى حاتعمله ده ؟

ونظر إليه الشيخ سيد ـــ او مخزن المخدرات المتحرك ـــ بطرف عينيه شزرا وقال فى برود :

ـــ مش عايز ملوه ؟ .

ـــ هى كل اللى فى العلبه ما تجيش ملوه .. هات يا شيخ بلا قربطه .. انت مالك اليومين دول حاتموت ع الدنيا .. هات يا شيخ العلبه هات .. بلاش شغل لحوسه .

وكان الشيخ سيد أكسل من أن يدخل معه فى مناقشة ، وكان يفضل خسارة العلبة على مشقة الرفض فدفع إليه بالعلبة فى ملل وعاد إلى غيبوبته .

ووضع شحاتة العلبة بجوار الفص فى جيبه ، وبدت عليه علائم الارتياح وهمس لنفسه :

ـــ ما فاضلش غير الزبيب ؟ .

وكان الترام قد وصل إلى « عمر شاه » وبدأ فى عبور ميدان السيدة متجها إلى المدبح ، وعندما وصل إلى أبو الريش صاح الحاج سرور :

ـــ يالله يا جماعه .. احنا حاتنزل هنا وبعدين نخرم من عند سيدى الطيبى نبقى أدام بيت المرحوم .

وأجاب « شحاتة » معلقا :

ـــ مرحوم ؟ . هوا دا حايشوف الرحمه بعينه بعد ما يخبطنا المشوار من مصر عتيقه للمجاورين .

وارتجف الشيخ سيد ثم قال معلقا وهو ما زال فى غيبوبته :

ـــ وهو حايخس عليه إيه ؟ مش نايم مستريح فى الخشبه لو كان الواحد منهم يروح التربه ماشى على رجليه .. كان سكن جنب القرافة .. لكن الحق مش عليهم .. الحق على اللى يشيلهم .

وهبط الجميع من الترام ، وساروا فى زرافاتهم المتهالكة المتحاملة مخترقة شارع الطيبى متجهة إلى فم الخليج .

وطال بهم السير ولما يبد للجنازة بوادر بشائر ، وصاح شحاتة فى ضيق :

ـــ أمال بسلامته فين ؟ . مش باين له اثر .

وأجاب الحاج سرور :

ـــ أهو قرب .

ـــ مابايننش . اللى ماحد منا سمع صوات ، هو ميت وحدانى ؟

ـــ وحدانى ازاى ! . دا راجل صاحب عيله وله مركز ، ده متريش أوى .

ـــ يعنى حايدفعوا فيه كويس ؟

ـــ طبعا .

ـــ أهو دا المهم ، دى جنازته باربع جنازات ، على العموم الله يرحمه ما دام حاينفعنا .

ووصل الموكب إلى فم الخليج ، وتوقف الحاج سرور برهة يتلفت يمنة ويسرة وصاح أحدهم :

ـــ هو اسم الشارع إيه ؟ .

ـــ أظن شارع اللموناته .

ـــ طب ما نسأل .

وتقدم الحاج سرور من امراة تبيع الفول النابت جالسة أسفل شجرة وسألها :

ـــ تعرفيش يا خاله شارع اللموناته فين ؟ .

ـــ شارع إيه ؟

ـــ اللموناته .

ـــ مافيش هنا شارع بالاسم ده .

وهم سرور بالانصراف وتحرك الجميع فى أعقابه ، ولكن المرأة استرجعته متسائلة :

ـــ مافيش هنا غير شارع السكر والليمون .

وهتف سرور صائحا فى فرحة :

ـــ أهو هو .. هو السكر والليمون .

ـــ وهو شارع السكر والليمون يبقى شارع اللموناته ؟

ـــ أمال يبقى إيه .. شارع الزيت الخروع .. هو السكر والليمون حايبقى إيه غير الليموناته ؟

وحث الموكب الخطا إلى شارع السكر والليمون ولم يكد يقترب من الشارع حتى وصلت إلى مسامعهم بوادر الصراخ والعويل .

وصاح « سرور » فى فرح :

ـــ أهو هوا ده مافيش غيره .. يالله يا جماعه نظموا نفسكم ، اسمع يا ريس « عبيد » .. خد المزيكه وخليك قدام باب البيت عشان تبقى جنب الخشبه .. وانتم اترصوا على الرصيف .. يالله يا جماعه اعملو لكم همه ووزعوا نفسكم .. مش عايزين ضحك بقى ولا كلام .. خلاص احنا دخلنا ع الشغل .

وبدا « الشغل » واضحا بسرادقه الذى ازدحم فيه المشيعون والصراخ المدوى فى أرجاء الشارع ، والنعش الفارغ المجهز لحمل

الميت ، والخروف المنتظــر امام باب البيت ، والحـــانوتي والمفســل والفراشين ، والصخب والضجيج .

وسرعان ما انتظم موكب الأفندية والموسيقيين فى مواضعهم ، ولم يكن هناك شك ـــ من طريقة انتظامهم ـــ فى انهم محنكون مدربون .. فقد اتخذ كل منهم موضعه بلا ضجة ولا شوشرة ، وانقلب حالهم من مجون وهذر إلى صمت واطراق ، وغادرت ملامح الفرحة سيماهم ، وعلتها دلائل حزن عميق .. كأن الميت قد أصابهم بفجيعة ما بعـــدها فجيعة .

وهز الحاج « سرور » راسه وصاح فى حزن واسى :

ـــ دنيا !!

وكان هذا بداية حوار محفوظ يبدؤه « الحاج سرور » بهذه الكلمة ويتمم الحوار طقم الأفندية ، وكان المفروض أن يجيب « شحاتة » بقوله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .. ولكن « شحاتة » كان غائب الذهن تماما ، فقد شرد ذهنه فى أمور هى أبعد ما تكون عن الموقف الذى هو فيه ..

كان السبب المباشر فى ابعاد ذهنه هو الخروف فقد نظر إليه نظرة فاحصة ، واخذ يسائل نفسه : « أترى هذا الخروف مخصيا ؟ لا يظن فهو يبدو هزيلا أعجف ! » .

من يأتى له بالمخاصى ليرسلها إلى « أم آمنة » لتضيفها إلى بقية البهريز ؟ . ترى هل ستستطيع المرأة الضريرة أن تقوم بما طلبه منها ؟ اكثر ما يخشاه ان يفور القدر ويراق البهريز على الأرض .. حقا انها تصبح كارثة .. كان يجب أن يكون أكثر حيطة وحذرا فيقوم هو نفســه بطهو المخاصى والكلاوى .. ربنا يستر .

وكان « الحاج سرور » قد استغيب رد « شحاتة » فأخذ يحدق فيه شزرا ، ولكن « شحاتة » كان فى عالم آخر .. عالم المخاصى فصاح مجيبا على نفسه :

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم تبعته بقية الأصوات تنساب من هنا وهناك قائلة :

ـــ يا خفى الألطاف ، الطف بنا مما نخاف .

ـــ لك الأمر .. يا ولى الأمر .

ـــ هيه .. مين كان يصدق !

ـــ رحمتك يارب .

ـــ حد واخد منها حاجه !

وهكذا ظل الأفندية يتبادلون الحوار بلهجة ملؤها الحسرة ، و « شحاتة أفندى » ما زال منطلقا فى شروده ، وكان قد وصل فى تلك اللحظة إلى العطار الذى سيبتاع منه الوصفة . إنه سيحتاج إلى بعض من جوزة الطيب وعود قرح يجب أن يحصل عليهما قبل العودة إلى الدار ، أما الزبيب فيستطيع أن يشككه من الخواجه « مانولى » الخامورجى ، يجب أن يعمل حساب النقد جيدا ، انه يريد أربعين قرشا بقية حساب شرف الدين النصاب بن النصاب .. ويريد خمسة قروش للعطارة وبقية التحابيش .. اما اللحمة فيؤجل دفع ثمنها بضعة أيام ، ان الخشت رجل طيب يستطيع الانتظار . ويجب أن يكون فى جيبه على الأقل خمسة قروش فيكون كل ما يحتاجه خمسين قرشا ليس فى جيبه منها مليم واحد ، ولكنه سيحصل على مبلغ طيب من هذه الجنازة ، فالميت يبدو على سعة .

وهنا غتط تذكر الميت ، وساعد على تذكره انطلاق الأصوات على اقصاها وظهور حركة استعداد ، ثم بروز خشبة الميت من الباب ، وطرح الخروف أرضا ، وهبوط القصاب على جسده يحز عنقه ، ويريق دماءه أمام النعش .

واعتدل الأفندية فى أماكنهم وبينهم « شحاتة » ، ثم بدأت الموسيقى تصدح بأنغامها النائمة الحزينة وسارت الجنازة ، أو كما يسميها

« شحاتة » ــ الزفة ــ وبعد بضع خطوات عاد مرة أخرى إلى أفكاره الأصلية نائيا بذهنه تماما عن الجنازة وما فيها .

عزيزة نوفل !! من يصدق أنها ستكون معه بعد بضع ساعات .. اجل ، انه سيذهب للقاء « شرف الدين » الساعة الخامسة ، ويذهب معه نى التو ، لن ينتظر معه لحظة واحدة ، فهو فى غاية الشوق .. ولكن ماذا إذا لم يحضر الرجل ؟ هنا تكون الكارثة بعد كل هذا الصرف والاستعداد ، وبعد كل هذه المخاصى والكلاوى والزبيب والمنزول والحشيش وجوزة الطيب وعود القرح .. بعد كل هذا لا يحضر .. حقا إنها تكون مصيبة كبرى .. كان يجب عليه ان يأخذ منه عنوان البيت حتى يذهب هو وحده ان لم يحضر الرجل ، ما اغباه واقصر نظره ! هب ان الرجل نصاب محتال وانه أخذ نص الريال لنفسه .. ألم يكن يجب عليه من باب الاحتياط أن يأخذ العنوان ، ولكن ما قيمة العنوان ؟ الم يكن بستطيع الرجل إذا كان فى نيته الاحتيال ان يعطيه عنوانا خطأ ، لا ، لا انه يبدو عليه انه رجل جد ، هذه الشوارب المبرومة ، والمظهر الممتلىء بالشهامة لا يعقل ان يكون محتالا .

وتذكر « شحاتة » كيف بدا له « شرف » اول مرة .. وكيف أخافه بنظره ، فارتسمت على وجهه ضحكة سرعان ما أزالها عندما تذكر انه يسير فى جنازة .

ومرة أخرى عاد إلى الجنازة ليجد نفسه يسير مع الموكب فى نهاية شارع السد بالقرب من جامع السيدة ويجد الموكب يتوقف للصلاة على الفقيد فى الجامع .

ووقف شحاتة بالقرب من الجامع ينتظر خروج النعش .

ما زال امامه مرحلة كبيرة من السير .. انها جنازة مضاعفة ، انها ستتعبه كثيرا ، بينما هو فى أشد الحاجة إلى الراحة حتى يستعد لسهرة الليلة . كان يجب أن يرفض الجنازة ولكن من اين يحصل

على النقود ؟ لعنة الله على هذه الحياة لا شيء يمكن الحصول عليه فيها بسهولة .. كل شيء له ثمن من العرق والجهد .

وخرج النعش من الجامع ، ورمقه شحاتة بنظرة غيظ وهتف به : طبعا ، تستطيع أن تذهب على هذا الحال إلى جرجا ، ماذا يهمك ما دمت محمولا على الأعناق ؟ ماذا عساك ستدفع لنا بعد هذا المشوار ؟ لو دفعت خمسين قرشا فسأدعو لك بالرحمة والغفران .. خمسون قرشا هى اقصى ما احتاج إليه ، فهى تغطى جميع المصاريف ، ويبقى خمسة للبقشيش ، لو رأيت « عزيزة نوفل » لما استكثرت عليها المبلغ ولكنك مسكين لن تستطيع أن تراها .. هذا العن ما فى الموت ، انه سيحرمنا من التمتع بـ « عزيزة نوفل » وأمثالها ، لو رأيت صدرها وهو يترجرج وراء الملاءة ، ولو رأيت ردفيها وهما تتبادلان الصعود والنزول الواحدة بعد الأخرى كأنهما ارجوحة الأوزة لما استكثرت الخمسين قرشا .

وكان الموكب قد وصل إلى القلعة .. والعرق قد أخذ يتصبب من المشيعين والأفندية والموسيقيين .. ومن كل من ضمتهم الجنازة ، كان الجميع قد أعياهم الجهد عدا واحدا هو الميت المستقر فى مضجعه مستريحا أربعة وعشرين قيراطا .

واخرج شحاتة منديلا محلاويا أخذ يجفف به عرقه ، وهو يناجى الميت بقوله — مبسوط ؟ — ماذا كان عليك لو دفنت فى الإمام ! مالها قرافة الإمام ؟ ! أكان لابد وان تدفن بجوار أهلك فى المجاورين .. ماذا تظنك ملاق هناك ؟ اتظنك ستراهم وتشبع فيهم عناقا وتقبيلا ؟ !

وعبر النعش القلعة واتجه إلى المجاورين ، واخذ الطريق يضيق وقربت المسافة بين صفى الأفندية حتى استطاعوا الحديث واخذوا يتبادلون الشكوى من طول المسافة والسباب فى الميت .

ولكن واحدا منهم لم ينبس ببنت شفة ، فقد كان يسير مسبل العينين .. ناعس الطرف .. مغرقا فى غيبوبته .. وهو « الشيخ سيد

الخولى » ، أو كما يسميه شحاتة : مخزن المخدرات المتنقل ، أو كما يسميه البعض الآخر : « الشيخ سيد كيف » .

كان الرجل يسير صامتا مطرقا غير شاعر بما حوله حتى احس بالتعب فجأة فوقف فى مكانه ورفع حاجبيه فى دهش وصاح بمن حوله :

ـــ هو إيه اصله ده ، احنا ما وصلناش لسه ؟

وصاح به شحاتة :

ـــ لسه يا شيخ سيد لسه ، مشى ما تعطلش الجنازه .

ـــ أمشى ازاى .. احنا حانوصله لغاية التربه .. والا لغاية السما ؟

وجذبه أحدهم من يده وهو يصيح به :

ـــ معلهش يا شيخ سيد ، المسافه قربت .

ـــ والله ما مشى ولا خطوه .. هى مقاوله ؟

ـــ مشى ما يصحش ! عيب .

ـــ مافيش حاجه اسمها عيب ، إذا ماكانش عاجبه ينزل يمشى وأنا اقعد مطرحه .. هو إيه ؟ استكراد ؟

ولم يجد الأفندية بدا من أن يدفعوه أمامهم .. فوجد نفسه مضطرا إلى السير مرغما وهو يجر جرا ، فعلا صوته بالشكاية :

ـــ يا جماعه حرام عليكم .. انا رجليه بقبقت ، إيه أصله ده .. هى عافيه ؟

ولكن الجميع استمروا فى جذبه بالقوة ، فاضطر إلى الولولة ، وعلا صوته باكيا :

ـــ آى .. يانا آه يانا .. آه .. آه .

وسالت دموعه منهمرة من عينيه .

وفوجىء المشيعون وراء النعش بصوت البكاء يعلو من امام النعش ، واضطرب الحاج سرور لأول وهلة ، ولكنه ما لبث حتى هز رأسه فى اسى وقال :

ـــ الله يكون فى عونك يا شيخ سيد .. أصله كان يعرف المرحوم ، كان صاحبه الروح بالروح .

وأخذ الأفندية يحاولون اسكات الشيخ سيد بقولهم :

ـــ شيخ سيد .. كفايه بقى يا شيخ سيد .. عيب ما يصحش . انت راجل .

ولكن « الشيخ سيد » صاح بأعلى صوت :

ـــ أنا مش راجل ، بس سيبونى .. على الطلاق بالتلاته ما انا ماشى ، سيب ايدى منه له .

ـــ خلاص ، خلاص ، ادحنا وصلنا ، وهدى نفسك بقى بلاش عياط وفضايح قدام الناس .

وكانت الجنازة فعلا قد وصلت إلى المدفن .. وتمهل الأفندية حتى وقفوا أمام باب خشبى قد فتح على مصراعيه ، وأخذ أحد السقايين يرش أمامه بقربة على ظهره ، وبدا من خلال الباب شاهد قبر قد فتحت أمامه فتحة كبيرة مستطيلة تؤدى إلى السلم الموصل إلى المقبرة فى باطن الأرض وقد رصت بجوارها الحجارة الطويلة التى تغطى الفتحة .

ودلف القوم بالنعش إلى الداخل ، وقد التفت القوم حوله ، وعلا نحيبهم واشتد تأثرهم .. وكان « شحاتة » ينظر إلى الجسد المسجى ، وهو يقول فى نفسه :

ـــ دوختنا الله يدوخك .

وكان الشيخ « سيد » يكفكف دمعه ، وهو يقول :

ـــ لو كنت طولت شويه .. كنت حاخلى نهار أبوك زى بعضه ، ولكن ربنا ستر .

وبينما القوم منهمكون فى انزال الميت إلى داخل القبر ، وقد بلغ تأثرهم أشده ، تسرب من ورائهم بضعة أنفار كأنهم الفيران المذعورة واخذوا يهرولون ، حتى اتخذوا أماكنهم أمام القبر ، ثم افترشوا الأرض متربعين ، وانطلقت ألسنتهم بقراءة لا تكاد تفهم .

ولم يكد ينتظم عقد المقرئين ، حتى انساب رجل آخر يدفع القوم بمنكبه ومرفقيه ، وأصيب « شحاتة » منه بضربة فصاح به فى حنق :

ـــ ما تحاسب . الله يخرب بيتك . مستعجل على إيه ؟ ! هيه فته ؟

وكان منظر المقرئين الخمسة وطريقتهم فى القراءة عجبا ، كان كل منهم مخلوقا فريدا فى ذاته .. كان أولهم يلبس عمامة بلا شال ، وجبة مترية مرقعة كالحة ، وكان به حول شديد يجعل إحدى عينيه فى أقصى المقبرة ، والأخرى فى الجانب الآخر .. اما الثانى فقد اكل الجدرى وجهه حتى بدا منقرا كالغربال ، وكان يرتدى طربوشا بلا زر ، وجلبابا من الدمور ، وكان حافى القدمين .. اما الثالث فكان اعمى يقوده صبى ، وقد دخل يهرول وإياه وسط المشيعين حتى اجلسه امام القبر .. أما الرابع فهو عجوز ملىء وجهه الأسمر بالأخاديد ، وقد امسك فى يده عكازا ضخما ، ووضع على رأسه شيئا اشبه بالطرطون .. اما الخامس فكان عبدا أسود .. يشارك الآخرين فى القذارة والبهدلة .

اما طريقتهم فى القراءة فقد كانت سريعة عجلى اذ كانوا يلهثون وينهجون كأن وراءهم سياطا تتعجلهم ، وكان احدهم يقول الآية ، ثم يصمت ليلتقط أنفاسه فيكملها له الآخر ، وهكذا كانوا يقرءون بالتداول فتتلاحق الكلمات على أصواتهم النشاز .

ونظر « شحاتة » إليهم فى غيظ وقال :

ـــ بقى دى قرايه دى .

واجابه « الحاج سرور » :

ـــ يا اخى اهو كله اكل عيش .

وصدق « شاحة » على قوله بهزة من رأسه .. أجل .. معه حق ، كله اكل عيش .. لشد ما اختلفت وجهات النظر إلى هذا الميت ، ولشد ما تناقض اعتبار الناس لموته .. رآه البعض كارثة ، ورآه البعض اكل عيش .. كل شىء فى هذه الحياة لا قيمة له فى حد ذاته ..

أن قيمته فى وجهة النظر إليه ، هو من إحدى الوجهات نعمة ، ومن الأخرى نقمة .. هو من ناحية مأساة ، ومن الأخرى فكاهة .

وانتهى انزال الميت ، ورصت الحجارة فوق الفتحة ، وأغلقت المقبرة . ونظر القوم بعضهم إلى بعض نظرة أسى وحسرة كأنما قد ودعوا شيئا خالدا .

ونظر الأفندية بعضهم إلى بعض وكأنهم يقولون :

ــ لنا عودة .. اما على الأقدام أو على الأعناق .

* * *

عاد الأفندية إلى مقهاهم ، وكانت الساعة قد بلغت الثانية ، وجلس « الحاج سرور » يحاسبهم .. وعندما جاء دور « شحاتة » اتخذ مجلسه بجوار « الحاج سرور » ، وقد أخذ يفرك يديه ، ووضع على شفتيه أعرض ابتسامة .

وكان « سرور » يعرف ما وراء هذه الحركات من خسائر فمد يده بسرعة وأخرج ريالا ووضعه فى يد « شحاتة » .. وقال وهو يودعه :

ــ يالله يا عم ورينا عرض اكتافك .

ــ طب بس صبرك شويه يا حاج .. انا أصلى عايز ...

ــ ولا مليم أكتر من كده .. قوم بقى .. واحمد ربك .. ده بتاع خمس جنازات .

ــ أيوه أنا عارف ، بس عايز أقول لك ان انا مزنوق قوى ، وعايز سلفه .

ــ سلفه ؟ .. انت فاكرنى قاعد على بنك ، مش كفايه الفلوس اللى لهفتها .

ــ يا حاج احنا مالناش بركه الا انت .. يعنى لما الواحد يتعذر حايروح لمين غيرك ؟ وانت ابونا وانت امنا !

ولان قلب « الحاج سرور » فقال متصنعا الجد والغضب :

ـــ عايز كام ؟ قول !

ـــ عايز تلاتين قرش .

ـــ عايز إيه ؟

ـــ تلاتين قرش ..

ـــ ياخى جك ثلاتين عفريت لما يركبوك .

ـــ الله يحفظك .

ـــ ليه ؟ . تعمل بيهم إيه ؟ . تفتح بهم دكان ؟

ـــ لأ .. حافتح بيهم عكا .

ـــ وتسددهم ازاى ؟

ـــ يا اخى ربنا يفرجها بكام جنازه سقع زى بتاعة النهارده ، واحد كده يكون ساكن فى اسكندريه ويندفن فى اسوان .. هوا يعنى بعيده على ربنا والا بعيده على الأموات ؟

ـــ اسمع .. باختصار .. انا معييش فلوس .. خد ده وقوم ماتورنيش وشك .

ثم دفع فى يده بقطعة من ذات عشرة القروش ، ولكن « شحاتة » ردها متصنعا الغضب قائلا :

ـــ إيه ده ؟ .. خد يا شيخ .. انا باشحت منك ؟

ـــ اسمع آدى كمان نص ريال ، واذا ما كانش عاجبك .. انفلق .

ورأى « شحاتة » علامات الجد على وجه « سرور » فأخذ الريال ووضعه فوق الريال الآخر وقال للرجل :

ـــ برضك تشكر .. ربنا يخليك لنا .

ثم غادره وهو يقول لنفسه :

ـــ لسه نص ريال .. ناخده من الشيخ سيد .. يمكن ربنا يهديه .

واتجه شحاتة إلى الشيخ سيد واقترب منه قائلا بمنتهى الرفق :

ـــ ازى رجليك يا شيخ سيد ؟

ـــ زفت .

ـــ الله يجازيه .. زى ما دوخنا معاه .

ورفع « الشيخ سيد » يده إلى السماء مستمطرا الرحمات على الميت قائلا :

ـــ الله يسامحه .

واندفع فى ترديد الدعوات ، ولكن « شحاتة » لم يكن لديه وقت لمسايرته إلى النهاية ، فقاطعه قائلا وهو يميل عليه بطريقته المعروفة عند الاقتراض :

ـــ معاكش نص ريال سلف .

ولكن الشيخ سيد ادعى عدم السماع واستمر فى دعواته فصاح شحاتة به :

ـــ شيخ سيد .. معاك نص ريال سلف .

ـــ ابعد عنى يا جدع انت ، مامعييش حاجه أنا ما بسلفش .

ـــ أنا مزنوق قوى يا شيخ سيد .

ـــ مزنوق فى إيه ؟

ـــ فى واحده .

ـــ فى واحده ؟

ـــ افتكرت حاتقوللى فى تسديد دين والا فى أجرة بيت ، والا فى كلام فارغ من اللى بتقوله .. خد آدى النص ريال أهوه .. عشان تعرف ان الصدق منجى .

ـــ كتر خيرك يا شيخ سيد . طول عمرك راجل شهم .

ـــ بس اسمع .. الصدق ده .. ما ينجيش الا مره واحده .. يعنى مره تانيه .. تقول الصدق تقول الكذب ، مش حاديك نكله .. مفهوم ؟

ـــ مفهوم أوى .

وأخذ شحاتة نصف الريال ووضعه مع الأربعين قرشا . وانطلق من المقهى وهو يشعر بأقصى آيات السعادة .

وفى طريقه إلى البيت مر بحانوت الشيخ عبيد العطار ، ودخل إلى الحانوت وبعد أن أغرق صاحبه بالتحيات اقترب منه وهمس فى أذنه قائلا :

ـ عايز بنص فرنك جوزة الطيب وحتة عود قرح . وشوية تحبيشات على كيفك .. انت سيذ العارفين عايز توضيبه زى اللى بتوضبها لنفسك .

وضحك الشيخ عبيد وقال :

ـ هو احنا بقى ينفع فينا وصفات ؟ . خلاص يا شحاتة افندى خلصنا .

وأخذ الشيخ عبيد يحضر شيئا من هنا وشيئا من هناك ويدق هذا ويصحن ذاك ، ثم عمل لفافتين أعطاهما لشحاتة وهو يقول :

ـ شوف .. دى تغليها وتشرب ميتها ، ودى تعمل منها بلابيع وتاكلها ، واوعى تقول عليها لعدوك .

وتناول « شحاتة » اللفافتين وهم باخراج النقود ولكن الشيخ عبيد صاح به :

ـ خلى يا شحاته افندى .. هى دى تيجى .. دى هديه منى .. حاجه بسيطه ما تستاهلش .. بس ابقى تعالى قوللى عملت إيه .

ـ كتر خيرك .. طول عمرك راجل كريم .. السلام عليكم ..

ـ وعليكم السلام ورحمة الله .

وحمل « شحاتة » اللفافتين واتجه إلى البيت محملا بكل أدوات القتال التى سيخوض بها معركة الليل .

الفصل التاسع

قتيـــل الهـــوى

وصل « شحاتة » إلى البيت .. فوجد « أم آمنة » فى مجلسها ، ولم يكن « شوشة » و « سيد » قد وصلا إلى الدار بعد .. ولم تكد العجوز الضريرة تسمع وقع اقدامه حتى صاحت :

— ازاي ضهرك يا شحاته افندى ؟

— ضهرى .. ماله ضهرى ؟

— يوه .. ياخويه مش بتقول انه بيوجعك ، وطلبت منى اسلق شوية الحاجات اللى انت جايبهم عشان يصلبوه .

— ايوالله .. أصل الشغل بينسى الواحد كل حاجه . حتى العيا ، والله لسه برضك بينقح على .

— طب يا خويه ما تخش تستريح لك شويه ، والله ما كان حقك خرجت النهارده خالص .. العيا يحب الراحة .

— لكن اللقمه تحب التعب .

— الله يكون فى عونك .. انا عملت لك الحاجه اللى انت عايزها ، وزكيه جابت لى شويه بهارات وساعدتنى فى الطبيخ .. الهى يعدلها لك يا بنتى يا زكيه .

— هيه فين الشوربه ؟

ـــ محطوطه فى السلطنيه جوا المطبخ .. حاتاكل دلوقت والا تستناهم ؟

ـــ أنا حاشرب الشوربه واخش اتمدد .. اصلى تعبان شويه ...

ـــ طيب اما أقوم أحضرها لك .

ـــ ولا تقومى ولا تتعبى نفسك .. خليكى زى ما انت . أنا حاخش أشرب الشوربه وخلاص .

ـــ طيب بس خدلك شوية رز وشوية بدنجان مكمور دانا عاملاه مسبك وزى الزبده .

ـــ حاضر .. حاخد شويه بس خليكى مستريحه .

ودخل « شحاتة » إلى المطبخ وكان أول ما فعله هو أن رفع سلطنية البهريز إلى شفتيه وافرغ ما بها فى جوفه ثم اتى على كل ما بها من مخاصى وكلاوى ، ثم غرف بعد ذلك طبقا من الباذنجان وطبقا من الأرز فأفرغهما فى لحظات فى باطنه .. كل ذلك فى عجلة كأنه يأكل آخر زاده .. او كأنه يملأ آلة بالوقود استعدادا لعمل شاق .. ثم ما لبث ان أوقد وابور الغاز وبحث فى أرجاء المطبخ عن الهاون وأخذ يصحن فيه بعض ما أحضر من العطار ثم قدحه على الوابور فى طاسة وضع بها بعض السمن ، ثم اخذ بعد ذلك يأكل ما فى الطاسة وما فى اللفافة حتى أتى عليها ، واخيرا عاد إلى حجرته بعد أن صنع فنجانا من القهوة ، وجلس على الصحارة ثم أخرج العلبة الصفيح من جيبه وأخرج ما بها بعود من الكبريت ، وأذابه فى فنجان القهوة .

وعندما انتهى « شحاتة » من احتساء الفنجان أخرج من جيبه علبة الدخان ودفتر سجائر فنزع منه ورقة ورص بها الدخان ثم أخرج القطعة التى منحها له الشيخ سيد فكسر نصفها وفتته مع الدخان ووضع

النصف الآخر فى جيبه قائلا فى نفسه « خللى دى تنفع فى الزنقه » ثم لف السيجارة وجلس يدخنها بتمعن واستمتاع وهو ينفخ دخانها فى الهواء وما لبث ان استلقى على الصحارة وراح فى غفوة .

* * *

اقبل « شوشة » على البيت وكان أول ما فعل هو سؤاله على « شحاتة » .. فأنبأته « أم آمنة » أنه حضر وتناول الغداء وأنه آوى إلى مضجعه ليستريح من ألم بظهره .

وتوضأ « شوشة » وصلى وما لبث حتى حضر ابنه من الكتاب فتناول الاثنان الغداء مع العجوز وقد خيم على الثلاثة صمت عميق ، ولاحظت « أم آمنة » هذا الاغراق فى الصمت ، فقالت متضاحكة :

ــ خدنا على زيطة شحاته أفندى .. الأكله مابقتش تحلى من غيره .

ــ أيوالله .. كان زمانه عمال يضحك ويأرأ .. ربنا ياخد بيده .

وانتهى الثلاثة من الأكل ودخل « شوشة » إلى حجرته وانطلق « سيد » إلى صحبه تحت التوتة بجوار السبيل ، وجلست « أم آمنة » مطرقة فى أسفل السلم .

وانتصفت الساعة الرابعة وتهيأ « شوشة » للخروج ولما يستيقظ « شحاتة » بعد .

قال شوشة كأنما يحدث نفسه :

ــ مالوش عاده يتأخر كده .. لازم تعبان حقيقى .. أما أخش أشوفه .

ودخل شوشة الحجرة مسترقا الخطا حتى لا يحدث ضجة تقلق الرجل ووقف بجوار الصحارة التى رقد عليها وكان قد تعود أن يكور نفسه واضعا ركبتيه قرب ذقنه لقصر الصحارة ، وكان فى رقدته معطيا وجهه للحائط .

وهتف شوشة مناديا الرجل فى صوت رقيق :

ــ شحاته .. شحاته ..

ولكن الرجل لم يستيقظ فمد يده واخذ يربت على ظهره برفق قائلا :

ــ شحاتة .. انت حاسس بتعب ؟

ولم يجب الرجل ، واحس « شوشة » فى جسده برودة غير طبيعية فمد يده يتحسس جبينه فسرت إليه قشعريرة ، ولاحظ بالرجل سكوتا عن التنفس ، وما لبث حتى ادرك أن ما أمامه ، هو مجرد جسد .. بلا روح ولا نفس ولا حياة .

اجل ، لقد مات مشيع الجنازات ، والساخر من الأموات .

وذعر « شوشة » ذعرا شديدا .. فقد كانت المسألة مفاجأة كبرى .. وكان آخر ما يخطر له على بال .. ان يجد الرجل ميتا .

ومضت لحظة والرجل واجم فى مكانه من وقع المفاجأة لا يدرى ماذا يفعل ، واخيرا بدأ يفيق لنفسه فكان اول ما فعل هو ان هرول إلى ام آمنة فصاح بها فى صوت يخنقه البكاء :

ــ ام آمنة .

ــ نعم يا ابنى .

ــ شحاته افندى مات .

وشهقت المراة وصاحت فى فزع :

ــ مات .. يا ندامه .. مات ازاى .. دا لسه كان واقف قدامى على رجليه .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم استغرقت فى الإجهاش بالبكاء .

وعاد « شوشة » إلى حجرته فانتزع ملاءة بيضاء وسار متثاقلا إلى حجرة شحاتة .. ففرش الملاءة فوق الجثة ، ونفذت إلى انفه رائحة التدخين . فوقف يفكر قليلا ثم ما لبث ان اقترب من الجسد واخذ فى

تفتيشه وأخرج النقود فوضعها فى جيبه وقذف بالقطعة التى تبقت من التدخين إلى المرحاض وهو يقول فى تأثر :

ـــ يعنى كان عليك من ده بايه .. الله يرحمك .. انت اللى قضيت على نفسك .

وانتشر النبأ بين أهل الدار ، ثم فى الدرب ، وبدأ الجيران يتوافدون على الدار للمساعدة أو للاستطلاع أو للعزاء .

وعندما اقبل الليل استأجر « شوشة » كلوبا فوضعه على باب البيت وصف بضعة مقاعد فى الفناء وأمام الدار وتطوع فقيه من سكان الدرب بالقراءة ، وكان « سيد » وصحبه يجلسون على حجر السبيل وقد أصابهم الوجوم وخيم عليهم الصمت وأخذ كل منهم يقوم بواجب العزاء نحو « سيد » الذى بدا عليه الذهول والفزع .. فقد كانت المرة الأولى أن يشاهد ميتا ، وكان لا يكاد يصدق أن شحاتة قد ذهب حقا إلى غير رجعة ، وأنه لن يراه بعد ذلك .

وأخيرا انفض المأتم وانصرف المعزون وانطفأ الكلوب وساد السكون الدار وأوى « سيد » إلى مضجعه بين أحضان « أم آمنـــة » وجلس « شوشة » على فراشه يرنو إلى النجوم المسهدة وخيل إليه أنه يسمع فى سكون الليل صوت الناى الحزين وأحس بالدموع تخنقه فأجهش بالبكاء .

وأخيرا وبعد أن أفرغ مدامعه هز رأسه فى حسرة وأسى وقـــال لنفسه :

ـــ كل شىء إلى نهاية .. كلنا نعرف ذلك ، ولكن المصيبة أننا لا نعرف متى النهاية .. ولو عرفناها لكنا فى استقبالها أكثر شجاعة . ان الحياة حقيرة ، ولكننا من نفس معدنها .. كيف نعرض عنها ونحن أشد حقارة .. يا مشيع الموتى ما كان أقدرك على كشف الأحياء .. تالله ما سمعت أصدق من قولك : ليس هناك أحقر من البشر ولا أغفل .

اهناك اشد غفلة من مخلوق يغفل عن نهايته ؟ . أهناك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يهيىء نفسه لها ؟ . رحمة الله عليك .. فقد كنت على حكمتك أشد البشر غفلة .

وامضى « شوشة » ليلته وهو جالس فى مضجعه يرقب النجوم ، شارد الذهن .. منقبض النفس .. يكاد يحس بشبح الموت يجثم فى كل ركن من أركان الدار ، ويشم ريحه فى كل نسمة تطوف باركانه .. ويسمع صوته فى كل قطة تموء او كلب يعوى .

الموت .. الموت .. الموت .

ماله يعبث بنا كل هذا العبث ؟ ! ماله لا ينقض فيريحنا من عناء الانتظار !! ماله يتركنا حيارى ضالين نحس به ولا نراه ، نوقن من وجوده .. ولا نوقن من حدوثه !! ماله يبدو كالشبح أو الوهم .. وهو حقيقة واقعة !! ماله يقبل متخفيا مستترا فلا نراه إلا وقد أطبق علينا ، وهو ابعد ما نتوقع !

ايها الموت .. انت نذل جبان .. لا تأخذ إلا على غرة .. تبدو بعيدا نائيا .. وانت كامن وراء تلك السكين أو هذه العصا ، أو اسفل هذه النافذة ، أو فى تلك اللقمة .

اظهر لنا ايها الموت ، فإننا لا نخشاك .. ولكننا نخشى مفاجاتك .. نخشى نذالتك وجبنك ، نخشى طرقك البهلوانية ووسائلك المسرحية .

تعال ايها الموت وارحنا من سخافات الحياة .. انت نومة لا اكثر ولا اقل .. انت لا شيء .. سوى فاصل بين احساس ولا احساس .. اقبل علينا فانت منجينا حتى من خوفنا منك .. فمن بعدك السلامة منك ومن وهمك ، ومن خشية انتظارك .. اقبل فليس مثلك شفاء للنفس الواعية المدركة بحقيقة الخليقة العارفة بزيف قيمتها وتفاهة حصيلتها .

أيها الموت .. اقبل .. ولكنك أنذل من ان تجيب إذا ما دعاك

داع .. انك لا تقبل إلا بلا دعوة .. تقبل حيث لا تطلب .. وتعرض عند الحاجة إليك .

* * *

وبدأ نور الفجر يتسلل من الظلمات ، و « شوشة » ما زال فى موضعه ، مفتوح العينين ، شارد الذهن ، ولم يكد يسمع اذان الفجر حتى نهض من مكانه متثاقلا ، فتوضأ وصلى .. ثم ذهب إلى « أم آمنة » فوجدها جالسة فى الحجرة بجوار سيد ، وعندما سمعت وقع خطوات شوشة رفعت رأسها متسائلة :

ـ يابنى صاحى ليه من النجمه ؟

ـ انا ما شفتش النوم ..

ـ ولا انا . حاسه انه حايقوم ويضحك زى عوايده . كان راجل امير .. الله يرحمه .

ـ الله يرحمنا جميعا .. انا خارج عشان أجيب الخشبه والمغسل والكفن .. انا وصيت عليهم من امبارح .. أما أروح استعجلهم .. عشان نخلص من الدفنه ، ونشوف أشغالنا .

ـ هوا انت حاتلاقى حد صحى ؟

ـ أنا قايل لهم ان انا حاجلهم بدرى .

ـ طيب يابنى البركه فيك .. ربنا يبعد عنك السوء .

وخرج شوشة يتلمس طريقه فى الضوء الباهت ، ولم يغب عن الدار أكثر من نصف ساعة عاد بعدها ومعه ثلاثة رجال أخذ اثنان فى تغسيل الميت ولفه فى الكفن ، وكان شوشة يشعر فى أول الأمر بخشية من الدخول فى حجرة الميت ومن لمس الجثة .. ولكنه تذكر قول صاحبها عن الأموات ، وعن احتقاره للموت ، واستخفافه بالجثث .

ألم يقل له ان شعوره عند الامساك بميت لا يزيد على شعوره

عندما يحمل فخذة خروف أو اوزة مذبوحة ؟ الم يقل له ان كليهما جسد ميت من لحم وعظم ؟

وهكذا أزال شوشة من نفسه الخوف والوهم وجلس مع الرجلين يساعدهما فى التغسيل واللف فى الأكفان حتى انتهت المهمة .. ثم حملوه فوضعوه داخل النعش ، وكان قرص الشمس قد بدأ يظهر ، وقد نزل المعلم خشت من الدور العلوى لأداء الواجب وتشييع الجنازة ، ووقف فى فناء البيت ، وهو يهز رأسه أسفا ، ويستمطر الفقيد الرحمة وهو يقول :

ـــ يا جماعه الراجل كان عندى امبارح صاغ سليم .. كان زى البمب .. نصبح النهارده نشيع جنازته ، اخص عليها دنيا غروره بنت كلب .

وانتهى اعداد الجنازة بسرعة ، وحمل الرجال الثلاثة النعش واستعدوا للسير ، وتلفت شوشة حوله فلم يجد سوى واحد هو المعلم خشت ، وهز رأسه أسفا ، وجاهد ليقاوم نوبة من البكاء امسكت بتلابيبه .. وحدث نفسه فى أسى :

ـــ أهذه جنازة مشيع الجنازات ؟ ابعد كل هذه الزفف التى اشترك فيها يحمل إلى مثواه بلا ناع ولا باك ولا حفل ولا موكب ؟ . ابعد طول تزيينه لجنازات الغير بالمناقد والمجامر ، تخرج جنازته خاوية خالية ؟

وهم حاملو النعش بالمسير عندما خطرت بباله فكرة طارئة هتف على اثرها بالرجال « قفوا » ، ثم قفز إلى داخل الدار ، ودخل إلى حجرة الصحارة ، وامسك بصرة « شحاتة » ففكها وأخرج منها عدة الشغل كما كان يسميها صاحبها .. وامسك بالبدلة بيد مرتجفة ، ثم وضع ساقيه فى البنطلون ، وحشر الجلباب داخله ، ثم ارتدى الجاكتة بسرعة فوق الجلباب ووضع الطربوش على رأسه ، ولف الفوطة الحمراء المخططة حول وسطه ، وامسك بالمجمرة فى يده ، واندفع مهرولا إلى الخارج .

وكان « سيد » قد استيقظ ، فبهت وهو يرى أباه فى هذا المنظر العجيب وصاح متسائلا :

ـــ إيه ده يابا ؟

ـــ ولا حاجه .. روح انت الكتاب بتاعك ، انا رايح أوصل شحاته افندى .

وخرج شوشة إلى الطريق بمنظره هذا فذهل المعلم خشت والرجال الثلاثة الذين حملوا النعش ، وقال « شوشة » مفسرا عمله :

ـــ لا مؤاخذه يا جماعه لازم نكرم الراجل شويه .. دا طول عمره واخد على الجنازات الأبهة .. وطباخ السم بيدوقه .. ياللا بينا .

وتحركت الجنازة المكونة من الرجال الستة : «شوشة » بالبدلة السوداء والمجمرة يسير فى الأمام ، والرجال الثلاثة يحملون النعش و « الخشت » يسير وراءه .. وسادسهم « شحاتة » مسجى داخل النعش .. ولم تكد الجنازة تعبر درب القط حتى برز من إحدى الحارات « حسين القرداتى » بالرق فى يده والمعزة والقرد .. فلم يكد يرى « شوشة » والجنازة حتى سمر فى مكانه وصاح :

ـــ إيه ده ؟ إيه اللى جرا يا معلم شوشة ؟

ـــ البقية فى حياتك .

ـــ فى مين ؟

ـــ شحاتة افندى مات .

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهجم حسين على النعش فأزاح أحد حامليه .. وحل محله فى حمل النعش وهو يقول :

ـــ عنك اجرنى .

وعاودت الجنازة سيرها .. وقد زاد فيها مشيعان .. المعزة ، والقرد .

وسار الموكب الجنائزى فى « درب عجور » .. وظل المشيعون

يزدادون واحدا بعد واحد كلما مر بجار ، أو صديق ، فلم يبلغ مقابر باب النصر حتى كان يسير وراء النعش جمع كثير من اهل الحى .

وكان شوشة قد أوصى اللحاد ليلة امس بأن يعد المقبرة لاستلام زائر جديد ، فلم تكد تشرف الجنازة على مقبرة المعلم شوشة حتى كانت قد فغرت فاها ، وبدا جوفها المظلم معدا لاستلام الضيف المقبل .

وسرت فى جسد « شوشة » قشعريرة ، وهو يرى الفتحة المظلمة ، وعاوده خوفه المتأصل من القبور والموتى .. وهم بالتراجع والابتعاد .. ولكنه تذكر الحديث الذى أسره إليه شحاتة فى الليلة السابقة .. وخيل إليه أنه يعاود همسه قائلا :

ـــ « لقد بدأت أتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسها .. لقد فعلت هذا .. لأنى عزمت أن أهزم فى نفسى كل خوف من الموت ، أو رهبة له كشىء مروع .. وهكذا تعودت أن انزل الأموات إلى المقابر .. واصبحت بذلك رجلا شجاعا .. بل أصبحت اشجع رجل فى العالم ؛ لقد بت أحتقر الموت .. واحتقر اكثر منه .. الإنسان » .

واحس انه يود هو الآخر لو هزم فى نفسه رهبة الموت وكشفه على حقيقته ، وتعوده كمسألة عادية متكررة الوقوع .

وبيد مستميتة أقبل على النعش ، فرفع غطاءه ، وصاح باللحاد :

ـــ هه .. كل حاجه جاهزه ؟

ـــ أيوه يا معلم .. عنك انت .

ـــ شيل معايا شيل .

ودفع بكلتا يديه إلى داخل النعش فأمسك بالجثة من كتفيها .. وسرت إليه من برودتها رجفة هزته من أخمصه إلى قمته ، ولكنه همس لنفسه « لا تخش شيئا .. انها لحمة ميت .. انها كفخذة الخروف او كالأوزة المذبوحة » .

وزاد اطباقه بأصابعه على كتفى الجثة .. كانت معركة بينه وبين رهبة الموت .. ولقد صمم على الانتصار .

أيها الموت .. انت تافه .. انك شيء لا وجود لك .. انها نهايتنا نحن .. لقد انتقلنا من الوجود إلى العدم .. كنا بالأمس ، فأصبحنا اليوم شيئا غير كائن . ما دخلك أنت تقحم نفسك وتخلق لك وجودا وكيانا ، وتفرض لنفسك سيطرة وسلطانا ، وتكسو نفسك الرهبة والروعة .. وانت فى حد ذاتك .. لا شيء .

ما هذه الرهبة التى أحطت بها بقايانا من عظام رميم ، انها مخلفات جامدة .. انها أنقاض لم تعد لنا بها صلة .. انها مواد فانية متحللة .. لا فارق بينها وبين أنقاض الدور وبقايا الأثاثات القديمة .. كلها صائر إلى رماد .. فعلام إذن الرهبة ولم الخشية ؟

وهبط شوشة بالجثة إلى باطن الأرض وهو فى نضاله العجيب محاولا قهر أوهام الموت .. حتى انتهى من آخر الدرج ، وبدأ يتحرك فى الداخل ، وقد أغشت عينيه الظلمة الجاثمة ، وصدمت وجهه برودة ثقيلة ونفذت إلى خياشيمه رائحة عفنة .

ولم يكد يسير خطواته الأولى داخل القبر حتى صدمت قدمه شيئا صلبا ، ونتج من الصدام قرعة أشبه بقرع الطبل واخذ الشيء المصدوم يتدحرج على الأرض ، فلم يعد هناك شك فى ان الشيء المصدوم جمجمة ميت .

وكانت قرعة شوشة للجمجمة هى دقة الهزيمة .. لقد انهار الرجل تماما .. وجثا بالميت على الأرض .. ودفن رأسه بين كفيه واندفع فى نحيب حاد .

ــ لا .. لا .. ليست هذه العظام انقاضا كأنقاض الدمن ، انها قد تكون كذلك .. لو لم يكن فى صدورنا فؤاد يخفق وقلب يدق وينبض .. اما وهذه تكمن فى حنايانا .. فما أعز البقايا وما اكرم الأنقاض .. انها آثار عزيز غاب ، ودلائل حبيب فقد .

أيخفق القلب لشيء غير ملموس ؟ .. لرائحة سارية ؟ .. او لذكرى

عابرة .. ؟ ولا يخفق لبقية ملموسة ضمها الثرى ، وأثر محسوس حوته الأرض .

وأسرع الرجال بوضع الجثة فى مكانها واخراج « شوشة » من المقبرة وقد انهارت مقاومته وتحطمت أعصابه .

وسرعان ما أغلق القبر وقرأ القوم الفاتحة مترحمين على الفقيد ، ثم انصرفوا إلى سبيلهم ، وعاد « شوشة » إلى البيت فأبدل ملابسه وهو ساهم واجم ثم خرج إلى عمله بعد أن خرج من الصراع بهزيمة مريرة .

قاتل الله ذلك الساكن فى الضلوع ، لقد خذله شر خذلان وكان السبب فى كل ما حاق به من هزيمة وما أصابه من انهيار .

***

عاد « شوشة » فى الظهر إلى داره ولم يتناول إلا قليلا من الطعام ، وكان سكون الموت ما زال يجثم على الدار ، وكان يشعر بتثاقل فى أطرافه وانهاك فى جسده ، ولكنه لم يرد أن يستسلم لآثار الهزيمة ، فخرج بعد الصلاة لتصريف شئونه والذهاب إلى المقهى ، ومر بعد ذلك يومان عاد كل شىء خلالهما إلى طبيعته فى الدار ، وعاد « سيد » إلى لهوه ، وشوشة إلى جلسته فى الليل ، وأم آمنة إلى قبوعها فى الفناء ، ولم يعد هناك أثر لشحاتة إلا تلك الصرة المنزوية فوق الصحارة .

وفى ظهر ذات يوم وقد عاد « شوشة » من عمله وانتهى من الصلاة سمع طرقا على الباب فقام ليرى الطارق فإذا به عجوز يرتدى جلبابا وطربوشا ولم يصعب على « شوشة » أن يميز فيه أحد أولئك الأفندية زملاء « شحاتة » الذين كانت تكتظ بهم قهوة الأفندية .

واكد سؤال الرجل ظن « شوشة » فقد تساءل قائلا :

ـــ هى دى شقة شحاته أفندى ؟

ــ أيوه هيه .

ــ أمال هوا فين بقاله يومين غايب عن القهوه ؟ .. والشغل كابس اليومين دول والمعلم محتاج له .

ــ شحاته افندى .. تعيش انت .

ــ بتقول إيه ؟

ــ تعيش انت .

وصاح الرجل فى دهشة بالغة وحزن ظاهر :

ــ مش ممكن .. حاجه ما تعقلش .. آخر مره شفناه كان زى البمب لا بيه ولا عليه .. كان ماشى فى آخر جنازه زى الحصان الاسترالى .. هو الوحيد اللى ما شتكاش م المشوار .. كان ماشى طول الجنازه يضحك ويهزأ .

ــ اللى حصل .. الموت مابيرحمش .

ــ حاجه غريبه ! الله يرحمك يا شحاته افندى .. كان راجل امير زى السكره عمره ما زعل حد ولا عاب فى حد .. طول النهار قاعد يغنى ويضحك .. الله يرحمه .. والله يا شيخ زعلتنى ونكدت على ...

واستمر الرجل فى وقفته على الباب ، ولم يجد « شوشة » ان هناك شيئا يقال ، ولكنه كذلك لم يستطع أن يطرد الرجل فدعاه إلى الدخول من باب المجاملة قائلا :

ــ ما تتفضل تستريح شويه !! خش اشرب لك فنجان قهوه ...

ــ كتر خيرك . أمال حضرتك تقرب له إيه ! أنا فاكر ان أنا شفتك معاه مره فى القهوه ؟

ــ والله معرفه عزيزه قوى .. كنا زى الاخوات .

ــ انعم واكرم .. أنا محسوبك هلال خلف الله هلال زميل المرحوم .

ــ اهلا وسهلا .

واستمر الرجل واقفا فى مكانه لا يدخل ولا ينصرف حتى بدا « شوشة » يقلق ، واخيرا قال الرجل متسائلا :

ــ وبعدين ؟ إيه العمل دلوقت ؟

ــ فى إيه ؟

ــ فى أزمة الأنفار اللى احنا فيها .. الأفنديه مش ملاحقين على الجنازات .. الشغل حمى خالص .

وهز « شوشة » كتفيه مظهرا أسف العاجز الذى لا يملك حلا .. واستمر الرجل فى قوله :

ــ وكنا معتمدين على « شحاتة » ييجى معانا .. اهو خلى بينا .. إيه العمل دلوقت ؟

واستمر « شوشة » فى اظهار أسفه الصامت ، فقد كان الجواب فى غير دائرة قدرته ، وكان سؤال الرجل له غير ذى جدوى ومع ذلك فقد استمر الرجل الملحاح فى حديثه قائلا :

ــ حاجه تحير .. إذا لقينا النفر مش حانلاقى البدله .

وهنا فقط أحس « شوشة » أن المسألة دخلت فى دائرة قدرته وانه يستطيع أن يساهم فى حلها .. فعدة الشغل الخاصة بشحاتة افندى موجودة كما هى فى صرتها ، وهو لا يظن ان احدا فى هذه الدار يمكن أن يحتاجها ، ولذا فإن خير ما يفعله هو أن يعطيها لهم بأى ثمن .. فهم وحدهم الذين يستطيعون استغلالها .

وقال شوشة مبشرا الرجل :

ــ إذا كان على البدله .. البدله موجوده .. هى والفوطه والمجمره .. كل حاجه موجوده بحالها زى ماهيه .

وصاح الرجل فى لهفة :

ــ أيوالله . صحيح . الله يسترك . لكن مين حايلبسها ؟

ــ انت مش بتقول ان الأنفار موجودين .

ــ أيوه .. لكن فين دلوقت حلاقيهم .. الجنازه فاضل لها حسبة نص ساعه .

وعاد الرجل إلى إطراقه وحيرته ، ولكنه ما لبث حتى رفع رأسه متسائلا :

ــ اسمع .. ما تيجى انت معايا .

وكان السؤال مفاجئا لشوشة فقد كان آخر ما ينتظر ، فأجاب متلعثما :

ــ انا ؟ . آجى معاك ؟ . لكن انا ماليش فى الشغلانه دى ؟ ...

ــ يعنى إيه مالكش فى الشغلانه دى ! ؟ هى دى شغلانه .. البدله مش تيجى على قدك ؟

وكان شوشة يعرف الرد فقد سبق له إرتداؤها فأجاب بلا تفكير :

ــ ايوه على ادى .

ــ خلاص .. انتهينا .. الحكايه كلها مش عايزه غير انك تلبس البدله ، وتمشى معانا قدام الخشبه ، وفى آخر المشوار تنقح لك اللى فيه القسمه إذا كان شلن والا نص ريال ، وإذا كانت الجنازه حاره والميت سقع .. يمكن توصل لريال .. خش يا شيخ بلا وسوسه .. دا رزق ربنا بعتولك .. حد يرفض الرزق ؟ ياالله بلا بطر ؟

وكان ذهن شوشة يعمل فى سرعة .. كان يفكر فى المسألة من وجهة نظر اخرى .. كان يفكر فيها على انها فرصة أخرى لدخول معركة ثانية مع الموت ورهبته .. لقد خسر الجولة الأولى ، وها هى تسنح له الفرصة لجولة ثانية وثالثة ورابعة .. إن الزمن معه وهو لا شك منتصر . انها ــ كما قال شحاتة ــ مسألة تعود لا اقل ولا اكثر ، وليس هناك فرصة خير من هذه لقهر الموت .

وفى لمح البصر كان شوشة قد حمل الصرة وسار مع الرجل إلى قهوة لفنديه ، وعندما وصل إلى هناك كان النشاط على اشده والمقهى والحانوت كخلية النحل ، ولم يكد الحاج سرور يرى هلال خلف الله هلال حتى صاح به :

ــ أمال فين شحاته النحس ؟

— سبقنا .

— على فين ؟

— على المقر الأخير .. على الذى لابد منه .

— يعنى إيه ؟

— على القرافه .

— راح لوحده كده ؟

— طبعا .. امال يعنى راح بزفه ؟

— يا جدع اتكلم جد .. حايرجع امتى ؟

— ماهوش راجع .

— مش راجع ازاى ؟

— زى الناس . أصله راح راكب . قطع ذهاب بلا اياب .

— قصدك تقول انه مسافر ؟

— حاجه زى كده .

— يعنى إيه حاجه زى كده ؟

— يعنى مات .

— مات !! بتتكلم جد ؟

— وهى الحاجات دى فيها هزار يا حاج .. شحاته افندى مات وشبع موت .. البركه فيك .

ولم يكد يسمع القوم النبأ حتى تصايحوا فى دهشة : « مات ؟ » ، « مات ازاى ؟ » ، « الله يرحمك يا عم شحاته » ، « يا ساتر يارب » ، « قال يا ريحين يكفيكو شر الجايين » ، « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وعندما هدأت التعليقات صاح الحاج سرور بهلال :

— وبعدين ؟ والعمل إيه دلوقت ؟

— ولا يهمك .. جبت لك نفر بداله .. حايلبس بدلته ويمشى مطرحه .

— أنا مش قصدى كده .

ــ امال قصدك على إيه ؟

ــ قصدى ع الاربعين قرش اللى مسلفهم له .. ريالين مشنيرين .. ريال يخبط ريال .. يا خسارة الفلوس .. أنا كان قلبى حاسس انهم حايضيعوا .

وكان شوشة قد وقف فى هذا الوسط العجيب يرقب الحوار ويستمع إلى التعليقات ، فلم يكد يسمع حسرة الرجل على دينه الضائع حتى قال له فى هدوء :

ــ ما تخافش على فلوسك يا حاج .. المرحوم ما كانش ياكل مال حد ابدا .

ــ ما كانش إيه ؟ الظاهر انك ما تعرفوش كويس ؟ .. دا كان ياكل مال النبى .

ــ ماتقولش كده . عيب ... الأربعين قرش بتوعك أهم ..

ثم أخرج كيس النقود واعطى الريالين لصاحبهما وحدق الحاج سرور فى الريالين دهشا :

ــ عجيبه ! دول هم الريالين بتوعى .. الله يرحمك يا شحاته افندى .. الظاهر انه مالحقش يصرفهم .

وكان مخزن المخدرات قابعا فى إحدى الزوايا وقد راح وسط هذا الضجيج فى غيبوبته ، ولكن يبدو أن رشاشا من الحديث قد نفذ إلى مسامعه وأنه أدرك ما حدث ، فقد اهتز جفناه ، ثم صاح بصوته المتحشرج دون أن يوجه احد الحديث إليه :

ــ النص ريال بتاعى مانيش عايزه ، ولا حتــة المنزول وفص الحشيش خليهم رحمه ونور على روح المرحوم .

ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال داعيا :

ــ ارحمه يارب .. حقيقى كان بتاع نسوان ، وفلاتى ، وخباص وهلاس .. لكن برضك احسن من ولاد الكلب السفله دول كلهم ..

طيب وامير وعمره ما أذى حد ، ولا عاب فى خد .. ولا تسبب فى ضرر حـد .

وامن « شـوشـة » على قول « الشيخ سيد » بقوله :

ــ معاك حق .. كان قلبه أبيض زى حتة البفته .

ولم يرد « الشيخ سيد » على « شـوشـة » بل استمر موجها قوله إلى الله :

ــ وانت عايز إيه من العبد غير انه ما يضرش أخوه ، إيه يضايقك من انه يشبرق نفسه ويشوف كيفه ؟ .. وإيه يفيدك من حرمانه من نعمك ؟ .. ارحمه يارب ، وارحمنا معاه .. احنا عبيدك الغلابه .

وعلا صوت « الحاج سرور » مقاطعا « الشيخ سيد » ، صائحا « بشوشـة » :

ــ يالله ياسيدنا خش البس . مستنى إيه ؟ معندناش وقت .

وسرعان ما جذبه هلال إلى الحانوت قائلا له :

ــ تعرف تلبس والا لأ ؟

ــ أعرف البس الجاكتة والبنطلون .. بس القميص والبتاعه السوده دى مالبستهاش قبل كده .

ــ طب خش انا السك .

وبعد بضع دقائق كان « شـوشـة » يغادر الحانوت .. وقد ارتدى الطقم الكامل .. وهلال وراءه يصفق بيديه طربا ويصيح :

ــ حلو .. اللى يشوفك يقول افندى أصيل .. أفندى ابن أفندى .. هات الطربوش لقدام شـــوية .. ما تقصـــعوش لورا كده زى المصبجيه .. أيوه كده .

ثم صاح « هلال » سائلا « الحاج سرور » :

ــ احنا حانروح انهى جنازه يا حاج ؟

ــ جنازة الجماليه .. حنقوم من الجماليه ع المجاورين .. يالله اعملولكو همه .. انا حاوصل لجنازة الكحكيين .. اودى الطقـم

وحاحصلكو على هناك .. مش عايز لخبطه .. خد بالك من النفر الجديد .. لحسن يعمل حاجه كده ولا كده .

ــ ما تخافش . خليه على .

وتحرك « شوشة » وسط الجمع يحثون الخطا فى شارع الخليج متجهين إلى شارع أمير الجيوش ، ثم إلى الجمالية حتى وصلوا إلى بيت الميت .. ووقف « شوشة » يرقب المعزين ، ويرقب الاستعداد للجنازة ، وقد بدا ماخوذا بما حوله ، واجم الوجه ، شارد الذهن ، ولم تترك له غرابة الموقف فرصة للتفكير فى الميت ذاته ، ولا الرثاء له ، والعطف عليه .. فقد كان مشدوها من ضجيج المظاهرة ، وكانت مشاعره فى حالة تبلد وجمود .

واستمر به هذا التبلد والجمود حتى أخذ الميت يهبط من درج البيت وانطلقت الأصوات تشق أجواز الفضاء .. وبدت وهى تنطلق تكاد تنتزع قلوب مطلقيها .. وهنا أصابته رجفة شديدة جعلته ينتفض فى حلته كأنه « العصفور بلله القطر » .. ثم لاح النعش .. نعش قد لف فى الحرير الأبيض ، دلالة على أن صاحبته سيدة شابة .. فلم يكد تقع عليه عينا « شوشة » حتى أصابه ما أصابه عندما طرقت قدمه الجمجمة من أول جولة .. فقد انهار تماما ، واندفع فى نوبة بكاء عنيف .

وكان التأثير المباشر لنوبة البكاء التى أصابته ، نوبة ضحك أصابت بقية الزملاء ، فقد كانت نظرتهم إليه ، وهو مندفع فى البكاء نظرة كل محترف متمكن فى مهنته إلى مستجد غشيم يبدأ المهنة لأول مرة فيندفع فى حماقة ، يسببها جهله ، وقلة درايته ، وضعف احتماله .

وقال له « هلال » مهدئا :

ــ كفايه بقى يا سى شوشه .. خلى شويه للجنازه الجايه لسه قدامك مناحات كتير .. انت بالطريقه دى حاتخلص فى جنازتين تلاته .. وبعدين حاتدور انت على اللى يعيط عليك .. اتقل بقى يا جدع اتقل ..

بلاش شغل هبل ، كفايه تبص فى الأرض وتعمل نفسك زعلان .

وقال الشيخ سيد متسائلا :

ـــ انت يا جدع بتعيط على إيه ، على الميت ، ولا على المشوار اللى حاترقعه ؟

واجاب هلال :

ـــ الميت .

ـــ ميت ؟ ليه ؟ تعيط عليه ليه ؟ جعان ، والا عطشان ، والا عريان ، والا بردان .. والا تعبان .. والا موجوع . ما هو نايم اربعه وعشرين قيراط .. ده هوا اللى حقه يعيط علينا . طب على الطلاق بالتلاته يوم ما أرقد الرقده دى .. لابص من الخشبه واطلع لسانى للمغفلين اللى بيعيطوا عليه . آل بيعيط على الميت آل .. ليه هى الحكايه انقلبت ؟ فيه ماشى يعيط على راكب ؟ فيه محتاج يعيط على اللى مش محتاج ؟ .. فيه متألم يعيط على اللى ما يتألمش ؟ يا ناس اعقلوا . ما تضحكوش علينا الأموات .

وبدأت الجنازة فى السير واتخذ شوشة مكانه فى طابور الأفندية .. ووصلوا إلى المدافن وواروا الميت التراب .. وعاد شوشة مع الجمع إلى المقهى فأبدل ثيابه وقبض الأجر ثم عاد إلى البيت مطرق الراس ، احمر العينين وارم الأنف .

لقد انتهت الجولة الثانية بهزيمة أخرى .

* * *

وصل شوشة إلى البيت مع وصول الظلام ، وتلقاه ابنه سيد وهو يعدو من آخر الدرب قافزا متواثبا وهو يصيح :

ـــ آبا .. المعلم خشت سال عليك تلات أربع مرات ، وقال لى اول ما تيجى من بره أقول لك عشان يقابلك .

وقبل أن يجيب الأب كان الصبى قد لاحظ الصرة فى يده وعلامات التعب واثار البكاء فتساءل فى دهشة :

ـــ الله .. إيه ده يابا .. كنت فين ؟

ـــ كنت فى مشوار كده .

ـــ وزعلان ليه ؟

وتضاحك شوشة قائلا :

ـــ مش زعلان ولا حاجه .. خد القرش ده اشترى به حاجه .

ولكن « سيد » لم يتقبل القرش بما يجب من ترحيب وحماس .. بل أطبق عليه بين أصابعه .. وكأنه يطبق على حصاة لا قيمة لها .

كان الصبى يحب أباه .. ولشد ما كان يضايقه أن يراه حزينا موجعا .

وهم الصبى بسؤال ، ولكن شوشة لم يعطه الفرصة وصرفه قائلا :

ـــ يالله يا سيد اجرى قول للمعلم خشت ان أنا جيت ، وخليه يتفضل .

وعدا « سيد » صاعدا إلى الدور العلوى ليبلغ الرسالة ، ودخل شوشة إلى الشقة فتوضأ وصلى ثم جلس ينتظر المعلم خشت .

وبعد لحظة سمع وقع أقدامه البطيئة المتهادية فنهض لاستقباله مرحبا وقد كسا وجهه ما استطاع من علامات البشاشة والسرور :

ـــ أهلا .. وسهلا .. أهلا أهلا .. اتفضل يا معلم .

ـــ ازيك يا معلم شوشه .. ازاى الحال !

ـــ رضا .. أهى ماشيه .

وجلس « المعلم محمود » على الأريكة فأصدرت ترقعة وطقطقة ثم استقرت فى النهاية مستسلمة إلى حملها ، وجلس « شوشة » على مقعد خشبى واطىء وهو مستمر فى ألفاظ الترحيب ، ولمح « سيد » وهو يهبط إلى الفناء فصاح به :

ـــ واد يا سيد .. اوصل هات قزازة كازوزه من على باب الحارة .

واصدر الخشنت بعض ألفاظ التمنع مثل « مافيش لزوم » و « ليه التعب ده » ؛ ولكن « سيد » كان قد انطلق ينفذ الأمر .. وما لبث

حتى عاد حاملا زجاجة الكازوزة .. ودلف إلى المطبخ ثم افرغ جزءا منها في كوب صغير وشرب بقية الزجاجة ، ثم حمل الكوب في صينية صدئة إلى الضيف ، ثم وقف ينتظر حتى شرب الرجل معظم ما في الكوب .. وعاد به ثانية إلى المطبخ فجرع ما تبقى به ، وانطلق إلى الفناء رابحا ما يقرب من نصف زجاجة كازوزة .

وجرى الحديث بين الرجلين في اسئلة تافهة وأحاديث عادية حتى تنحنح الخشت وقال وقد كسا وجهه ابتسامة عريضة :

ـ انا جاى آخد رأيك يا معلم شوشه في موضوع يهمني .. احنا اصلنا مش جيران بس .. احنا أهل .

ـ طبعا يا معلم طبعا .

ـ بقى شوف يا سيدى .. المعلم احمد الفكهاني جالى من يومين طالب القرب مني في بنتي زكيه لابنه إبراهيم .. قلت له سيبني أشاور عقلى .. وبعدين ضربت أخماس في أسداس لقيت الواد كويس .. وابن حلال وأبوه راجل طيب وأمير .. قلت يا واد وافق .. وربنا يقدم اللى فيه الخير .. وبعدين قلت لمراتي فقالت الأمر أمرك .. حبيت آخد شورتك .. وبرضه رايين احسن من رأى واحد .

واطرق شوشة برأسه برهة ثم أجاب :

ـ والله الراجل امير ، وحاله متيسر ، والولد شاطر وابن حلال ، ورايى انك توافق على طول .

ـ كده ؟

ـ اوى .

ـ خلاص .. هو حايفوت على الليله دى .. أقول له ان انا موافق وننهى الحكايه .

ـ على خيرة الله .

ـ انا عايز اعمل ليله نفرح بيها .. بقالى كتير مافرفشتش .. عايز اعملها ليله بالعوالم والتخت .

ـــ ربنا يديم الأفراح يا معلم .

وضحك الخشت ، وبدت عليه آيات الغبطة ، ثم نهض للانصراف مادا يده مودعا ، وكانت وقفته مواجهة لدورة الميـــاه ويـدا لعينيه الشق العميق فى الجدار هابطا من أعلى إلى أسفل منثنيا متعرجا ، نتيجة النشع الذى أهال البياض ، وبدت على وجه الرجل علامات الانزعاج وقال لشوشة :

ـــ ده إيه الشق ده ؟

ـــ الظاهر إن فيه نشع فى دورة الميه اللى عندكو .

ـــ لكن ده شق جامد .. واصل من أول الجدار لآخره .. لازم تشوف لك فيه طريقه .

وضحك شوشة وأجاب باستخفاف :

ـــ ما تخافش يا معلم ، دا بقاله عشر سنين على دى الحال . عمر الشقى بقى .

ـــ على العموم أنا حاجيب السباك يشوف المواسير إذا كانت فيه حاجه بتنز يصلحها . هه .. سلام عليكم . تصبح على خير .. تصبحى على خير يا خالتى أم آمنه .

وأجابه صوت أم آمنه من حجرتها :

ـــ وانت من أهله يا معلم محمود .. ربنا يتمم بخير .

ـــ الله يحفظك .

وقبل أن ينصرف التفت فجاة كانما قد نسى أمرا وقال :

ـــ على فكره يا معلم شوشه يمكن نحتاج فى الفرح لأوده والا أودتين من عندك . فيه مانع ؟

ـــ أبدا .. أبدا .. الشقه وأصحابها تحت أمرك .

ـــ كتر خيرك .

ولم يلبث النبأ حتى سرى فى أنحاء الدار وأقبل سيد على صاحبه « على الخشت » قائلا :

— حقيقى يا على اختك حاتتجوز ؟
— بيقولوا كده .
— وحاتعملوا فرح ؟
— أمال .
— وحاتعملوا فيه رز من بتاع الفرح .
— إيه الرز بتاع الفرح ؟
— رز كده تلاقيه بشعريه وزبيب طعمه لذيذ قوى .. كلته مره الفرح اللى اتعمل فى بيت المعلم « زين » السنه اللى فاتت ..

— أيوه فاكره .. كان فيه رقاصه بترقص عريانه ..
— حاتجيبوا رقاصه وعوالم ؟
— لازم أبويه حايجيب .
— وتجيبوا مغناوتيه ؟
— ضرورى .
وتنهد سيد تنهيدة رضا وغبطة وقال وهو يمنى نفسه بمتعة مقبلة :
— حاتبقى ليله هايله .. امتى حاتعملوها ؟
— الله أعلم .. على العموم لسه بدرى .. الظاهر ان لسه فيه اخد وعطا .. لانى سامع أبويا كده عمال يتودود مع أمى .

* * *

ولكن المسألة انتهت بأسرع مما توقع الصبيان ، ففى اليوم التالى كان « المعلم خشت » يطرق باب « شوشة » وينبئه فرحا أن المسألة قد انتهت وأن الاتفاق قد تم على أن يكون يوم الخميس موعدا لكتب الكتاب .

وأردف « الخشت » يقول وهو يفرك يديه :
— طبعا انت مش عايز عزومه ... البنت بنتك والفرح فرحك .

ـــ طبعا يا معلم ودى عايزه كلام .

ـــ أنا حاعمل شادر فى الحاره للرجاله والآلاتيه وحاخلى البيت للنسوان والموالم .. بس عايزك تفضى لى الأوده اللى قلت لك عليها عشان المعازيم الرجاله ياكلوا فيها .

ـــ الشقه كلها تحت أمرك .. هى دى عايزه سؤال .

ـــ كتر خيرك .. احنا برضك أهل .

وكان الحديث فى يوم أحد أى لم يكن قد تبقى على يوم الخميس ـــ موعد ـــ الفرح ـــ الا بضعة أيام جرى فيها الاستعداد للفرح على قدم وساق ..

ـــ بدأت بشائر الزينة بعلمين أخضرين علقا على جانبى باب البيت وأورمة خشبية ملونة يعلوها التاج وضعت فوق منتصف الباب ، وكان هذا أول دليل ملموس اقتنع « سيد » بأن هناك فرحا فعليا ، وأن المسألة لم تعد مجرد أمنية منتظرة ، وأن أكل رز الفرح ذى الشعرية والزبيب قد بات وشيك الوقوع .

ومرت بضعة الأيام التالية على سيد خفيفة الظل لطيفة الوقع ، فقد كان كل يوم يبصر دليلا جديدا .. ففى يوم فرش الرمل الأصفر ، وفى اليوم الآخر علق قدر آخر من الأعلام والبطيخ الزجاجى الملون ، وفى اليوم الثالث غرست أعمدة خشبية على مدخل الدرب ، قد لفت بأشرطة مخططة خضر وبيض ، حتى حل يوم الخميس .. فبدىء فى نصب السرادق لاستقبال المدعوين ، وسرادق آخر صغير خلف السرادق الكبير أقيم فيه المطبخ ورصت فيه الحلل فوق كانون حجرى .

وبات الدرب كله منهمكا خلال الأسبوع فى الاستعداد للفرح كل بما يخصه ، كمدعو أو كمشترك فى أداء أحد الواجبات .

وهكذا كان أهل الدرب من الاستعداد للفرح فى فرح إلا امرأ واحدا ، هو « شوشة » ، فقد كان غريقا إلى شوشته فى الجنازات وتشييع الأموات .

اجل ! لقد فتح الله على الأفندية بشوطة تدفقت عليهم من بعدها الجنازات ، ووجد « شوشة » نفسه ، وقد اندمج فيهم وجرت رجله بينهم فأخذ يشيع الميت تلو الميت .. وتوالت عليه جولات الصراع بينه وبين رهبة الموت سريعة متتالية .. فقوت من مقاومته وزادت من ملابته ، ففى كل جولة كان يجد نفسه أهدأ أعصابا واقل حساسية من الجولة السابقة ، ووجد نفسه يسير فى طريق النصر بخطا حثيثة .. وانه لو استمر فى مثابرته على تشييع الموتى فسينتهى به الأمر إلى انتصار لا شك فيه ، وانه سيقهر خصمه الرهيب ويسخر منه ويكشفه على حقيقته التافهة الخالية من كل وهم ورهبة وروعة .

وهكذا ظل « شوشة » يواظب على الذهاب إلى مقهى الأفندية ، وعلى الخروج معهم فى الجنازات حاصلا من عمله على ربحين ربح مادى وربح معنوى .

وبدأ أهل الدرب يتهامسون فيما بينهم عن سر خروج « شوشة » بالصرة يوميا بعد الظهيرة ، وما لبث ان ذاع الأمر عندما ابصره احدهم بسير ببدلته السوداء أمام إحدى الجنازات .

وأثار النبأ تعليقات شتى ، فمن قائل ان الرجل يجرى وراء القروش ، وانه قد استغل فرصة حصوله على البدلة فورث عمل « شحاتة أفندى » ، ومن قائل ان الرجل يهوى الأحزان انه يريد جنازة لكى يشبع فيهسا لطما ، ومن قائل بأنه أصيب بلوثة ، ومن قائل .. ومن قائل ...

كانت الأقاويل كثيرة ، ولكنها كلها كانت فى حدود الهمس إذ لم يجسر احد منهم على ان يواجهه بها ، وقد مرت الأيام فما لبث القوم ان اعتادوا المسألة ، فخفتت همساتهم ولم يعد أحد منهم يعنيه الأمر .

ولكن « سيدا » لم يعتد المسألة ، ولم تخف الهمسات التى كانت تطن فى راسه ، بل ظل الأمر يعنيه ويقض مضجعه .

كانت المسألة كلها بغيضة إلى نفسه ، كان يشتم منها رائحة ذلك الشيء المجهول الكريه الذى يغيب الأحياء ويأخذهم إلى حيث لا رجعة .. كان يجد فى البدلة والصرة ما يذكره « بشحاتة » ، وما يذكره بالغيبة الطويلة والضياع الأبدى ، وما يذكره بفقد الأعزاء فقدا ميئوسا منه ، فقدا لا مبرر له ، ولا أمل بعده فى استرجاع المفقود ، لقد كان إذا ما ضاعت منه بلية أو نحلة يعزيه أنه يعرف كيف ضاعت ، وأين ضاعت ، يعزيه احساسه بأنه يستطيع ان يجدها أو يجد غيرها بدلا منها .. أما ذلك الضياع الذى لا يعرف له سببا ، ولا ينتظر عنه تعويضا ، ولا يجد بعده عن الضائع بديلا .. فذلك هو الشيء المروع .

كانت الصرة المغلقة تشعر « سيدا » بذلك الضياع .. وكان يخشى منها على أبيه الحبيب ، أبيه الذى كان لا يتصور كيف يمكن أن تكون الدنيا بغيره .. ولكنه مع ذلك لم يملك إلا ان يسكت الهمسات التى تطن فى رأسه ، وساعدت الاستعدادات للفرح والصخب والضجيج على اسكات تلك الهمسات إلى حين ، فانصرف الصبى عن الصرة المغلقة ، إلى الأعلام المنشورة ، والرمل المفروش .

الفصل العاشر

على عـــرش الميـــاه

حلت ليلة الخميس وكان كل شيء على تمام الأهبة . فالسرادق قد اقيم من أول الدرب حتى قرب السبيل ، والأعلام ترفرف على مدخله ، والكلوبات تتدلى فى أنحائه يلاحقها عفريت قذر أسود بسلم يسنده إلى الأعمدة الخشبية ، ثم يتسلقه إلى سقف السرادق ، ويدفع فى الكلوبات النفس تلو النفس ويسلكها بابرة فى يده فيزداد وهجها ويشتد ضوءها ، وفى مقدمة السرادق جلست فرقة موسيقية ترتدى ثيابا قديمة من ثياب موسيقى الحرس الملكى لا صلة بين مقاسها ولابسيها فإما أن يكون الفرد غريقا فى حلته وإما أن يكون محشورا بين أزرارها فهى لا تكاد تلم لحمه .

ولم تكن الآلات الموسيقية لتنزل عن أفواههم إلا لترفع ثانية فقد كانوا يعزفون السلام لكل داخل على قدر حاله فإذا بدا القادم من ذوى المكانة عزف السلام على مهل وبكل مقاطعه ، وإذا كان هلفوتا ضرب السلام سريعا مختصرا .. وعندما كان يخف الاقبال على السرادق كانت تبدأ الفرقة فى عزف أحد الأدوار كأفراح القبة أو يا مليكى أنا عبدك .. ولكن لا يكاد يقبل مدعو حتى تترك الدور وتزف السلام ، ثم تعود ثانية إلى الدور التى كانت تعزفه .

وفى السرادق كان يصطف المدعوون .. لا يكاد يبدو بينهم وجه غريب عن الدرب ، ففى أحد الأركان جلس المعلم مسطرين ، وزكى زين ،

والأسطى شيحة البقال ، وعبد الحلاق .. وفى ركن آخر كان يجلس على الحمى ، وجاد صبى الحاجة زمزم ، والحاج إبراهيم المعيرجى ، وعم جاب الله البواب .. وفى ركن ثالث كان يجلس الشيخ عبد الرسول ومعاونوه ، وبين كل هؤلاء كانت تتناثر بضعة وجوه مجهولة .

وفى صدر السرادق اعد موضع التخت وهو اريكة خشبية عالية حفت ببعض مقاعد خالية للآلاتية .

ووراء السرادق يوجد سرادق المطبخ وهو لا يزيد عن « تزلك » احاط الفرن المصنوع من حجارة شيدت على وجه السرعة ورصت فوقها القزانات الضخمة والحلل السوداء « المهببة » ، واخذت النار تئز من تحتها ، ومن آن لآخر يدفع الطباخ بعض الحطب إلى اسفلها .

ومن وراء « التزلك » كن يطل وجه صغير يستنشق بأنفه شهيقا طويلا ثم يلتفت وراءه ويخاطب آخر لم يبد وجهه :

ـــ وله يا على .

ـــ عايز إيه يا سيد ؟ .

ـــ أمال امتى حاييتدوا الاكل .. انا خلاص بطنى نونوت .. انا بقالى يومين مبطل اكل وبستعد للعشوه دى .

ـــ صبرك شويه .. لما تكمل المعازيم .

ـــ اسمع .. احنا حايوكلونا لوحدنا والا مع الكبار ؟

ـــ أنا عارف .

ـــ عايزين ناكل لوحدنا .. روح قول لابوك كده .

ـــ آروح آقول له دلوقت ؟ .

ـــ أيوه .. امال حاتقول له بعد العشا ؟ .

وهم « على » بأن يعدو من وراء سرادق المطبخ إلى داخل السرادق الكبير حيث كان أبوه يرحب بالمدعوين وينثر عليهم التحيات .. ولكن « سيد » سرعان ما أمسك بتلابيبه صائحا :

ـــ والا أقول لك .. بلاش دلوقت .. لحسن يجيبوا لنا صنف والا صنفين ويكروتونا ، ولا من درى ولا من شاف .. خلينا ناكل مع الكبار .. أقل ما فيها نضمن إن مافيش صنف حايسيبنا .. والا إيه رايك ؟

ـــ برضك كلام مظبوط .. وعلى العموم احنا نقدر ناكل مرتين .

ـــ ازاى بقى ؟ .

ـــ مره مع الرجاله ومره مع الستات .

ـــ لا والله حدق .. يا سلام يابو علوه .. إيه الأفكار النيره دى .. انا طول عمرى أقول عليك غبى .. ومخك زى الصرمه القديمه .. لكن فى الحكايه دى طلعت حدق . بس اسمع ...

ـــ إيه ؟ .

ـــ عليك تشوف لنا مين حياكل الأول .. الستات والا الرجاله ؟ .

ـــ بس كده .

ثم انطلق يعدو وبعد لحظة أقبل عليه بجوار السرادق يقول هامسا :

ـــ وله يا سيد .. الستات فى الأول .

ـــ طب يالله بينا على فوق .

ودلف الصبيان إلى الداخل وكان الفناء يعج بالصبية والبنات ، وكانت شقة شوشة قد فتحت على مصراعيها وقد أخليت القاعة وحجرة شوشة ، ووضعت بضعة مقاعد فى حجرة شوشة ووضعت فى القاعة منضدة مستديرة قد غطيت بمفرش أبيض ووضعت عليها الأطباق الفارغة .. وكانت « أم آمنة » قابعة فى حجرتها جالسة على الشلتة جلستها التقليدية الحزينة الشاردة .

وشق الصبيان طريقهما إلى أعلى وكانت الزغاريد تهبط طويلة مسترسلة .. وكانت الشقة تعج بالنساء وقد توسط القاعة بضعة

مقاعد وحشيات انتظم عليها عقد العــوالم وقد توســطتهن رئيستهن « الأسطى إحسان » وهى امرأة يتكون هيكلها من عدة دوائر متوازية : فوجهها قرص دائرى أبيض متورد أشبه بصينية البطاطس ، وجسدها دوائر من اللحم الأبيض قد رصــت فوق بعضــها البعض ، وذراعاها وساقاها طيات دائرية أحاطت بها الخلاخيل والأساور .

والمرأة بوجه عام جميلة مجلجلة الصوت لا تفتأ صيحتها تنطلق رنانة بين آونة وأخرى وقد أحاطت بها صبياتها من الفتيات والمغنيات والراقصات وبجوارهن جلس عجوز ضرير فى حلة سوداء وقد وضع على ساقيه قانونا أخذ يتشاغل فى تصليح أوتاره وفى تجربة بعض التقاسيم .

وبدأ « سيد » يخوض وسط اللحوم البيضاء الطرية ويشق طريقه بين كتل الأرداف المنتفخة والصدور البارزة .. ولمحته أم على فصاحت :

ــ فين ستك أم آمنة يا سيد .. ما طلعتش ليه ؟

ــ أظن قاعده تحت .

ــ تحت ! .. يا ندامه ! .. ليه ؟ .. عايزه عزومه ؟ . دى ست البيت .. اوعى ياست منك لها .. أما أنزل أجيبها يا نداشه .. وهى السهره تحلى من غيرها .

ــ واندفعت أم العروس هابطة إلى أسفل ، وبعد هنيهة كانت تعود ســاحبة العجوز الضريرة من يدها مفســحة لها الطريق بين المدعوات ثم هيأت لها حشية فى أحد الأركان وأجلستها عليها وهى تغرقها بمظاهر الترحيب والتكريم .

وكان سيد وصاحبه يستكشفان مكان الطعام ويحومان حول المنضدة المستديرة التى توسطت إحدى الحجرات التى أخليت من أثاثها .

وقال سيد وهو يفرك كفيه رضاء وغبطة :

ــ بس ، ولا كلمة .. خلينا لازقين فى الأوده دى عشان نخش فى أول دور وبعدين نطير على تحت نلحق دور تانى .

وانبعث من القاعة صوت نسائى يهتف :

ــ ما تسمعونا حاجه يا جماعه .. والا حاتفضلوا كده قاعدين ساكتين .. هو احنا قاعدين فى محزنه والا إيه ؟

وكان الرجاء موجها إلى الاسطى إحسان .. التى انطلق صوتها الرنان يجيب على الرجاء محاولا اسكات عش النحل الذى يطن فى ارجاء المكان :

ــ هو إيه أصله ده يا ستات .. ما تسكتوا بقى عشان نعرف نشتغل .. بت يا تفيده جاهزه والا لأ ؟

واجابت تفيدة :

ــ أيوه يا اسطى جاهزه ، بس بدور على الصاجات ، مين فيكو خد الصاجات . بت يا شربات .. أنا مش مدياهم لك ، عشان تشيليهم قبل ما تيجى هنا ؟

وصاحت شربات :

ــ انا مش خدامة أبوكى عشان أشيلهم لك .. متشيلهمش انت ليه .. ماسدة فى إيديكى ؟

وتدخلت الرئيسة لحسم الموضوع صائحة فيهما :

ــ بس يا بت منك لها .. هوا دا وقت خناق .. اتلمى بلاش فضايح ، اديها يا بت يا نعيمة الصاجات بتوعك .. يالله بقى المعازيم زهقوا .

ثم أمسكت بالرق وطرقت عليه طرقتين ثم اخذت تهزه فى يدها قائلة لصاحب القانون :

ــ رقص الهوانم يا خليل أفندى .

ولم يفتح خليل أفندى فاه ، بل ازداد انحناء على القانون وأخذت اصابعه تنتقل بسرعة بين أوتاره . وقد اخذ نصفه الأعلى يتحرك ويهتز مع النغمات .

ونهضت تفيدة تتثنى وتتلوى ملقية عن جسدها وشاحا كانت تستر

به حلة الرقص ، وأفسح لها القوم رحبة وسط القاعة تباشر فيها رقصها .

وقفت الراقصة رافعة كفيها بالصاجات تقرعها بين أصابعها مع اللحن ، وتحرك نصفها السفلى المغطى بشراشيب من التل والخرز وتكشف عن فخذيها البيضاوين الممتلئين ، وبطنها الطرى المستدير الذى ينطبق عليه الوصف القديم « عجين خمران » ، أما نصفها الأعلى فقد شد بصديرى لا يكاد يلم صدرها المترجرج المكتنز .

واخذ القانونجى الضرير يتلاعب بأصابعه ويهز جسده مترنحا ، والراقصة تتبع نغماته ، مسيطرة على كل قطعة فى جسدها محركة ردفيها وثدييها ووسطها حسب رنين الأوتار ودقات الرق .

وانتهت تفيدة من الرقص ، وانبعث سيد يصفق بيديه طربا وهو يطل بعنقه بين اجساد المعازيم وهمس فى أذن على :

ــ يا سلام يا على .. البت دى هايله !

ولم يكد ينتهى الرقص حتى بدت « الريسة » وصبيانها الغناء بعد أن نبهت خليل أفندى إلى الدور بقولها « الهؤ النؤ » .

وجرت أصابع خليل أفندى بمطلع الدور أو كما يسمونه فى لغة الموسيقيين « الدولاب » ، ثم علا صوت « الريسة » احسان منشدا :

« الهؤ النؤ .. الهأ النأ .. تكايدنى ليه مالكش حق » .

وبدا الانشراح على المدعوات ، إذ كان الدور محببا إلى نفوسهن واشتركن فى الغناء مع العوالم مرددات قولهن : « الهؤ النؤ .. » .

وكان سيد منهمكا فى الترديد عندما توقف فجأة ، وغمز ذراع صاحبه قائلا :

ــ شايف ؟

ــ شايف إيه !

ــ شايف اللى طالع على السلم ده

ـ أبوه شايف .

ـ طيب يالله بينا بأه ، بلا الهؤ النؤ ، بلا الهأ النأ .. يالله بينا نقعد على الترابيزه .. انا قتيل الرز ابو صنيبر ، والمهلبيه أم فزدق .

ثم تسلل من القاعة واتجه إلى الحجرة التى بها المنضدة ، وجلس على احد المقاعد واجلس عليا بجواره ، وبعد لحظة وصلت الصينية الخشبية التى ابصرها « سيد » صاعدة من السلم ، واخذ حاملها يرص الصحاف على المنضدة و « سيد » يحملق فى كل طبق ويتلمظ .

ونظر إليه حامل الصينية شزرا وصاح به :

ـ قوم يا واد انت وهوا من هنا ، يالله روحوا شوفوا شغلكم .

ـ شغلنا ! ماهو دا شغلنا .. زى ما انت شغلتك انك ترص اللى معاك على الترابيزه . احنا شغلنا اننا نرص اللى على الترابيزة فى بطننا .

ثم صاح مقهقها ، ولكن الرجل لم تعجبه النكتة فامسك به من ذراعه وحاول جذبه بعيدا من المنضدة ، ولكن « سيد » تملص من قبضته مهددا بقوله :

ـ حيلك .. انت فاكرنا مين ؟

ـ يعنى تبقوا مين !

ـ ده ابن صاحب البيت .. اخو العروسه لزم .

ـ وانت تبقى مين ؟

ـ أخو العريس .

وانبسطت أسارير الرجل وتكلف ابتسامة على شفتيه واجاب :

ـ عدم المؤاخذة .. اتفضلم بالهنا والشفا .. بس ما تجرحوش الاطباق إلا لما يقعدوا المعازيم .

ـ وجب .. لك علينا كده .

وانصرف الرجل واخذ « سيد » بتغزل فى الأطباق سائلا « على » بين آونة واخرى عن هذا الصنف أو ذاك .

واخيرا اقبلت الدفعة الأولى من الآكلات ، واندمج « سيد » بكليته فى الطعام ، وأكل من الرز ، ومن غيره ، على حد قول جدته « لما وقف على ضوافره » .

وعندما انتهى من الطعام سحب صاحبه من يده قائلا :

— يالله بنا على تحت .

— لا يا عم أنا مقدرش آكل لقمة بعد اللى كلته .

— يا أخى مش ضرورى ناكل نقعد كده نمزمز .. ناكل لحمه .. تنقى الصنيبر والزبيب اللى فى الرز ، ناكل الفزدق من على وش المهلبيه ، بالله يا عبيط ، دا الواحد ما بيشوفش العزايم إلا كل عشر سنين مره .

وهبط الاثنان إلى أسفل . واشتركا ثانية فى أحد أدوار الرجال ، ولم يكن الدور ممتعا كأول دور ، ولكنه كان مجرد نأنأة كما قال « سيد » .

وبعد الانتهاء من الأكل خرجا إلى السرادق .

كان الآلاتية والمغنى قد حضروا ، واتخذوا اماكنهم فى صدر السرادق وبدأت أصوات تصليح الآلات تنبعث متناثرة من هنا وهناك ، وكان المغنى — الأستاذ عبده زياده — قد ارتدى الحلة السوداء الرسمية الشبيهة بحلة المرحوم « شحاتة افندى » ، وكان الرجل مطبق الوجه مجعده ، « مقروح الجفن مسهده » .. نتيجة لرمد مزمن ، وكان الرجل يتلمظ ويحرك لسانه بين شدقيه كأنه يمص شيئا ويسلك زوره متنحنحا بين آونة وأخرى .

وانبعثت الأصوات من انحاء السرادق محيية « الأستاذ عبده » سائلة إياه بعض الأدوار ، وكان هو يرد التحيات رافعا كلتا يديه إلى أعلى طربوشه على طريقة « بارك الله فيكم » ويهز راسه كلما طلب منه أن يغنى دورا قائلا :

— حاضر .. حاضر .

واخيرا ، وبعد طول « تنتنة » من الآلاتية وتمتمة من المطرب ..

بدأ الغناء .. منشدا دور عبد الحي حلمي : « متع حياتك بالأحباب » .. بالطريقة التوقيعية المتقطعة البطيئة قائلا :

ــ مت .. تع .. حيا .. تك .. حيا .. تك .. بال .. اح .. باب .. آه .. آه .. حبك ، (ثم كلمة مدغومة غير مفهومة ، اغلب الظن انها ، وصل ، او هجر ، او غدر ، او شىء على هذا الوزن) .

واندفع المستمعون يضجون بالصراخ ، لست تدرى من فرط الطرب .. أم من مجرد الايحاء ، أم هى مسألة واجب كان لابد أن يؤدوه ، اذ كان على المطرب الغناء ، وعلى المستمعين الصياح .

على اية حال لقد أحدث صياحهم اثره فى المغنى وفى السرادق كله ، إذ سرت فيه موجة طرب وجذل ، ووجد السرور صداه فى كل نفس .

وعاد الأستاذ عبده يهتز ويتلوى ويقطع فى الغناء ، ويتلوى منشدا : « مت ، تع ، حيا ، تك ، حيا ، تك » .

واستمر التجاوب بين المغنى والمستمعين ، واستمرت موجة السرور تغمر السرادق حتى سمع المدعوون قهقهة عالية تنطلق من مدخل السرادق فتغطى على صوت المغنى والآلات ، ثم أعقبتها صيحة عالية :

ــ هاى ، ماتعبرونا يا خلايق .

وتوقف الأستاذ عبده عن الغناء وتلفت المستمعون إلى ناحية الصوت وقد تملكهم الوجوم وبدا على وجوههم الدهش فوجدوا المعلم دنجل يقف بباب السرادق وقد أمسك بشومته وعلت شفته ابتسامة ساخرة .

وهمس المعلم عز فى صوت قلق :

ــ الظاهر انه شارب حبتين .. ربنا يفوت الليله دى على خير .

وعاد المعلم دنجل يصيح :

ــ إيه مالكم كده ساكتين زى اللى نزل عليكم سهم الله ، مفيش

ـــ وله يا عبده .. انت بقيت صاحب تخت ؟ ! . والله عال ..
الله يرحم الرق اللى كنت تقعد تهز فيه طول الليله .. طب ما اعمل انا
كمان مغنى .. اشمعنى انت .. هو انت احسن منى .. هع .. قوم
يا واد خلينى اقعد .. قوم .

ونظر المغنى حوله مستنجدا .. متسائلا فى نظرات مذعورة هل
بخلى له المحل أم ان هناك منقذا بين الرجال .

ولم يطق الخشت صبرا واندفع كالقنبلة ، وقد اخرج من جيبه مدية
طويلة وهو يهدر صائحا :

ـــ سيبونى على ابن الكلب ده .. انا افتح كرشه .. هو مش عارف
مين صاحب الفرح .. سيبونى بس .

ولكن شوشة اعترض طريقه مرة ثانية .. واطبق على ذراعه بقوة
.. وصاخ :

ـــ اسكت انت يا معلم خشت .. دخل المطوه فى جيبك ماتضيعش
نفسك فى شربة ميه .. سيبولى إنا حاعرف اربيه .

ـــ سيبنى يا شوشه . سيبنى بقولك .

وصاح دنجل :

ـــ مين المره اللى بيزعق ده .. مين اللى ..

ولكنه لم يتمم قوله فقد خطف شوشة احد المقاعد ورفعه بسرعة
البرق ثم قذف به فى وجه دنجل فانطلق كالصاروخ واصابت حافته
جبين الرجل فنزف منه الدم كالصنبور .

كانت الضربة مفاجئة .. فقد كانت المعركة متوقعة بين « الخشت »
و دنجل » ، وكان شوشة لين الالفاظ مسالم الحديث ولم يكن يبدو عليه قط
انه هو الذى سيكون البادىء بالقتال .

وقبل أن يفيق دنجل من وقع المفاجأة ، وقبل أن ينتهى من تحسس
جبينه واكتشاف الدماء السائلة اندفع « شوشة » هاجما عليه فأسرع
الرجل بتلقيه بشومته محاولا أن يهوى بها على رأسه ، ولكن « شوشة »

تلقاها بيسراه ، ثم ناوله بيمناه لكمة شديدة إلى أعلى بطن خصمه أو ما يسمونه « فم المعدة » فصرخ صرخة مكتومة وانحنى ممسكا بطنه وقد بدا عليه الم شديد .

وتلقى شوشة انحناءته بضربة سريعة برأسه فى وجهه .

وبدا على الرجل التسليم .. ولم يعد هناك شك فى انه انتهى .. ولكن احد أنصاره أسرع فهوى بشومته على ظهر شوشة .. ثم أسرع آخر فحطم احد الكلوبات بمقعد من المقاعد وبدأ الضرب والتحطيم والقتال . وسرت موجة الذعر فى السرادق ، وعلا الصراخ ، واختلط الحابل بالنابل وما لبث الفزع حتى سرى إلى مجمع النساء فاستبدلت بالزغاريد ولولة وصراخا .

وانطلقت الصفافير واقبل الشرطة .. وبعد لحظات أقبلت عربات الاسعاف يتقدمها رنين الجرس .

واخيرا هدأت المعركة .. وخرجت العربة تحمل المعلم دنجل وأحد انصاره .. وانصرف المدعوون والتخت والعوالم .. واخذ الفراش يحل السرادق ويجمع المقاعد .. ثم ساد السكون وعاد كل شىء إلى ما كان عليه .. كأن لم يكن هناك فرح ولا مغنى ولا معركة .

وعلى الفراش جلس شوشة فى حجرته ولم يكن يتطلع إلى السماء من النافذة كعادته بل كان منهمكا فى تدليك مرفقه بالزيت من اثر الضربة التى تلقاها من شومة دنجل ، وأحس بوقع أقدام تتسلل إليه فى الظلمة والتفت فوجد ابنه سيد يقترب منه فلما وصل إليه رفع ذراعيه الصغيرتين وأحاط جسده بهما وأسند رأسه عليه قائلا فى صوت تملؤه الدموع :

ـــ ايدك وجعتك يابا .. انا حسيت زى اما تكون الشومه نازله علىّ وهجمت على الراجل وعضيته حتة عضه .

وضحك شوشة ورفع سيدا ووضعه على حجره وضمه إليه وقبله قائلا :

ـــ لكن مش علقه كويسه ؟ .

ـــ كويسه وبس ؟ .. دانت دشدشته .. انا ما كنتش فاكر انك فتوه بالشكل ده .. انا كان نفسى اشوفك بتتخانق .. دانت خبطته خبطه بالكرسى طلع من ايدك زى القنبله .. والا الروسيه اللى ضربتها له كانت مدهشه .

وربت شوشة على ظهر ابنه وقال :

ـــ روح بقى نام دلوقت .. لحسن اتأخرت فى النوم .

ـــ اصل بكره بطاله .

ـــ معهلش .. برضك روح نام .. كفايه سهر .

وذهب « سيد » للنوم فى احضان جدته .. وجلس شوشة برهة ثم ما لبث حتى رقد فى فراشه وراح فى سبات عميق .

استيقظ شوشة فى الصباح على صوت طرقات على الباب وكان قد تعود أن يهب نفسه بعض الراحة يوم الجمعة فلا يستيقظ مبكرا كعادته ، وزادته السهرة ومعركة الليلة رغبة فى الاستمتاع بنومة طويلة واستيقاظ متأخر ، ولذا كانت اشعة الشمس تهبط من النافذة فتية والضوء يتسرب قويا عندما ذهب لفتح الباب .

ووجد امامه رجلا يرتدى حلة صفراء رسمية اشبه بحلة السعاة ، ولم يكد يبصره الرجل حتى سأله :

ـــ هوا دا بيت المعلم شوشة السقا ؟

ـــ أيوه .

ـــ وهوه فين ؟

ـــ انا المعلم شوشه .. يلزم خدمه .

ـــ صباح الخير يا معلم .

ـــ صباح النور .. أهلا وسهلا .

ـــ اهلا بك .. انا جاى من الشركه .. شركة الميه .

ـــ خير ان شاء الله .. فيه حاجه ؟

ـــ عايزينك تكلم فى المكتب بتاع الشركه فى شارع الفجاله .

ـــ عشان إيه ؟ . ما تعرفش ؟

ـــ الظاهر انهم عايزين يسلموك الحنفيه بتاعة الحسينية ، أصل بينى وبينك الراجل « دنجل » ... باين عليه ابن كلب ، ماسترشى .. جت فيه شكاوى كتير .. كل يوم ما بيفتحش الحنفيه غير الضهر .. ده غير الخنصره اللى بيخنصرها من الإيراد .. الظاهر انهم ضبطوا عليه حاجه .. والا لقوه بيتلاعب .. الله أعلم . أهو كلام بيقولوه .. ان بعض الظن اثم .. وآخرة المتمه ، والا زى ما بيقولوا بالنحوى وثالثة الأثافى .. النهارده مارحش الحنفيه خالص ، وبيقولوا انه بات فى الاسعاف بعد خناقة أترقع فيها علقه جامده ، مين يعرف .. أهو كلام .

ـــ لأ .. ده بقى مش كلام .. ده صحيح .. أنا اللى مبيته فى الاسعاف بايدى دى .

ـــ طيب اديهالى ابوسها .. تسلم ايدك يا معلم شوشه .. كان متفرعن أوى .. ومش حاطط واطى .. مره جه المكتب وبكلمه بالذوق ، راح مهزأنى قدام الناس ، وكان حايعتدى على بالضرب ، لولا ان انا خدتها من قصيرها .. لما لقيته قدامى زى الفحل .

ـــ كنت تعالى اتفرج عليه امبارح .. وهو مفـــرش فى الأرض بالاربعه زى القتيل .

ـــ والله براوه عليك ، ياالله بينا لحسن الوقت متأخر .

ـــ حالا . اغير الجلابيه واحط البلغه فى رجلى والف اللاسه على راسى واجيلك .. خش اقعد استريح ، خش اشرب لك فنجان قهوه .

ـــ لا .. لا .. مفيش وقت ، بس البس انت قوام .

ودخل شوشة مسرعا وارتدى ملابسه فى عجلة . ولم يكن هنالك شك فى أن الطرب قد استخف الرجل الرزين ، وأن فرحته بالمنصب الرفيع ، كانت أعظم من أن يستطيع اخفاءها .

لقد كان يعتبر الحنفية مقره الطبيعى وكان يرى فى نفسه الوريث الشرعى لعرش المياه فى حى الحسينية .

كان الكرسى مطمعه ومنتهى أمله فلما خلا مكانه ووضع فيه « دنجل » أحس أنه سلب حقه ، وأن الظلم قد حاق به ، ولكنه لم يملك ردا ولم يستطع سوى الصبر والاستكانة حتى يرفع الله عنه الظلم ويرد له الحق .

وهكذا لم يكد ينبئه الرجل بأنه قد اتى ليستدعيه لتولى العرش ، وتسلم مفاتيح خزائن المياه ، حتى فاض الفرح بنفسه ، ولم تستطع قدرته على ضبط أعصابه والتحكم فى مشاعره أن تطوى موجة الفرح الظاهرة .

وعندما تم ارتداء ملابسه دخل حجرة « أم آمنة » فوجدها راكعة تتمتم ببعض الدعوات . ووجد سيدا مازال مستغرقا فى نومه .

وصاح بأم آمنة فى جذل :

ـــ صباح الخير يا حاجه ، هوا سيد لسه ماصحيش ؟

وتقلب سيد فى فراشه وفتح عينيه ، وتمطى ثم أغمض عينيه مرة اخرى ، وأجابت « أم آمنة » وهى تنهض واقفة :

ـــ خير عليك ياخويا ، خليه نايم ، مادام ماوراهش كتاب .

ـــ طيب انا خارج ، رايح الشركه .

ـــ شركة ايه ؟

ـــ شركة الميه .

ـــ ليه كفى الله الشر ؟

ـــ ولا شر ولا حاجه ، انا رايح استلم مفاتيح الحنفيه .

ـــ حنفية إيه ؟

ـــ حنفية الميه ، خلاص حاستلم الكشك بدل دنجل .

ـــ يا خويا الف نهار أبيض ، مبارك ، الف مبارك ، ربنا تاب عليك من اللف والدوران وشيل القرب .

ومرة ثانية فتح سيد عينيه وهو ما زال راقدا ، ثم تساءل فى دهشة :

ـ فيه إيه ! ربنا تاب عليك من شيل القرب ليه !

وضحك شوشة واجاب :

ـ خلاص بقيت من أصحاب الأكشاك .

وقفز سيد من فراشه وصاح فى دهشة :

ـ بالذمة صحيح .. حاتقعد فى الكشك بدل دنجل ؟

ـ امال .. احنا شويه فى الحته والا إيه !

ولم يجب سيد فقد اندفع يصفق بيديه ويطوف بالحجرة راقصا وهو يصيح :

ـ ول .. يا ول .. ول .. يا ول .

ثم التفت إلى أبيه متسائلا :

ـ ودنجل راح فين ؟

ـ فى الاسعاف .. الملقه بتاعة امبارح جابت خبره .

وتمتمت أم آمنة :

ـ عشان ما يبقاش يتعدى على الناس ، ويسود لياليهم ربنا ما يسيبش ظالم ابدا .

وخرج شوشة إلى الرجل « مندوب الشركة » ، وسار الاثنان عابرين درب القط إلى درب عجور . وفى الطريق سأل شوشة :

ـ ماتعرفناش بالاسم الكريم .

ـ محسوبك خليل .. محمد خليل الشنوانى .

ـ اهلا وسهلا .. محسوبك شوشه الدنك .

ـ تشرفنا يا معلم شوشه .. انت حضرت التامين معاك ؟

ـ التامين ؟اى والله فكرتنى .. دانا ناسى الحكايه دى خالص . هوا يطلع كام التامين ؟

ـ اظن حوالى ميه وخمسين قرش .

ـ كده خبط لزق ؟

ــ أهو كده تقريبا .

وتمهل شوشة فى سيره متفكرا . . هذه مسالة لم يعمل لها حسابا . . مائة وخمسون قرشا دفعة واحدة . . من أين له بهذا المبلغ وكل ما يملكه فى جيبه لا يزيد على الثلاثين قرشا . لو ان الرجل أتى إليه بالأمس أو اول أمس لكان فى استطاعته دفعها بسهولة ، فقد استطاع أن يقتصد من اجر الجنازات ما يقرب من المائة قرش ، ولكنه دفعها بالأمس لشراء قرب جديدة ولتصليح العربة .

وكان قد وصل فى سيره إلى دكان « المعلم خشت » ووجد الرجل قد اخذ فى تعليق اللحوم فى واجهة الحانوت ، ولم يكد يراه حتى قذفه بتحية عالية صارخة :

ــ ازيك يا معلم شوشه .. صباح الخير .. على فين كده . شايفك لابس ومتقمع ؟

وهنا وجد شوشة انه لن يحل مشكلته سوى المعلم « خشت » .. انه رجل كريم خير ، ولن يبخل عليه بالمائة وخمسين قرشا .. ما دام يملكها ، ولكن أتراه حقا يملكها أم تراه قد استنفد كل ما معه فى فرح الامس ، وأصبح « على الحديدة ؟ » .

أجل .. أجل .. ان من المستبعد أن يكون المعلم خشت مالكا فى مثل هذه « الصباحية » لمائة وخمسين قرشا .. أو حتى لمائة وخمسين مليما . ان سوء الحظ يابى الا التدخل . افلم يكن من الخير أن تتحقق الأمنية منذ بضعة أيام قبل الانتهاء من الفرح ؟ ولكن كيف كان يمكن حدوثها قبل الفرح ، ودنجل لم يذهب إلى الاسعاف إلا نتيجة الفرح ، وتهجمه على الفرح ، وضربه وعراكه مع أهل الحى ؟

على أية حال .. لا داعى لكل هذا التشاؤم .. ليجرب سؤاله .. فمن يدرى .

واتجه إلى الدكان معتذرا « لخليل » بقوله :

ــ إذنك يا عم خليل افندى .. دقيقه واحده .

ـــ احنا مستعجلين أوى يا معلم شوشه ، مافيش وقت .

ـــ حالا ، دى كلمه واجده ، أصلها حاجه مهمه أوى .

ثم أسرع إلى « المعلم خشت » فتلقاه الرجل فى شىء من الدهش قائلا :

ـــ إيه الحكايه ؟ مالك مطقم كده ليه ؟

ـــ أصلى رايح الشركه .

ـــ ليه ؟

ـــ بعتولى دلوقت عشان استلم الحنفيه بدال دنجل .

وتلقى « المعلم خشت » الخبر بتصفيقة من يده ـــ وصاح فرحا :

ـــ حلو .. اهو كده الشغل والا بلاش .. أمال . ادى العيش لخبازينه .. مش يجيبوا مطيباتى يشغلوه سقا ، مبروك يا معلم ، الف مبروك .

ـــ كتر خيرك يا حاج .. بس كان فيه حكايه كده .

ـــ إيه ؟ فيه إيه ؟

ـــ والله طلب مكسوف اطلبه منك .

ـــ متقولش كده عيب .. احنا أهل .. رقبتى .

ـــ الحكايه لازم لها مايه وخمسين قرش تأمين .. ما معييش منهم غير ريال .

ووجم « المعلم خشت » برهة ورفع يده واخذ يعصر راسه ثم ضرب جبينه بكفه وتهللت أساريره وهتف قائلا :

ـــ بس ولا كلمه .. فرجت .. برضك تقدر تحلها .. خد .. آدى مايه وخمسين قرش معايه كنت شايلهم للفراش .. لكن خد ، فوز بيهم انت ، ولما ييجى الفراش نبقى يفرجها ربنا ، الحمد لله .. انا كنت فاكر مامعيش ولا مليم ، وعز على ان ارد طلبك ، ولكن الحمد لله ربنا سترها .

ثم مد يده فدفعها فى حافظة نقوده واخرج المائة وخمسين قرشا

واعطاها « لشوشة » ، وتردد « شوشة » فى اخذها قائلا فى كثير من الخجل :

ـــ لكن يا معلم حاتعمل إيه مع الفراش ؟

ـــ خد يا شيخ خد ، يحلها سيدك .. يالله روح استلم شغلك ، احنا ديكى الساعه لما نشوفك قاعد على الحنفيه وربنا يتوب عليك م اللف والمرمطه .

ـــ كتر خيرك يا معلم .. ربنا مايحرمناش منك ابدا ، ربنا يقدرنا على رد جميلك .

واسرع « شوشة » إلى « خليل أفندى » وسارا حاثين الخطا إلى مكتب الشركة بالفجالة حيث أنهى الاجراءات الشكلية ، ثم عاد مسرعا إلى الحنفية فوجد الزبائن متكاكئين حولها فى شبه مظاهرة وهم يتصايحون شاكين متبرمين ، ولم يكادوا يبصرون « شوشة » فى جلبابه النظيف ولاسته وبلغته بلا عربة ولا قرب حتى تساءلوا فى دهش :

ـــ إيه الحكايه ؟ مالك كفى الله الشر ؟ عيان والا إيه ؟

ثم قال أحدهم :

ـــ شايف الرجل النصاب لغاية دلوقت ماجاش !

وقال آخر :

ـــ لازم بايت فى السجن .

وقال ثالث :

ـــ والا فى الاسعاف .

وقال رابع :

ـــ والا فى بيت سر .

وقال خامس :

ـــ والا فى غرزه .

ولم يجب « شوشة » بل تقدم فى خطوات ثابتة متزنة ووجهه عليه سيماء الطرب قائلا فى لهجة حازمة :

ـــ وسع منك له .. خلينا نشوف شغلنا .

فأجاب صوت ساخر :

ـــ شغلك إيه يا عم ؟ إذا كان صاحب الأمر لسه ما صحيش م النوم .. تعال اركن جنبنا هنا .

ولكن « شوشة » استمر فى سيره حتى وصل إلى الحنفية وارتقى السلم إلى المقعد خلفها ، ثم جلس فى تؤدة وفتح الحنفية قائلا فى لهجة آمرة :

ـــ اقفوا ورا بعض صف واحد .. الستات قدام والرجاله ورا .. مش عايزين زحمه ومش عايز زيطه . اللى حايطلع من الصف مش حاصرف له إلا فى الآخر .

وبهت القوم .. ثم ما لبثوا حتى تهللت أساريرهم وصاح أحدهم :

ـــ انت حاتقعد هنا على طول يا معلم شوشة ؟

ـــ إن شاء الله .

فهتف صائحا :

ـــ يعيش المعلم شوشة .

وردد الجمع :

ـــ يعيش المعلم شوشة .

ثم تعالت الصيحات من هنا وهناك : « مبارك يا معلم » . « بركه اللى غار فى داهيه » ، « الحمد لله » ، « الف نهار أبيض » .

* * *

وهكذا تربع « شوشة » على العرش ، واستوى على أريكة المياه ، وبلغ أمنيته الكبرى ، واضحى المانع المانح للمياه فى حى الحسينية ، وكفاه الله شر اللف فى الدروب والجرى فى الحوارى ، واستقر به المقام ، واطمأن به الحال .

وكان حريا والأمر كذلك ان يقلع عن عمله الآخر ، وهو السير فى الجنازات وتشييع الموتى وحمل القماقم وزيارة القبور ، فما كان مركزه الجديد يلائم تلك « المرمطة والبهدلة » وما عادت به من حاجة إلى المزيد من النقود التى يتقاضاها من الجنازات بعد ان زاد دخله زيادة محسوسة .

ولكنه مع ذلك ــ ولدهشة كل من حوله ــ استمر فى عمله الاضافى المشئوم ، وكان لا يكاد يغلق الصنبور ويعود إلى الدار حتى يخرج مرة ثانية حاملا صرة الشغل متوجها إلى قهوة الأفندية .. حيث يعينه الحاج سرور فى الجنازات المطلوبة .

لقد اعتاد شوشة عمله فى الجنازات ، وسره ان ينتصر على المخاوف القديمة والرهبة الموهومة ، وسره أن يتحقق قول شحاتة وان يجد المسألة بعد ان جردت مما علق بها من اوهام .. قد اضحت هينة تافهة ليس بها ما يخيف أو يروع .

لقد سره أن ينتصر على الموت ، وأن يصبح كشحاتة . رجلا شجاعا .. ازيلت عن عينيه غشاوة الوهم .. فنفذ ببصيرته إلى الحقيقة العارية .. وكشف عن روعته الزائفة وروض نفسه على قبوله ، كأمر طبيعى .

لقد بات يحتقى الموت ، ويحتقر ــ اكثر منه ــ الحياة .

وأثار استمراره على السير فى الجنازات ، اقاويل الناس ولغطهم ، ولكنها ــ كما كانت فى المرة السابقة عند بدايته العمل مجرد اقاويل ولغط ما لبثت حتى بددتها الأيام وذرتها ريح النسيان .

امرؤ واحد .. هو الذى لم تستطع الأيام أن تبدد من ذهنه اثر العمل ، بل زاده عمقا وتأثيرا .

كان سيد يكره تلك المشاوير الجنائزية ، ويكره ان يبصر اباه خارجا بالصرة اباها ، ولكنه كان يتلمس بالحاجة عذرا لأبيه ، وينتظر بفارغ الصبر يوم يجلس ابيه فى الكشك فيغنيه الله عن ذلك العمل الرهيب ويصبح فى غير حاجة إلى دريهماته المشئومة .

فلما من الله عليهم بمطلب العمر وحقق لهم الأمنية المنشودة .. طارت نفسه فرحا ، وحمد الله أن خلصهم من الجنازات والأموات . ومن كل ما يتبعها من اقاويل الناس وسخريات الصبية وغمزهم ولمزهم ، وذهب إلى حجرة الصحارة فركل الصرة بقدمه ثم قذف بها داخل الصحارة قائلا فى شماتة :

ــ ربنا تاب علينا منك .

ولكنه لم يتمتع بفرحته طويلا .. فلشد ما أذهله أن يجد اباه فى اليوم التالى قد حملها فى يده وخرج كعادته بعد الظهر .

وهم بالعدو وراءه لاستبقائه وتأنيبه ، ولكنه كان يعرف أباه .. يعرف حزمه واصراره وصرامته ، فكبت غيظه فى صدره وخرج يتسلى باللعب مع اترابه بجوار السبيل .

ومرت الأيام وعادت العجلة تدور دورتها الطبيعية .. شوشة وراء الصنبور صباحا ، ووراء الموتى بعد الظهر ، وسيد فى الكتاب صباحا وفى لعبه حتى المساء ، وأم آمنة قابعة فى مكانها محنية الظهر مطأطأة الرأس مسندة ذقنها إلى خدها .

وفى ذات صباح خرج سيد كعادته إلى الكتاب وقد أمسك بلوح من الصفيح .. وسار بجوار على الخشت يتبادلان الحديث فى شتى توافه الأمور عن الشيخ عبد الرسول وجرادة والبلى والنحلة ، والكرة الشراب وإبراهيم المعيرجى ودقدق .. الخ ...

وعندما وصلا إلى بائع البليلة توقف على وقال لسيد :

ــ انت عليك الدور النهارده .

ــ ازاى بقى ؟

ــ انا مش موكلك امبارح ؟

ــ وانا مش مديلك عشرين بليه امبارح ؟

ــ مانا خسرتهم ، وخدتهم انت تانى .

— وانا مالى . أهم محسوبين عليك . هو انا كمان مسئول عن خسارتك . حد قال لك العب واخسر ؟

— يعنى مش حاتوكلنا ؟

— أنا مستعد اوكلك لو كان معايا فلوس .. لكن ما معييش ، وكلنا انت النهارده وانا لك على أوكلك بكره وبعده .

— لا يا عم لا توكلني ولا اوكلك .. انا رايح آكل لوحدى .

— طب سلفنى نكله ؟

— مابسلفش حد .

— طب هات تمن البلى ؟

— مش جاديك حاجه .

— يعنى عافيه !

— أيوه عافيه .

ومد « سيد » يده فأمسك بتلابيب « على » ومد « على » يده فأمسك بتلابيب « سيد » ، وهمت المعركة بأن تدور لولا أن مر بهما « المعلم على الحمى » وتدخل بينهما مخلصا كل منهما من قبضة أخيه ، زاجرا اياهما بقوله :

— يا واد عيب منك له .. دانتو ولاد حته وجيران ، ميصحش .

وتخلص « على » من المعركة واتجه إلى بائع البليلة ، واتخذ سيد طريقه إلى الكتاب وحيدا وهو يحرق ارم الغيظ بعد أن حرم من طبق البليلة دون صاحبه .

وعندما ذهب « على » إلى الكتاب بعد أن انتهى من طبق البليلة واجتاز الباب إلى الفناء ، وجد سيدا واقفا أسفل النخلة ، وقد التف حوله ثلة من الصبية لم يكادوا يبصرونه حتى أخذوا فى التهامس ، وتعالت من بعضهم ضحكات عالية .

واقترب « على » فى حذر وهو يتوجس خيفة شاعرا ان مكيدة قد

دبرت له وأن خطرا يوشك أن يحدق به ، فلم يكد يصل إليهم حتى أحاطوا به وأخذوا يصفقون بأيديهم وينشدون ما يشبه اللحن قائلين :

علـى يا عـلى   يابتـاع السـزيت
وابوك يا عـلى   ركبـه عفـريت
وامـك يا عـلى   ماشيـه ع الحيط
علـى يا عـلى   يا بتـاع الـزيت

واحمر وجه « على » وبدت عليه سيماء الغضب وهو يرى نفسه محاطا بتلك الحملة الساخرة التى قادها ضده سيد نتيجة لرفضه مشاركته البليلة .

واستمر الصبية فى مظاهرتهم الماجنة الصاخبة حتى دق الجرس ودخلوا الفصول ووراءهم « على » باكى العين .

ومرت الحصة تلو الحصة ثم حلت فسحة الظهر وتفرق الصبية فى أرجاء الفناء ، ولكن البعض كانوا يحيطـون بعلى وقد اخـذوا يتهامسون ، وبدا لسيدٍ أن هناك مؤامرة تدبر للرد على مؤامرة الصباح وان عليا اخذ يجمع حوله الأنصار .. فقد كانت أصابع موزالحلوى وبراغيت الست تفرق بكميات وفيرة دفع فيها كل ما معه من ملاليم .

ولم تمض هنيهة حتى تكتلت الأنصار حول « على » ، ووجد سيد نفسه وحيدا وأخذ يرقب الصبية وهم يتهامسون ويتصايحون وحاول جهده أن يستنتج ماذا يمكن أن يكيدوا له ، حتى يستعد لاجـراءات مضادة .

وفجأة بدأت المؤامرة ، فقد أنتشر الصبية وأحدقوا به كما سبق أن احدقوا بخصمه ، ثم بدءوا نشيدهم الساخر ، بنغمة مختلفة ، ولفظ مختلف قائلين :

ابـوكْ السـقا مـات
بيـمشى فى الجنـازات

ويوصـــــل الأمـــوات
أبـــوك الســـقا مـــات

وفوجىء سيد بأقوال الصبية مفاجأة شديدة . فقد مست منه موضعا شديد الحساسية ، ونكأت فيه أوجع الجروح .

لم يأخذ « سيد » كلام الصبية على أنه لهو ومزاح .. وقول طائش ماجن .. بل انطبعت فى ذهنه فى لمح البرق صورة أبيه يحمل الصرة ، ثم صورته وهو يرتدى الحلة المشئومة ويسير أمام النعوش ويصاحب الموتى ويجول بين القبور ثم صورته وهو مستلق ، كما استلقى شحاتة من قبل .. بلا حراك .. ولا أمل فى حراك .. بل جثة هالكة مفقودة ، لا تلبث حتى توضع فى صندوق وتحمل على الأعناق ثم تغيب فى باطن الأرض .

ومن ؟ . من الذى يحدث له كل هذا ؟

أبوه الحنون الطيب الحازم المرهوب القوى .. الذى حطم الرجل الفحل واطاح به إلى الاسعاف !

أبوه !! نموذج الأحياء ، بل هو نفسه الحياة ، وبغيره لا تكون حياة .. يضيع منه كما تضيع البلية التافهة أو الكرة القديمة . يضيع منه أبدا . يضيع نهائيا . بلا أى أمل فى عودة .

أبوه نفسه ، يغيب فى باطن الأرض ، ويدفن كالقمامة والديدان ! لعنة الله عليهم أجمعين .

انه لا يابه للشتائم والسخريات والمزح .. بل هو نفسه اطول الصبية لسانا واقذعهم سبابا ، ولكن السباب شىء ، وهذه الأقوال المروعة شىء آخر .

لو انهم قالوا له « يلعن أبوك » أو حتى « يا ابن الكلب » أو انهم سخروا منه بأقسى ما يشاءون من الهزء والسخرية ، لاستطاع الاحتمال .. فهو قد تعود منهم الشتائم والسخرية ، وهو أيضا البادى بالشتيمة ، والضارب مضروب ، والشاتم مشتوم .

اما ان يقولوا على أبيه مثل هذا القول المروع ، الذى يبدو كأن له صلة كبيرة بالواقع ، وأنه محتمل الحدوث .. فهذا ما لم يستطع عليه صبرا .

واندفع « سيد » باكيا واقبل على الصبية يمعن فيهم ضربا ، ولكن الخبثاء امعنوا فى الضحك والصياح ، وكلما ازداد هياجه ازداد مجونهم ومرحهم ، حتى كل من الصياح والضرب والهياج والبكاء ، فعاد إلى فصله وجلس على تختته وحيدا يبكى بمرارة .

وكان هياجه وبكاؤه أبعث للصبية على التمسك بالأنشودة والاصرار على ترديدها ، والامعان فيها ، فلو أن « سيدا » قابلها ببرود وهدوء ، لملوا منها سراعا ، ولكن انتاجها فيه هذا الأثر الباهر السريع ، جعلهم أكثر تشبثا بها وجعله العوبتهم كما يتخذون من الأبله الهائج والمجنون المندفع ، موضع تسلية ووسيلة لهو .

وعندما انتهت الدراسة ، عاد « سيد » إلى البيت مشيعا .. بالأنشودة إياها ، وهو يعدو وراء الصبية ويقذفهم بالحجارة وبكل ما تصل إليه يده .. وفى البيت أمضى بقية اليوم حزينا مهموما ، ولم يحاول الخروج للعب .

وفى اليوم التالى تكرر الأمر ، وعاد « سيد » إلى البيت أشد حزنا ، وأكثر غما .. ولم يحاول الخروج للعب ، حتى دهشت « أم آمنة » وصاحت به متسائلة فى انزعاج :

ـــ مالك يا سيد .. انت عيان ؟

ـــ لا .

ـــ أمال مالك ؟ تعالى وريني أورنك لما أجسها .

ـــ قلت لك مش عيان ولا حاجه .

ـــ أمال ما بتخرجش تلعب ليه مع العيال ؟

ـــ عشان عندنا سوره لازم احفظها .

ـــ طيب يا خويا ربنا يهديك وينجحك .. القرآن مفيش أحسن منه .

وكان اليوم يوم خميس ، ولم يكن ابوه فى البيت ، وكان واثقا أنه قد خرج إلى احدى الجنازات ، إذ لم يجد للصرة المنحوسة اثرا فى حجرة الصحارة .

وقبيل المغرب عاد ابوه ، وقد تحقق ظنه .. فقد دخل الرجل من باب البيت .. ليس حاملا الصرة فقط .. بل ـــ شرا من ذلك ـــ مرتديا الحلة نفسها ، وواضعا الجلباب تحت ابطه .

ولم يحتمل « سيد » أن يراه بمنظره هذا ، فآوى إلى مضجعه ووضع راسه فى الوسادة واندفع فى البكاء .

وفى مخبئه سمع صوت أبيه يسائل « أم آمنة » :

ـــ امال سيد فين .. مارجعشى من بره ؟

ـــ دا جوه عندك ، مخرجش ابدا .

ـــ ليه .. كفى الله الشر ؟

ـــ آل بيحفض سوره .

ـــ ما شاء الله ، ربنا يهديه .

ثم علا صوت أبيه منادياً :

ـــ سيد .. سيد .

واسرع « سيد » بكفكفة دمعه ومسح أنفه بكم جلبابه ، ثم أجاب على أبيه :

ـــ أيوه يابا .

ـــ انت فين ؟ تعالى .

ـــ حاضر يابا .

وتريث « سيد » برهة ريثما يذهب عنه أثر البكاء ، ثم حمل اللوح معه وذهب إلى حجرة أبيه .

وفى الحجرة وقف يرقب الرجل ، وهو ينزع عنه ملابس الأموات ، وعندما رآه الرجل قال مازحا :

ــ هيه يا شيخ سيد .. حفضت السوره .. ربنا يجعلنا من بركاتك ، ادعى لنا « يا شيخ سيد » .

ودعا الصبى بحرارة من صميم قلبه :

ــ ربنا يخليك يابا ، ربنا يطول عمرك .

ونظر الأب إلى عينى ابنه .. فلمح على الضوء القريب الباهت المتسلل من النافذة احمرارا ينبىء عن آثار بكاء .. فتساءل فى دهش :

ــ ايه ده ؟ . انت كنت بتعيط ؟

ــ لا يابا .. دا أصل عينى انطرفت ودعكتها .

وارتدى الأب جلبابه ، ثم جلس على حرف الفراش ، وقال « لسيد » متباسطا :

ــ حفضت سورة إيه ؟

ــ عم .

ــ انت لسه فى جزء عم ؟

ــ خلاص ختمناه النهارده ، وحانمسك فى تبارك .

ــ طب اسمع بقى يا عم .. ما دام ختمت جزء عم .. إيه رأيك لو نخرج نتفسح سوا .

وبدا البشر على وجه الصبى وتهللت أساريره وتبددت منه سحب الهم التى أثقلت نفسه وصاح فى فرحة ظاهرة :

ــ بحق وحقيق ؟

ــ أمال .

ــ حانتفسح فين ؟

ــ تروح القهوه معايا .

ــ ودى فسحه دى .. تفضل انت تلعب فى طاوله .. وأنا قاعد أنش .. لا يا عم ما تنفعنيش الفسحه دى .

ــ أمال نروح فين ؟

ـ نروح التياترو اللى اتنصب فى الحته الفاضـيه اللى قدام البوابه .. بيقولوا فيه حاجات هايله .

وصمت الأب برهة وبدت عليه سيما التفكير كأنما يزن قول ابنه ثم هتف فجأة :

ـ اسمع يا سيد .. إيه رأيك لو نروح الحمام .. احنا بقالنا مده مارحناش ؟

وصاح سيد فرحا :

ـ هايله .. يا سلام يابا .. انا كان نفسى أقول لك من زمان لكن خايف تقول لى لأ .. لحسن تغرق فى المغطس .

وضحك شوشـة قائلا :

ـ انت فاكر .. آخر مره ، لما كنت حاتغرق .. لكن انت كبرت دلوقت وطولت مافيش خوف خليك ، اقف كده ورينى طولك .

وقفز سيد واقفا وهو يشب على اطراف اصابعه وقال ضاحكا :

ـ شايف .. إيه رأيك مش بقيت أطول منك ؟

ـ بزمان ، مش معقول المغطس يغرقك .

ـ بس اسمع أنا عايزك تعلمنى العوم .

ـ حاضر .. يالله بينا .

ـ أما اقول لستى عشان تحضر لنا غيار .

ـ وعايزين نوضب لنا عشوه كويسه ناكلها هناك بعد ما نستحمى .

ـ وجب .

وخرج الاثنان من الحجرة فى فرحة ظاهرة ، واتجه سيد إلى جدته يتراقص متواثبا وارتمى بين احضانها قائلا :

ـ أم آمنه يا ويكا .. رايحين الحمام يا ويكا ، وحانتعشى هناك يا ويكا .. وحانسيبك لوحدك يا ويكا .

ـ ولزومه إيه الحمام دلوقتى بس . دى الدنيا بردت .. ما اسخن لكم ميه فى الصفيحه ، وتستحموا هنا وتستكنوا فى الأوده .

ـــ طب بس وحياة أبوكى بلاش الشوره المهببه دى ، بلا صفيحه .. بلا هباب .. هو انتى غاويه شقا .. احنا حانروح نعبوم فى المغطس .. الغيار فين ؟

ـــ أهو عندك فى الصندوق .. خد لك لباس وفانله وجلابيه وخد الصديرى الصوف وخد كمان الجاكته القديمه بتاعة أبوك عشان تلبسها وانت خارج ، وخد الطاقيه معاك لحسن راسك تبرد ، وقول لابوك ياخد البالطو معاه وياخد الشال .. إنا عارفه بس لزومه إيه الحمام ده ؟

ولكن « سيدا » تركها وهى فى منتصف الحديث واندفع يخطف ملابسه من صندوق الملابس ، وبعد لحظة كان يقف أمام أبيه متعجلا :

ـــ يالله يابا .. انا جاهز .. انت جاهز ؟

ـــ يالله بينا .. خليتك بعافيه يالم آمنه .

ـــ الله يعافيك يابنى .. خد بالك م الولد كويس . لفه كويس واوعى يستهوى منك .. بس هوا يعنى كان لزومه ايه .. ما كنت اسخن لكم ميه فى ...

ولكن « سيدا » سحب اباه بسرعة إلى خارج الدار قبل أن يسمع بقية الاقتراح ، وسار الاثنان عابرين درب القط إلى درب عجور إلى شارع البغالة إلى الحسينية ، وفى الطريق ابتاع المعلم شوشة من عربة الكفتة الواقفة على ناصية الشارع رغيفين ملأهما بالكفتة والمبار والكباب وبعض قطع الطرشى ولفهما فى ورقة وتأبط اللفافة متجها إلى الحمام .

الفصل الحادي عشر

كيف ماتت

وصل شوشة إلى حمام الحسينية والشارع مزدحم بالباعة والمارة ، وعلى باب الحمام قد وقفت « عربة بطاطا » قد اتكأ صاحبها باحدى قدميه على يد العربة ، ثانيا ركبته ، ممسكا باحدى يديه « جوزة » وجعل يشد منها النفس بعد النفس وقد رصت البطاطا النيئة فوق العربة ووضع فى ركن منها الفرن الأسود ذو المدخنة وقد احتشدت فى جوفه البطاطا اللينة الحلوة الحارة المكتنزة كأفخاذ الغيد وأخذ ينفث الدخان فى الجو كزفرات العشاق .

وبدا الحمام بنوافذه ذات القضبان الحديدية المتقاطعة والضلف الخشبية المغلقة التى علتها الأتربة وخيمت عليها العناكب ، وفوق الباب قد وضع مصباحان زجاجيان علق كل منهما فى احد الأجناب .

وهبط « شوشة » بضع درجات دانعا الباب الزجاجى ، وعبر ممرا ضيقا أفضى به إلى قاعة رحبة غير منتظمة الشكل قد رصت بها دواليب خشبية قديمة وضعت بها المناشف ، وعلى الجانب الأيمن للقاعة مصطبة فسيحة عريضة اقيمت على حافتها أعمدة ضخمة مستديرة واصلة إلى السقف المرتفع ذى الضلف الزجاجية ، وعلى المصطبة تمددت بضعة اجساد ملتفة بالمناشف وكأنها جثث لا حراك بها ، وبجوار الأجساد الممددة التى انتهت من الحمام وقف بضعة رجال يخلعون ملابسهم ويلفون

البشاكير حول خصورهم ساترين نصفهم الأسـفل استعدادا لدخول الحمام .

وعلى يسار القاعة وفى مواجهة المصطبة ذات العمدان ، أو حسب الاصطلاح الفنى « اللوان » توجد حجرة زجاجية يصعد إليها ببضع درجات يستعملها الخاصة من المستحمين بدل اللوان .

ولما كان المعلم شوشة يعتبر من خاصة المستحمين لا سيما بعدما تسلم الحنفية فقد أمسك ابنه واتجه إلى الحجرة بعد أن ألقى بضع تحيات إلى موظفى الحمام وإلى بعض المعارف من الزبائن ، وكانت الحجرة محاطة بالأرائك الخشبية التى صفت عليها الحشيات وغطيت بالملاءات الحلاوى الحائلة اللون وقد تمدد على الأرائك بعض أفراد من المستجمين ، وكان أحدهم يرقد على وجهه وقد وقف بجواره رجل من عمال الحمام انهمك فى تدليكه وتكبيسه ، وبين آونة وأخرى تسمع طقطقة من عظام الرجل وتنهيدة راحة من شفتيه .

وفى جانب الحجرة الخالى من الأرائك وبجوار النافذة المطلة على الشارع والمغلقة الزجاج وضع « كنصول » .. ذو مرآة مغبشة مشققة مهشمة الحروف ورف خشبى ذو قوائم مكسورة موصولة مدهونة باللاكيه الفزدقى المترب .

وأخذ شوشة وسيد فى خلع ملابسهما ولف كل منهما منشفة حول نصفه الأسفل ومنشفة أخرى حول صدره ورأسه ، ولفا الملابس القذرة فى صرة سلماها لأحد عمال الحمام الذى وضعها فى دولاب بالحجرة وكذلك تسلم منهما الملابس النظيفة فوضعها فى دولاب آخر .

وهبط الاثنان من الحجرة الزجاجية وعبرا الفناء أو القاعة متجهين إلى باب الحمام ، ودخلا إلى حجرة بها مصطبة تمدد عليها عدد آخر من الجثث المستحمة ، ودهليز يفضى إلى باب آخر فى المواجهة وقد ملىء جوها بالبخار وبدا سقفها مقببا ذا عوينات زجاجية .

كانت هذه هى « باب أول » حيث الحرارة وسط بين الحمام وخارجه ، كى يستريح المستحمون برهة فوق المصطبة حتى « تستهدى » اجسامهم وحتى لا يتعرضوا للبرد بانتقالهم المفاجىء من الحمام الحار إلى الصالة الباردة .

ونزع شوشة وابنه المناشف عن جسديهما ووضعاها على المصطبة ثم دلفا من الباب المواجه إلى الحمام نفسه .

وفوجىء « سيد » ببخار كثيف ثقيل يعتم الجو ويحجب ضوء بضعة الفوانيس المتناثرة فى أرجاء الحمام ، ونفذ البخار الثقيل إلى انفه وحنجرتهفاندفع فى سعال شديد ضايق أنفاسه .. ولم يستطع احتمال البقاء فصاح بأبيه وهو يسعل :

— آبا .. مش قادر .

وضحك الأب وجذبه من يده :

— خش ما تخافش .. دلوقت تاخد عليه .. مانتش فاكر المره اللى فاتت برضه عملت كده ؟

— مافيش حاجه بتضايقنى فى الحمام غير الدخان ده .. مافيش حمام من غير دخان ؟

— ويبقى حمام إيه ده .. البخار ده هوا اللى بيدفيه ويخليه حمام .

وبدت فى الحمام من الداخل رحبة يتوسطها إيوان رخامى مستدير فى منتصفه نافورة وقد رقد على الإيوان رجل عار وقف بجواره عبد الله المكيساتى الشبيه بعفاريت الليل .. بارز عظام الوجه والجسد ، يتصبب جبينه عرقا وقد أدخل فى يمناه كيسا جلديا اشبه بالقفاز وأخذ يدلك جلد الرجل الراقد بعنف وقوة وفى كل دعكة يخرج منه اقذارا مبرومة سوداء يلقى بها بجوار الإيوان .

ويحيط بالرحبة أبواب تفضى إلى مختلف انحاء الحمام فالباب الأول يقود إلى المغطس الحار وهو عبارة عن حجرة ضيقة يصعد إليها الداخل

ببضع درجات ثم يجد فى ارضها حفرة متسعة مليئة بالمياه كأنها قد حفرت فى الصخر تملأ رحاب الحجرة إلا حافة ضيقة تحيط بها كالمشى والماء يتساقط من ماسورة فى السقف المقبى ذى العوينات الزجاجية ، ودرجة حرارة الماء فى المغطس تكاد تصل إلى درجة الغليان .

أما بقية الأبواب فيفضى أحدها إلى المغطس العادى وهو أوسع من المغطس الحار وأقل حرارة ، والأبواب الأخرى تفضى إلى خلوات بها أحواض مياه وصنابير يغتسل فيها الزبائن .

وكان المستحمون قد انتشروا فى أرجاء الحمام ما بين مغتسل وغاطس وداعك بالليفة والصابونة ، وكانوا يبدون بأجسادهم الكرشاء السمينة أو العجفاء النحيلة وقد لفهم البخار الثقيل كأنهم أشباح أو جن يتحركون بلا صوت ولا همس .

وذهب شوشة وابنه إلى المغطس العادى وهبط الرجل بجسده فى الماء ثم تلقى ابنه بين ذراعيه واخذا يعبثان فى الماء الساخن ضاحكين مرحين وبعد برهة قال شوشة :

ــ انا حاطلع بقى عشان اتكيس ، وانت تروح تليف نفسك كويس .

ــ ما تخلينا هنا فى المغطس احسن .

ــ المغطس ما يطلعش الوساخه .

ــ مش ضرورى .. عنها ما طلعت .. احنا عايزينها تطلع ليه ؟ . احنا بندفع عليها أرضيه ؟

ــ يابنى حد ييجى الحمام ولا يطلعش الوساخه اللى على جتته .. دى النظافه من الإيمان .

ــ بس إيه دخل النظافه فى الإيمان يابا .. ما تخلينا فى المغطس مستريحين وسيبك من الوساخه .. دى طلعت ما طلعتش عنها ما طلعت .

ــ عايز تقعد فى المغطس خليك .. انا حاروح اتكيس علشان أفوق واستريح .

وخرج شوشة من المغطس وكان عبد الله قد انتهى من تكييس الرجل الراقد على الفسقية .. فاستلقى شوشة مكانه وتلقاه المكيساتى مرحبا بقوله :

ــ اهلا وسهلا .. والله زمان يا معلم .. بقالنا مده ما شفنكش .

ــ مشاغل الدنيا يا عم عبد الله .. والله ان كان على ماسيبش الحمام أبدا .. لكن فين الوقت .

وبدأت عملية التكييس ، وشنوشة مستسلم ليد الرجل فى استرخاء وخمول ، وظل الرجل يدعك فى جسده بالكيس حتى كاد يجلطه ، واخيرا نهض شوشة واتجه إلى المغطس ليخرج سيد .

وذهب الاثنان إلى أحدى الخلوات ، ولم يكد سيد يرى الليفة والصابونة حتى بدا عليه الغم وتمتم قائلا :

ــ آدى عيبه .. جالك الموت يا تارك الصلاة .

ثم قال لأبيه :

ــ ما بلاش يابا حكاية الليفه والصابونه ؛ انت حاتعمل زى ستى .. هوا الصابون دا ورانا ورانا .

ــ ما تخافش مش حاجيب الصابون نواحى وشك .. انا حاليف جسمك قوام واغسل انت وشك .

وأخيرا انتهى الاثنان من الاغتسال بالليفة وصبا على جسديهما من الماء ما أنزل الصابون ، ثم اتجها إلى المغطس مرة ثانية فأخذا يتمتعان بالتلوى فيه والاسترخاء واللعب ، ثم أخرج الأب ابنه قائلا :

ــ أظن كفايه بقى .. يالله بينا ؟

ــ ياالله .

وجفف كل منهما جسده باحدى المناشف ، ثم التفا فى بشكرين كبيرين وخرجا إلى باب أول فاستلقيا فى خمول على المصطبة .

وتثاءب الأب فى تكاسل وهو يتمطى ويمدد جسده ، وقد رقد ابنه بجواره وقال فى غبطة ظاهرة وقد زفر زفرة حادة مريحة :

ـــ يا سلام .. حاجه تهدى الأعصاب وتريح الجته .. انا بعد المشوار اللى خبطته النهارده ، كنت فاكر انى مش حاستريح ولا بعد سنه .. كانت جنازه سخنه .

وكان « سيد » حتى هذه اللحظة يشارك اباه فى احساسه بالراحة والغبطة ان لم يزد عنه ، ولكن لم تكد تصك أذنه كلمة « الجنازة » حتى استيقظت همومه ونكأت جراحه ، واندفع إلى ذهنه فى سرعة البرق معاكسة الصبية له وسخريتهم منه وانشودتهم عن موت أبيه .. والصرة والحلة المشئومة والقبور ، واحس بالدمع يصعد إلى مقلتيه كأنه مياه النافورة .

وتلفت الأب إلى ابنه فأذهله أن يجد الدمع يفيض من عينيه ، ولم يتصور فى بادىء الأمر أنه بكاء وقال متسائلا :

ـــ عينيك لسه حمره من الحمام ؟

ولم يجب الابن فقد كان يحاول جهده كبت مشاعره ، وعاد شوشة يتساءل فى دهشة :

ـــ مالك .. ما بتردش ليه ؟

واجاب « سيد » .. ليس بالكلام .. ولكن بالاندفاع فى البكاء . ذهل الأب ونهض بجسده نصف قومة وامسك بذراع ابنه وتساءل دهشا :

ـــ إيه الحكايه ! ؟ مالك ! ؟ جرى إيه ؟

ـــ ولا حاجه .

ـــ مش ممكن لازم فيه حاجه ، قول إيه الحكايه ؟

ولم يكن هناك بد من أن يتكلم « سيد » فيفرغ كل ما فى نفسه .. قال الصبى :

ـــ أصل يابا الحقيقه ان انا بخاف من الجنازات اللى بتطلعها دى ، وكنت زمان بقول يمكن محتاجين ، لكن دلوقت لزومها إيه ؟

ـــ وتخاف منها ليه ؟

ـــ بخاف عليـــك .. انا بقالى جمعـــه والولاد فى الكتاب كل ما يشوفونى يتلموا على ويقولوا لى : أبوك السقا مات ، بيمشى فى الجنازات ، حايحصل الأموات .

ــ وانت بتنكسف ؟

وأجاب « سيد » هازا رأسه بشدة :

ــ أنا أتكسف ؟ !! اتكسف من إيه ؟ أنا مابتكسفش منك ابدا .. لكن بخاف عليك ، لحسن كلامهم يتحقق ، بخاف من قرهم عليك .

وتضاحك الأب قائلا :

ــ ولا يهمك .. خليهم يقولوا زى ما هم عايزين .. عمر القر ما فاد ولا ضر .

ــ ما هى لو كانت الحكايه حكاية قر وكلام فى الهوا مكانش يهمنى .. لكن دا قر فى محله .. أنا مفيش حاجه مخوفانى من الكلام .. إلا ان انا بلاقى له أصل .. انا كل ما بلاقيك شايل الصره اللى كان شايلها « شحاتة افندى » ولابس البدله اللى كان بيلبسها ، يبقى متهيالى انك حايجرالك زى ماجراله ، يبقى متهيالى انك حاتنام نومته ، وما ترضاش تصحى أبدا ، وبعدين ياخدوك يشيلوك غصب عنا ويحطوك فى الصندوق زى ما عملوا فى « شحاتة أفندى » ، ولا يرجعوكش لنا أبدا ، ونقعـد لوحدنا انا و « ستى أم آمنة » .

ولم يكد الصبى يتم حديثه حتى أجهش بالبكاء ، واخفى وجهه بذراعه ، واخذ جسده الصغير العارى الملتف فى المنشفة يرتجف .

ولم يحاول الأب التضاحك فى هذه المرة ، ولو حاول لما استطاع ، فقد سرت نوبة الحزن والتشاؤم من الابن إليه ومد يده فربت عليه بحنان وقال :

ــ بس .. بس .. عيب يا سيد عيب .. انا بقول عليك راجل كبير .. حد يعيط كده من شوية أوهام ؟ ثم افرض انها تحققت .. تقوم

برضك تعيط كده زى النسوان .. الراجل لازم يكون راجل ، وياخد الحكاية دى بسهوله .. أمال انا بطلع ليه ورا الجنازات ، مش عشان الواحد يعود نفسه على وحشة السكة اللى مسيره يقطعها .. انا كنت زمان برضك بتوهم منها ، كنت فاكرها حاجه صعب ، حاجه مخيفه لكن لقيتها كلها كلام فارغ وهايف ، وإذا ما كانتش حاتحصل لنا النهارده حاتحصل بكره أو بعد بكره .. والواحد بيفكر بكره بعيد ، لكن ما أسرع ما ييجى بكره ، وبعد بكره .. ليه تخاف من الموت ، ما دام حاصل حاصل ، هوا فيه حد مش حايموت .. كلنا حانموت ، كل حى لازم يموت ، وانا حى فلازم حاموت .

ورفع « سيد » رأسه إلى أبيه فى ارتياع وتساءل فى استنكار ودهش :

ــ لأ يابا ماتقولشى كده ، أنت مش حاتموت ، مش ممكن تموت ، تموت ليه ؟ انت ما بتعملش حاجات وحشه ، ولا انت عجوز ، ولا عيان ، وانا عايزك ، تموت ليه ؟

وصمت الرجل برهة قبل أن يجيب ورفع كفه إلى جبينه ثم إلى عينيه وبدا كأنه يغالب فى اعادة بعض قطرات من الدمع فرت من مجاريها ، وشرد ذهنه ، وبدت على وجهه علامات حزن دفين ولوعة مكبوتة . ثم قال أخيرا فيما يشبه الهمس كأنما يحدث نفسه :

ــ هى كما كانت كده ، عمرها ما عملت حاجه وحشه ، ولا كانت عجوزه ، ولا عيانه .. وكنت أنا وانت عايزينها .. لكن ماتت ، ماتت ليه ؟ . معرفش .

وتساءل « سيد » فى دهش :

ــ هى مين يابا !

ــ أمك .. ياما سهرت الليالى أسأل نفسى ، واســـأل السما والنجوم ، وربنا : ماتت ليه ! . وعشان إيه ؟ . لكن ما كنتش بلاقى جواب .. ماكنتش بلاقى سبب .. غير ان الموت بلا سبب .. زى

الحيا .. ليه بنتولد ؟ . وليه بنموت ؟ مين يعرف !
أمه ؟ !!

كانت المرة الأولى التى يحدثه أبوه عن أمه .. فما حاول من قبل أن يجرى ذكرها على لسانه .. انه لم يرها قط ، ولم يحدثه عنها أحد ، ولم يحاول هو أن يستفسر عنها .. فقد صدته الأجوبة المقتضبة والهته ملاهى الحياة ومشاغلها ، ولم تشعره جدته ولا أبوه .. بحاجته إلى أم .. فبدا له أنه قد خلق هكذا بلا أم ، وانه ليس من المحتم ان يكون لكل انسان أم كأمهات أصحابه من الصبية .

لم يكن يشعر بالفراغ ، ولذلك لم يشعر بالتالى بفقدان ما كان يجب أن يملأ الفراغ .. كان يجد ما يكفيه من المحبة ، والعطف والحنان .. لقد تضخم أبوه فى حياته بحيث ملأ عليه كل فراغ وبحيث شغل مكان الأب والأم .. فأحس « سيد » .. ان المرء يمكن أن يعيش بلا أم ، ولكن تستحيل عليه الحياة .. بلا أب .

وهو يذكر جلسة أبيه وراء النافذة كل ليلة ، ونفثه الدخان ، ورنوه إلى النجوم والسماء .. كأنما كان يسألها عن شىء أضاعه .. أو عن معضلة أعياه حلها .

وهو يذكر جلسة جدته واطراقها وشرودها وذقنها المسند فى كفها ، ويدها المقلوبة التى تطرق ركبتها ، وراسها المتململ يمنة ويسرة . وحديثها الهامس لنفسها بين آونة وأخرى ، كأنها تتساءل عن شىء .. أو تطلب حاجة ، وعندما كان يسألها عما تطلب كانت تفيق إلى نفسها قائلة :

ـــ ولا حاجه .

إذا فهذا هو الشىء الضائع والمعضلة المستعصية التى أضنت أباه .

إذا فهذا هو السؤال الحائر ، والمطلب الممتنع الذى أعيا جدته !

وبدا للصبى أن الفرصة سانحة لكى يحمل عبئه .. الذى سها عن

حمله طوال السنين الماضية ، ولكى يشارك أباه وجدته ، وجيعتهما ، واحزانهما ، وسهرهما ، وشرودهما ، وسؤالهما عن المطلب الضائع .

ولم لا .. اليست أمه ؟

الا يحق له أن يعرف عنها كل شىء ؟

ورفع الصبى رأسه إلى ابيه ، وبلا ارادة ولا وعى ، وجد شفتيه تنطقان بالسؤال الذى لم يخطر له ببال من قبل :

« كيف ماتت ؟ » .

وكان الصمت قد خيم ، والمكان قد خلا إلا من الرجل وابنه ، والبخار قد تكاثف فى الجو فبدد اشعة المصباح الهابطة من اعلى السقف .

واستند الأب بظهره إلى حشية على المصطبة بجوار الجدران وجذب ابنه إليه فألصقه به محيطا إياه بذراعه ثم أعرق برأسه وانطلقت من صدره زغرة حارة وعاد يردد قول الصبى :

« كيف ماتت ؟ ! » .

ثم انبرى يقص القصة ويجيب عن السؤال .

❋ ❋ ❋

ماتت كما يموت كل انسان .

سكتت أنفاسها وتصلب جسدها وبردت أطرافها .

واضحت لا شىء بعد أن كانت كل شىء .

من كان يصدق انها ستموت ؟

ذلك الجسد القوى ، والوجه النضير ،والثغر الباسم ، والعينان الضاحكتان المتلألئتان .. من كان يصدق أن كل ذلك يمكن أن يقبع فى حفرة رطبة مظلمة بباطن الأرض ، مسلوب الحركة فاقد الحياة .. ليصبح بعد حين هيكلا قد أكله البلى وعظاما قد نخرها السوس ؟ . من يصدق

أن هذا الكوم من العظام كان في يوم من الأيام ربة البيت التي تفيض فيها الحياة وتتفجر منها العافية ؟ من كان يصدق أن تلك الجمجمة المخيفة التي قرعتها بقدمي كانت هي نفسها الرأس الفاتن ذا الجدائل الحالكة والشفاه الوردية ؟ من كان يصدق أن هذا الرماد المكون لأديم الأرض هو نفس الجسد الفارع الباسق الذي ابصرته أول مرة في حديقة السراي فكأنه النبت الزكي والشجرة المزدهرة ؟ من يصدق أن آمنة التي كانت تطاول السماء .. قد باتت موطئا للأقدام ؟

انى لأذكرها يوم ذاك وقد هبطت من الطابق العلوى قبيل الشروق وانا املأ حوض النافورة ، وهى تبتسم في دلال وتسألنى أن اسقى شجرة التمرحنة .

ولم اكن مسئولا بالطبع عن سقيا الشجر فقد كان ذلك من عمل البستانى وكان عملى مقصورا على حمل المياه وافراغها في الحوض ثم ملء الأزيار والصفائح والطشوت وغيرها من خزانات المياه الموجودة بالدار .

ولكن لم استطع حينذاك ان ارفض طلبها لا سيما وانها انبأتنى أنها قد غرستها بيدها وأنها تخشى أن يهملها البستانى فتموت وهى عزيزة عليها حبيبة إلى نفسها .. وضحكت ووعدتها ان اداوم على سقيها يوما بعد يوم ، وأن تجعل مسئوليتها في عنقى ما دامت تعتز بها كل هذا الاعتزاز .

وكنت أعرفها من قبل فقد سبق لى أن رأيتها ضمن ثلة الخادمات اللاتى تكتظ بهن السراى ، وكنت أستطيع بسهولة تمييزها من بين عدة الوجوه التى تتوالى على رائحة غادية .

ولكنها كانت المرة الأولى أن اباد لها الحديث ، وان تكل إلى بعمل خاص بها وتخاطبنى كما يخاطب المرء صديقه وتضع في عنقى شيئا مزيزا لديها اتولى سقياه والسهر على حياته .

ومن ذلك الحين بدأت أشعر بشيء يربطني بها ويشدني إليها ، واعتبرت سقيا شجرتها العزيزة واجبي الأول في الحياة .

كنت أراها كل صباح إما في المطبخ حين أصعد لملء الأواني وإما في الحديقة حين تهبط لتلقاني أو لتطمئن على شجرتها .

وكان كل يوم يمر يجعلني أشعر أننا لسنا غريبين أحدنا عن الآخر ، وأنه لابد أن يكون بيننا سابق عشرة أو قديم معرفة . . .

كانت صبوحة مشرقة الوجه ، دائمة البسمة ، وكان اشراقها سريع الانعكاس في نفسي وبسمتها سريعة التردد بين جوانحي . . فكنت لا أكاد أراها حتى تشرق مني النفس ويضحك القلب وتصفق الروح .

ولشد ما سرني أن أسمعها ذات صباح تسألني عن شجرة التمرحنة بقولها : « شجرتنا » ، فقد أحسست أنه قد بات بيننا شيء مشترك ، وأن لنا مصلحة واحدة . . تافهة مهما كانت . . فهي تربط بين أحدنا وصاحبه .

وبدأ بيننا دور التعبير عن المشاعر بالهدايا . . أحملها إليها وتحملها إلي خلسة ، وبعيدا عن الأعين . . أنا أقتصد من دريهماتي لأبتاع لها منديلا للرأس أو قطعة رخيصة من الحلي . . حلقا أو خاتما أو أسورة ، وهي تقتصد من طعامها لتحمل إلي بعضه . . أو تقتصد من مصروفها أو تحتجز من أجرها الذي تعول بها أمها دريهمات لتبتاع لي منديلا أو جوربا .

وكما سقيت الشجرة فترعرعت ، سقى الله حبنا فترعرع ، وباتت الحياة عندي تنحصر في تلك الهنيهات التي أحمل فيها الماء إلى السراي الكبيرة ، والتي فيها آمنة نتبادل النظرات أو التحيات أو الكلمات .

وفي ذات يوم ألمت بي علة . . بدأت في المساء خفيفة ثم زادت سطوتها واستشرى شرها طول الليل ، فلم أذق النوم إلا لماما وأنا أتقلب على أحر من جمر الغضى وقد جف حلقي والهبت الحمى رأسي .

وفي الصباح . . لم أقو على النهوض ، وكنت أسكن في حجرتي

وحيدا ووجدت نفسى أستسلم إلى ما يشبه الغيبوبة ؛ ورقـدت فى الفراش كالجثة الهامدة .. لا اقوى حتى على الاستنجاد بأحد يحمل دواء أو يبل لى شفة .

وقبل الضحا سمعت طرقا على الباب فأمرت الطارق بصوت خافت بالدخول وإذا بى أفاجأ بآمنة تدفع الباب ببطء وحذر وتناديني فى تردد وخشية

وذهلت واجبتها بقدر ما أستطيع من جهد .

كانت آخر من أنتظر دخوله .. كنت أتوقع أن يحضر إلى جار أو زميل .. اما أن تترك هى عملها وتحضر إلى فى البيت .. فكان امرا بعيدا عن تصورى .

وأقبلت على جزعة تتحسس جبينى ولاطفتنى مطمئنة ببضع كلمات حنون ، ثم غابت عنى لحظة ورجعت فجلست بجوارى ومعها خرقة غمستها فى طبق خل ووضعتها على جبينى ، وظلت تمسح بالخرق على جبينى حتى أحسست بالحرارة تهدأ بعض الشيء ، وشعرت برغبة فى النعاس فأحكمت الغطاء حول جسدى وحذرتنى من رمعه ؛ ثم غابت لحظات أخرى وعادت حاملة إلى اناء من اللبن وبضعة برتقالات وسألتنى أن أتناولها .

وغادرتنى وقد تحسنت حالتى بعض الشيء ، وفى الصباح التالى استيقظت على صوت طرقاتها الحذرة وخطواتها المتسللة ، وكانت تحمل فى يدها بعض القراقيش واناء من اللبن ، وجلست بجـوارى وتحسست جبينى بيدها .

وكنت أحس بكثير من التحسن ، رغم أن الحرارة لم تكن قد هبطت تماما ، ورغم أن قواى كانت ما زال بها كثير من انحطاط .. ولكن كان لابد لى من النهوض فان عملى لا يتحمل الرقاد أو الانقطاع . والناس ان صبروا على المياه يوما فهم لا يستطيعون أن يصبروا يوما آخر ..

وان هم استعانوا بسقا آخر استحل مكانى واستمرأ مرعاى وطارت زبائنى ، ولذا فقد عزمت على النهوض .

ونظرت هى إلى مؤنبة دهشة ، وانبأتنى انها لن تتركنى انهض باية حال .. والا اصابتنى نكسة اعادتنى إلى شر مما كنت عليه ، ولكننى اصررت على ترك الفراش قائلا لها : ان الناس لا يستغنون عن مياهى وانا لا استغنى عن نقود الناس .. وخير لى أن أعيش مريضا من ان أموت جوعا .

ولكنها خاطبتنى بقولها ان المياه ستصل إلى الناس وأن النقود لن تنقطع عنى ، وانى لن اموت جوعا وهى على قيد الحياة .

وكان قولها عجيبا ، ولكن أعجب منه كان فعلها .. فقد أصرت على أن تحمل هى المياه إلى الزبائن حتى أبل من مرضى ، وكان من الجنون أن اقبل منها عرضها ، وأن أترك امراة تقوم عنى بعملى الشاق ، ولكنها انذرتنى ان لم ادعها تقوم بما أرادت .. فلن أراها بعد ذاك ، وستقطع كل ما بيننا .. حتى الشجرة ستقتلعها من مكانها .

ولم يكن هناك مفر من الاستسلام لاصرارها .. ولو كنت فى صحتى وفى كامل قواى ، لكنت أقدر على اخضاعها .. ولكن الرأس الملتهب ، والجسد المنهك ، والنفس الواهنة ، والداء الذى لم ينصرف بعد .. كل ذلك تعاون على غلبتى ، فرقدت مستسلما ، وخرجت هى لابسة السطيح حاملة القربة .

وشاهد حى الحسينية يومذاك لأول مرة ولآخر مرة فتاة تحمل القربة ، وتسير مثقلة بها ، لتملأ الأزيار والصفائح ، ولتجيب على الزبائن بأن شوشة مريض وانها تقوم بالسقية بدله حتى يبل .

وفى اليوم التالى استيقظت من الفجر ، قبل ان تحضر إلى واسرعت بالقربة إلى السراى الكبيرة وهناك افرغتها وسألت عن آمنة ، ولكن لدهشتى أنبأونى أنها غير موجودة !

لم ؟ .. لانها طردت .. لهربها من البيت .. وغيابها طيلة أمس .

وروعنى النبأ فى بادىء الأمر .. ولكن الفكرة دارت فى رأسى ، فشعرت منها بنشوة وطرب .. ولم ألبث حتى حثثت الخطا إلى بيت أمها .. بعد أن سألت عنه إحدى الخادمات .

وهناك وجدتها ترقد وأمها ، ولم تكد تبصرنى حتى صاحت بى فرحة متسائلة عما أتى بى فى هذا الوقت المبكر ، ولم تركت فراشى ؟ وقلت لها انى قد ابللت وانى سمعت عن طردها من السراى الكبيرة وانى قد فرحت للنبأ لأنى صممت على نقلها إلى السراى الصغيرة .. إلى حجرتى المتواضعة .

ودخلت على أمها الطيبة فسألتها أن تزوجنى ابنتها ، فلم تعارض « أم آمنة » .

ولم تشرق شمس صباح اليوم التالى إلا وثلاثتنا ــ انا وآمنة وأمها قد ضمنا ذلك البيت الذى نسكن فيه فى درب القط بعد أن توجهنا إلى المأذون وقد عقد علينا . وبقينا زوجاً وزوجة ، وثالثهما حماه .

وبدأت حياة جديدة ، حياة سعيدة هنيئة قريرة .

لقد أحسست مذ ضمتنا دار واحدة أن عبء الحياة قد خف ، وأن ثغرها قد بسم ، وأنه قد أضحى عندى ما أعيش لأجله ، وأنى تغيرت من سائمة ضالة إلى إنسان قرير .

أى والله .. لقد بت مخلوقا آخر وملئت حياتى الجوفاء الخالية . ولم أعد أحس بالوحدة المريرة والوحشة الأليمة .

بات البيت عندى ملجأ ألجأ إليه .. وملاذا ألوذ به .. وحياة أحيا فيها .. بعد أن كان مجرد مضجع أقضى به سواد الليل .. لا يسامرنى فيه غير مواء القطط ، وعواء الكلاب .

كانت مخلوقة عجيبة ، كأنها فى الجهد مائة امرأة فى امرأة لم أر أشد منها احساسا بواجبها وتفانيا فيه ، ولا أقل منها مطالبة بحقها وتناسيا له .. كانت صبورا على البأساء .. حمالة للأسى . كانت

نموذجا للتضحية والوفاء والبعد عن الأنانية ، كانت أقدر الناس على تبديد الهموم وطرد الأحزان وتسهيل الحياة وتخطى عقباتها .. ما رأيتها قط شاكية ولا متبرمة .. يملأ نفسها دواما الرضا والقناعة .

وحمدت الله الذى وهبنى الهناء والاستقرار بعد طول جهد وانهاك ، وضلالة فى بيداء الحياة .. وشعرت ان الله قد أكرمنى إلى ابعد حدود الاكرام ، وأنى ما كنت أتمنى فى أحلامى أكثر مما وهبنى إياه .

أمنية واحدة هى التى كانت لا تزال قلقة فى أفق الأمانى ، وأمل واحد هو الذى كان يداعب النفس ، ويبتغى طريقا إلى الظهور .

هذه الأمنية وذلك الأمل .. هو أنت يابنى .

كان بنا حنين إليك ، وشوق إلى الابن المجهول المنطوى فى غياهب الغيب والذى لم تبد لنا بشائره بعد .

ولم أحاول انا قط أن أفصح عن ذلك الأمل الذى كان يراود النفس خفية .. لأنى كنت واثقا بالله .. موقنا أن الأمنية وان تأخرت فهى قادمة قادمة .. وأنك وان تمهلت فانك آت آت .

وكنت أخشى أن اشعرها بالتقصير وبأنها بعد كل هـذا الجهد والتفانى والاخلاص ، لم تنلنى أمنية عزيزة .. يعلم الله إذا كانت قديرة عليها أم أن بها عجزا وعقما .

وهكذا طويت الأمنية بين جوانحى ، وبالغت فى اظهار الرضـا والسعادة ، ولكنها كانت أذكى من أن تخدع وكانت من أشد من رأيت نفاذا إلى رأسى وقلبى واكتشافا لباطنى واحساسا بمتاعبى وآلامى وأحزانى وآمالى .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هى الأخرى أشد رغبة فيك ، وتمنيا لمجيئك .. ولذا فقد بدأ القلق والخوف يدخل إلى نفسها ، واخذت تزور الأولياء والمشايخ .. وتتعاطى الوصفات وتتبع المشورات .

وأخيرا .. حقق الله يقينى .. واستجاب لدعائها .. واعطينا

الانذار الأول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك فى باطنها .

وسادت فى الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون ، قبل الهنا بسنه ، وأخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ، أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وانت فى علم الغيب وناجيناك ولاغيناك وانت منطو فى حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل ان تهبط إلينا .. لقد دفعتنا لهفتنا عليك إلى أن نخرجك بيننا قبل ان يخرجك الله .

ولا اظن أن هناك مخلوقا أصاب قدرا من السعادة كما أصابت هى فى فترة حملك ، لقد كانت تشعر انها تحمل امنية عزيزة ، وحلما جميلا .

ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما اذكر انها تألمت من شيء أو عجزت عن شيء .. لقد تماونت قوتها الجسمانية وقوتها النفسية على حملك كأصح واقوى ما حملت أم .

واخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد - هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

يا للسخرية الكبرى !! لكأنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد ولادتك ، فأخذت نصيبها من السعادة بك وأنت طاو فى باطنها .

وعندما اقول لك الآن صعدت .. لا أملك إلا ان أقولها ببساطة .. بساطة أى لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وقتذاك ، كان اجل من أن يستعمل للتعبير عنه أى لفظ ، كان اشبه بانطباق السماء على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شيء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هى ، وتتركنا فى وحدتنا ، انا وانت ، وأمها .

كانت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وقتا طويلا بل حدث التبادل فى مثل لمح البصر .

فى لحظة من اللحظات ، كانت هى موجودة ، وانت فى عالم الغيب ،

الانذار الأول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك فى باطنها .

وسادت فى الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون ، قبل الهنا بسنه ، وأخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ، أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وأنت فى علم الغيب وناجيناك ولاغيناك وأنت منطو فى حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل أن تهبط إلينا .. لقد دفعتنا لهفتنا عليك إلى أن نخرجك بيننا قبل ان يخرجك الله .

ولا أظن أن هناك مخلوقا أصاب قدرا من السعادة كما أصابت هى فى فترة حملك ، لقد كانت تشعر أنها تحمل أمنية عزيزة ، وحلما جميلا .

ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما أذكر أنها تألمت من شىء أو عجزت عن شىء .. لقد تعاونت قوتها الجسمانية وقوتها النفسية على حملك كأصح واقوى ما حملت أم .

واخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد .

هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

يا للسخرية الكبرى !! لكأنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد ولادتك ، فأخذت نصيبها من السعادة بك وأنت طاو فى باطنها .

وعندما اقول لك الآن صعدت .. لا أملك إلا ان أقولها ببساطة .. بساطة أى لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وقتذاك ، كان اجل من أن يستعمل للتعبير عنه أى لفظ ، كان أشبه بانطباق السماء على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شىء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هى ، وتتركنا فى وحدتنا ، أنا وأنت ، وأمها .

كانت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وقتا طويلا بل حدث التبادل فى مثل لمح البصر .

فى لحظة من اللحظات ، كانت هى موجودة ، وأنت فى عالم الغيب ،

وفى اللحظة التالية كنت انت موجودا وهى فى طريقها إلى عالم الغيب بلا أمل فى عودة أو رجاء فى بقاء .

انى لا أذكر انها تعذبت فى ولادتك ، أو ربما تعذبت ، ولكن جلدها العجيب وقدرتها على تحمل الآلام منعاها أن تفصح عن شىء .. فرقدت فى حجرتها .. الحجرة التي بها الصحارة ، ثم جاءها الطلق ، واخذت أمها تعاونها حتى تحضر « الداية » ولكن قبل حضورها كان كل شىء قد انتهى .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

ويعلم الله إذا كانت قد صعدت حقا .. أم انها هى الأخرى قد هبطت مع جسدها إلى جوف القبر .. وانتهت ــ كما يقول شحاتة ــ ككل مقعد قديم وقطة .

كنت وقتذاك اشبه بالضائع فى غيبوبة .. كنت مرتاعا إلى اقصى حدود الارتياع .. فقد كنت ــ إن صح التعبير ــ محدث وفاة .. لم يسبق لى أن فجعت ــ على كبر وادراك ــ فى عزيز لدى .. بل فى اعز ما أملك .

واندفعت أمها يومذاك فى الصراخ .. كأنها كلب جريح يعوى ..

ولكنى لم أصرخ ولم أعو .. فقد كنت .. كما قلت لك فى غيبوبة .. أسير وأتحرك وأتصرف بلا وعى ولا ادراك .. ولقد سألنى من حولى وقتذاك أن أبكى .. حتى أفرج عن نفسى ، وحتى لا اجن أو أصرع ، ولكن الدمع كان يستعصى ، فالباكى لا بد أن يبكى عن إدراك ، أما أنا فقد كنت من الصدمة فاقد الإدراك .

وقام الناس باجراءات التغسيل والتكفين والجنازة والدفن وأنا انظر إليهم نظرتى إلى أشباح مزعجة مخيفة .

كانت الرهبة تجثم على أنفاسى فتجعلنى ارى كل هذه الاجراءات أشياء مروعة رهيبة من الصعب فهمها ، أو مباشرتها .

وخلا الدار من عنصر الحياة فيه ، بعد أن قطع شريانه واقبل

الليل المدلهم ، وأنا وأنت والعجوز وحدنا .. أشبه بجند حديثي عهد بمعركة فقدوا قائدهم ، أو بركاب سفينة فقدت ربانها ، أو بثلاث عجائز تركن فى صحراء مقفرة لا ماء فيها ولا رواء ، ولا زرع ولا ضرع .

وكان على العجوز الثكلى النائحة أن تتولى أمرك ولقد تولته — والحمد لله ولها — على أحسن حال .

ولقد حاولت جهدها التجلد والتحامل من أجلى ومن أجلك ، ولكن الحزن والدموع المنسابة فىالليل الطويل ، أفقدها البصر ، ولكن لم يفقدها الجلد والتحمل والصبر على رعايتنا ، أنا وأنت ، أو بقايا ابنتها الراحلة .

وحاولت أنا الصبر والتجلد واستعنت بالصلاة وبالقرآن ووضعت آيات الصبر نصب عينى أقرؤها فى كل غدوة وروحة ، ولكن الصبر كان متعذرا والوجيعة جاثمة على القلب تأبى فراقه .

ولا أكذبك القول يابنى أننى كرهتك فى أول الأمر ، كنت أراك لا تستحق الثمن .. كان ثمنك فادحا جدا لا يدفع لشراء عالم بأكمله .. فما بالك بوليد تافه ، وكنت أتمنى فى قرارة نفسى لو يعدل الله عن البدل فيأخذك ويردها ، ولكن كنت أشعر أنى فى تفكيرى أحمق مجنون .. وأن قضاء الله لا راد له .

ورويدا رويدا بدأت أحبك ، واتخذت منك عزاء عنها ، بعد أن عز العزاء ، ووجدت منك إلى حد كبير دافعا على التحامل ومواصلة العيش .

ولقد كنت دائما أسائل نفسى فى يأس — كما سألتنى أنت — لماذا تموت وهى لم تفعل شرا ولا هى عجوز ولا مريضة ونحن فى أشد الحاجة إليها .

ولقد استعصى الجواب على حتى دخل « شحاتة » فى حياتى وأخذ يلقننى حديثا بدا لى فى أول الأمر حديث خرافة .

قال لى : إن وجه الأرض متغير ، وان مركبات هذا الوجه من مختلف

الكائنات محدود وجودها بفترة معينة لها بداية ونهاية .. وان ابن آدم لا يزيد عن أن يكون أحد مركبات وجه الأرض ، فوجوده محدود لفترة معينة حكمه فى ذلك حكم المقعد الذى تجلس عليه والقطة الجالسة اسفل المنضدة ؛ وأنه لابد له من الانتهاء ليحل محله سواه ويأخذ مكانه فى الوجه المتغير .

ولكن ابن آدم المغرور يكره أن يقارن نفسه بالمقعد او بالقطة أو بأى مخلوق من المخلوقات ذوات البقاء المحدود ، وهو كذلك يكره الموت ويأبى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته بأوهام كريهة ، ومناظر مفجعة ، ويرفض تعوده وترويض نفسه عليه .

انها مسألة ترويض وتعود .. لا أقل ولا أكثر .. ان كل حدث على الأرض يهون بالتعود .

هكذا قال لى الرجل .. ولقد بدا حديثه .. كما قلت لك حديثه مخرف ، وكان من المستحيل على ، أنا المفجوع الموجوع .. المجروح القلب ، الكليم الفؤاد ، أن أستسيغ مثل هذا القول الساخر الواقعى الجاف .

ولكن لم أكد أنزل الحومة وأجوس بالساحة .. حومة الأموات وساحة المقابر .. حتى تبددت من نفسى الرهبة شيئا فشيئا .. وأدركت ضيق الثقب الذى ينظر منه الإنسان إلى هذه الأشياء .

لقد نزلت إلى ساحة الأموات .. فوجدتها سخريات فى سخريات ؛ ووجدت الإنسان . .مهما كان .. لن يزيد على المقعد او القطة ، ووجدت اكوام العظام فى القبور .. أحقر كثيرا من أنقاض المقاعد المهشمة . وان رمم القطط والكلاب قد تبدو أبهى منظرا من رمم الإنسان .

لقد باشرت التغسيل والتكفين والدفن .. فوجدتها سخافات فى سخافات وتفاهات فى تفاهات .. ان المسألة كلها لا تزيد على دفن القمامات الإنسانية والمخلفات البشرية وردمها فى حفرة بباطن الأرض .

عرفت الكثير من الحقائق فى عملى الجديد .. الذى فككت به

العقدة الكبرى المعقودة فى نفسى وفى نفس كل إنسان ؛ ووجدت الاجابة المستعصية تأتى سهلة هينة وأنا أسأل نفسى : لماذا تموت وهى ليست عجوزا ولا مريضة ونحن فى أشد الحاجة إليها ؟

لقد قلت لنفسى يابنى انها ليست أول من يموت ولست أول من فقد زوجة ولا كنت انت بأول من يولد بلا أم .. هذه أشياء تحدث كثيرا فى الحياة ، فيجب الا ينظر إليها على أنها مآس قد خصنا بها القدر .. يجب أن نعرف أن هذا الأمر هو سنة الحياة وطبيعة الأشياء ، ويجب الا نعتبرها مفاجأة .. بل نتقبلها بالصبر ، ونواصل السير لنقوم بواجبنا .. حتى يصيبنا قضاء الله .

بهذا وحده أحسست بالاستمرار والسكينه ، ولكن ليس بالنسيان .. لقد كنت حريا أن أنسى .. لولا ذلك القلب النائح بين الضلوع ، الباكى فى الحنايا ، والذى لا يقتنع بمنطق ولا يسلم بعقل ولا يحتمل صبرا .. اننى لم انسها رغم اكتشافى لحقيقة الموت والحياة .. لقد كنت اشيعها فى كل جنازة أسير أمامها ، وكنت أراها فى كل ميت أواريه الثرى ، انى أحس بمتعة من تشييع الجنازات .. فهى تقربنى إليها وتمتعنى برفقتها وذكراها ، وتهون على نفسى مسألة الموت وتعدنى لاستقباله غير وجل ولا هياب ، وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة .

* * *

وصمت الرجل ورفع الصبى رأسه فى خوف وجزع وقال فى صوت خافت ملىء بالدموع :

ــ ولكنك رغم ذلك .. لن تذهب .. انى اريدك .. إذا هانت عليك نفسك فلن تهون على .. إذا كنت قد روضت نفسك على الذهاب ؛ فأنا لم أروضها .. ليس لى فى الحياة سواك .. انك الأم والأب .. انك ما أشعرتنى قط بأنى فقدت أمى .. لا تذكر الموت أبدا ولا تعود نفسك عليه .. فإنك لن تموت .

الفصل الثاني عشر

لـــن يمـــوت

ومرة ثانية بذل الرجل جهدا كبيرا ليحبس الدمع في المآقي ولا يفضح تأثره بحديث الصبى وهو القوى المتجلد ، وبعد فترة صمت استعاد خلالها نفسه وتمالك قواه اصطنع ضحكة خفيفة أسدل بها ستارا على حديث الشجن الذى فاض به .. ثم قال لابنه فى لهجة مازحة :

ــ طيب ياسى سيد خلاص .. ماشى كلامك .. ما دام مش عايزنى اموت .. مانيش رايح أموت .

وأجاب « سيد » ، وهو يكفكف دمعه :

ــ ولا تطلع الجنازات ، ولا تلبس البدله دى أبدا ؟

ــ ولا حاحطها على جتتى عشان خاطرك .. مبسوط بقى يا عم ؟

ــ أيوه مبسوط .

ــ طيب أمال مبتضحكش ليه .. يالله اضحك .

وافتر ثغر الصبى عن ابتسامة مفتعلة صحبها بقايا دمع سائل على خديه ، ولكن الرجل عاد يقول مازحا فى بعض التأنيب :

ــ برضه ده ضحك ؟ !! اضحك كويس .. احنا خلاص مش حانجيب سيرة الزعل بعد كده .. يالله وريني ضحكتك .

وضحك الصبى ضحكة عريضة خالصة وربت أبوه على ظهره فى رفق ، وهو يقول :

ـــ ايوه كده ، خلينا نفرفش .. يالله بينا نقوم نلبس بقى أنا بطنى نونوت ، وكل ما افتكر رغيف الكباب ريقى يجرى ...

ـــ أيوه حقيقى .. أنا كمان جعت .. يالله بينا ناكل .

ونهض الاثنان ملتفين فى المناشف وغادرا باب أول إلى القاعة الرحبة ، ثم اتجها إلى اللوان الزجاجى الذى خلعا فيه ملابسهما مجيبين فى طريقهما على بضعة تحيات من هنا وهناك ...

« نعيما » .. « أنعم الله عليك » .

وفى اللوان تمدد « شوشة » على إحدى الأرائك واقبل عليه « عميره » المدلكاتى المكبساتى فأخذ يدلكه ويكبسه ويطقطق عظامه ، وانهمك « سيد » فى خلع المناشف وارتداء ملابسه النظيفة ، ولم يكد يتم اللبس حتى صاح « بعميره » :

ـــ فين الأكل يا عميره ؟

ـــ حالا حاجيبهولكوا .. أنا اصلى اديت الرغيفين « لعبده » بتاع المستوقد يحطهم فى الفرن عشان يفضلوا سخنين .

ـــ زمانه طير نصهم .

ـــ ما تخافش أنا نبهت عليه انه ما يمدش ايده عليهم ، وهوا يخاف منى ويعمل لى حساب .

وضاق « سيد » ذرعا بطول التكبيس والتدليك فصاح بابيه :

ـــ ماتيالله بقى يابا .. أمال كنت بتقول انك جعان ازاى ؟

ـــ أهو خلاص .. يالله يا عميره انت روح هات لنا الأكل .

ونهض « شوشة » واخذ فى ارتداء ملابسه ، وبعد برهة احضر « عميره » الأرغفة الساخنة يتصاعد من باطنها بواخ اللحم ورائحة الشواء ، وجلس كل منهما يلتهم رغيفه فى انهماك وصمت ، وبين آونة وأخرى يتبادلان جرعة من « القلة » التى أحضرها « عميره » ، وبعد الانتهاء من الطعام صاح « شوشة » « بعميره » :

ـــ يا عميره .

ودنا « عميره » مسرعا .. فمد الرجل يده ببضعة قروش قائلا :

ـ خد هات لنا كل واحد كباية شاى وخد الباقى .

ـ كتر خيرك يا معلم شوشه .

وبعد هنيهة كان كل منهما يجرع كوب الشاى فى لذة واستمتاع ، وأخيرا نهض الرجل والتف بوشاحه الصوفى ولف ابنه بجاكتته القديمة ، ثم غادرا الحمام عائدين إلى البيت بعد أن ابتاع « لأم آمنة » نصيبها من الكفتة والكباب .

* * *

نام الثلاثة : الابن والأب والجدة أنعم ما يكون بالا ، وأقر ما يكون نفسا .. وكان « سيد » أكثرهم هدوءا وطمأنينة بعد أن وثق تماما من الخلاص من بدلة النحس ، ومن العمل المشئوم الذى يقوم به أبوه .. وبعد أن وعده الأب وعدا جازما بأنه لن يموت .

وكانت « الجدة » أول من استيقظ ، فأخذت تباشر أعمالها العادية التى تعودت أن تقوم بها بطريق التحسس والتوجيه .

واستيقظ بعدها « سيد » ، وكان اليوم جمعة .. وهو يوم يتلهف عليه « سيد » لكى يستيقظ متأخرا حتى يثأر من بقية الأيام التى يبكر فيها فى الاستيقاظ ، ومع ذلك لا يكاد يحل اليوم حتى يجد « سيد » نفسه أشد رغبة فى الإستيقاظ مبكرا عنه فى بقية الأيام .

وأخذ « سيد » يعد البلى ويجهز أحد الجوارب لعمل كورة ثم خرج لينادى عليا حتى يتفق معه على عمل طيارة ، ولكنه فوجىء « بعلى » وأمه وأخته وأبيه هابطين على السلم ، وقد حملا بعض السلال .

وصاح بـ « على » :

ـ على فين كده .. بربطة المعلم ؟

ـ معزومين النهارده عند أخت المعلم عز فى امبابه .

ـ حاتتغدوا هناك ؟

ـ أيوه .

ـ يا بختكم .

ـ ما تيجى معانا ؟

ـ على إيه .

ـ قول لابوك وتعالى .

ـ أبويا لسه نايم .

وكانت الأسرة قد وصلت إلى الباب ، فقال المعلم خشت وهو يدلف إلى الخارج :

ـ ابقى صبح لنا عليه لما يصحى .

وقالت زكية وامها :

ـ وابقى صبح لنا على الحاجه .

وغاب الأربعة فى الطريق .. ووقف سيد وحده يجهز الكرة الشراب ، ولكنه ما لبث أن أصاخ السمع ، فقد بدا له كأن هناك من يناديه ، وبالانصات ميز صوت أبيه يأتى من الداخل :

ـ يا سيد .

ودخل الصبى يعدو إلى الداخل ملبيا نداء أبيه ووجده ما زال فى فراشه ، وقد لف رأسه بالوشاح الصوفى واحكم تغطية جسده بالبطانية .

ووقف سيد بجوار ابيه :

ـ أيوه يابا .

ـ اسمع يا سيد .. انا عايزك تاخد المفاتيح ، وتروح تفتح الحنفية ، وتنتك قاعد لغاية ما توزع الميه على السقايين وبقية الزبائن .. النهارده الجمعه مفيش شغل كتير ، لكن عايزك تاخد بالك كويس وتفتح عينك ، تيد كل اللى تصرفه فى الدفتر واللى تقبضه اكتب قصاده .. وحط الفلوس فى الكيس .. فاهم ؟

ولكن « سيد » كان مشدوها فصاح بأبيه فى جزع :

ـ ليه يابا ؟

ـــ ولا حاجه انا أصلى حاسس ان جتتى مخدله .. الظاهر انى خدت برد .. خلاص يا سيد .. الظاهر ان الواحد عجز .. مابقيناش نستحمل زى زمان .. لكن نقول إيه .. الواحد مش عايز يعترف انه ساب الشباب .

ثم حاول التضاحك ، ولكن قطع تضاحكه نوبة حادة من السعال ، صعدت الدم إلى وجهه ، والدموع إلى عينيه ، وعندما انتهى من سعاله عاود الضحك والحديث قائلا :

ـــ يالله يا ابو السيد .. ورينا الشطاره ، عايز اشوفك راجل .

ـــ لكن يابا انت عيان ؟

ـــ ولا عيان ولا حاجه .. انا عايز استريح لى يوم .. والا منتش قادر على الشغلانه ؟

وانتابت الصبى نوبة من الحماس أزاحت جزعه على أبيه جانبا فصاح فى حزم :

ـــ مش قادر ازاى .. دانا ادها وادود .. ايدك على المفاتيح .. دانا سيد ابن المعلم شوشة .. على سن ورمح .

وخطف سيد المفاتيح والدفتر والكيس الفارغ واندفع يعدو إلى الخارج ، وصادفته « أم آمنة » فصاحت به :

ـــ على فين ! ؟ إيه الحكايه ؟

ـــ رايح أفتح الحنفيه .

ـــ تفتح الحنفيه ! ؟ ليه .. وأبوك فين ؟

ـــ عايز يستريح شويه ، عن اذنك بقى لحسن مستعجل .

ـــ هوا إيه أصله ده ! ؟ استنى شويه أما اشوف إيه الحكايه ؟

ـــ يا ستى أنا مش فاضيلك ! عندى شغل .

ثم اندفع يعدو إلى الطريق ، واستمر فى عدوه فلم يقف حتى

وصل إلى الحنفية واعتلى مقعدها فى فخار وكبرياء .. وصاح فى الجمهور المحتشد الصاخب :

ـــ بس منك له .. كل واحد يقف ورا التانى .. اللى حايخرج عن الصف مش حاصرف له إلا فى الآخر ، واللى حايعمل زيطه مش حاصرف له .. واللى مش عاجبه يلعن ابوه فى الأرض .. فاهم منك له والا لأ .

ـــ وضج الناس بالضحك .. وانتظموا فى الصف وهم يتساءلون :

ـــ أمال فين ابوك يا سيد ؟

ـــ تعبان شويه .. مالوش كيف .

وتعالت التعليقات ما بين « لا باس عليه » و « بعد الشر عنه » و « سلم لنا عليه » .. الخ .

وظل سيد منهمكا فى العمل ، فرحا به ، مستمتعا بمركزه الرفيع حتى انتهى من الصرف ، وقد نسى خلال العمل كل شىء عن مرض أبيه وجزعه عليـــه .

وبعد الانتهاء اغلق الحنفية وسار حاملا الكيس الملىء هانئا سعيدا ، يفكر فيما ينوى أن يقول لأصحابه عن مغامرة اليوم وعن اعتلائه عرش المياه ، وتحكمه فى أفواه الناس .

ولكنه ما كاد يقترب من الباب .. حتى عاوده جزعه الخفى وأصابه قلق على رقدة ابيه ، ولكنه دعا الله أن يكون قد عافاه وان يجده قد خرج إلى المقهى .

ودلف إلى الداخل فلم يجد جدته فى مكانها فى الفناء ، فزادت خيفته واتجه رأسا إلى حجرة أبيه فلم يجده بها لا هو ولا فراشه . واستدار يبحث عنه فى الشقة فوجد العجوز جالسة قبال الأب ، والأب مضطجع على فراشه فى حجرة الصحارة مغمض العينين وفوق جبينه خرقة مبللة وقد تعالت أنفاسه فى صوت مسموع .

وأحس الصبى بقلبه يهبط بين جوانحه وبرجفة تصيبه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وتقدم فى حذر سائلا جدته فى همس جزع وتشاؤم :

ــ انتوا قاعدين فى الأوده دى ليه ؟
وأجابت جدته :
ــ الأوده التانيه بارده وقزازها مكسور .. وبتجيب هوا كتير .
ــ وهو ازيه .. لسه تعبان ؟
ــ زى ماهو .. البرد مزممه .. ماقلت بلاش الحمام .. وقلت اسخن لكم ميه فى الصفيحه .. بس كان لزومه إيه ؟
وفتح الأب عينيه ونظر إلى ابنه .. وقال فى صوت ضعيف :
ــ عملت إيه يا سيد ؟
ــ خير يابا ، صرفت الميه ، وجمعت الفلوس وايدتها .
ــ قفلت الحنفيه كويس ؟
ــ أيوم يابا .
وأغمض الأب عينيه مرة ثانية .. وبدا كأنه يرغب فى الراحة من الجهد الذى بذله فى الحديث ، وتكلمت أم آمنة موجهة القول إلى سيد
ــ اسمع يا سيد .. خش كل لك لقمه .. عشان عايزاك تروح تشترى لزته انجليزى .. وشوية لبان دكر .. وبخمسه قروش برتقال ولمون حلو .
ــ أنا مالباش نفس آكل .. حاروح اشترى الحاجه فى الأول قبل ماكل .
ــ خش كل لك لقمه الأول .. انت خرجت من غير فطار على لحم بطنك .
ــ طيب حاكل .
ودخل « سيد » إلى المطبخ فوضع قطعة من الجبن فى شقة وخرج إلى جدته وهم يقضم منها قائلا :
ــ أنا حاكل في السكه .. هاتى الفلوس ، عشان اروح أجيب الحاجه .
ــ فلوس ؟ !!

وأخذت العجوز تبحث فى صدرها وجيوبها فى حيرة ، وعى تردد :

ـ الفلوس .. دانا ممعيش ولا نكله .

ثم همست إلى شوشة فى رفق :

ـ معاك فلوس يا شوشه ؟

وهز شوشة رأسه علامة النفى .

ووقف سيد برهة مترددا ،ثم قال وهو يشير إلى كيس النقود التى جمعها :

ـ ماهى الفلوس اهى .. ناخد منها ريال ؟

ولكن الأب فتح عينيه فى جزع :

ـ اوعوا تمدوا ايديكم على اللى فى الكيس ، دى عهده .

وأجاب سيد :

ـ معلهش يابا ، ماحنا حناخده سلف وبعدين نرده .

ـ أوعى تمد ايدك عليه ، دى تبقى سرقه .

ـ لكن لازم نجيب لك اللزقه واللبان والبرتقان .

ـ مافيش لزوم .. انا كويس .

وتدخلت الجدة قائلة فى ضيق وقلق :

ـ مانتش كويس ابدا .. لازم نجيب اللزقه واللبان ، ولازم نجيبه حاجه تبل ريقك .. حاجه تتقوى بيها .. انت من أول النهار ماحطتش حاجه على لسانك .

وساد الصمت برهة ثم قال الاب فى صوت ضعيف :

ـ أنا ليه ريال عند الحاجه زمزم بقية حساب قديم ، أوصل خده منها وروح اشترى اللى انتو عاوزينه .. وإذا ما رضيتش قول لها ان أبويا عيان ومحتاجينه ، عشان نجيب بيه دوا .

ـ طيب يابا .

وانطلق سيد يعدو فى الطريق وبيده شقة العيش والجبن فلم يقف إلا عند مسمط الحاجة زمزم .

وكانت الحاجة جالسة فى مصطبتها جلستها المعتادة .. فاقبل الصبى وسألها فى لهفة وعجلة :

ـ يا حاجه .. عايزين الريال اللى عليكى لابويه .

وفوجئت المراة بقول الصبى ونظرت إليه فى شزر ودهش وقالت هازئة :

ـ ريال ! ؟ إيه يا عومر !

ـ ريال قديم .. بقية حساب الميه .

ـ ما كانش يتعز يا خويا .

ثم رفعت يدها واشارت بكفها مفتوحة امام وجهه وأردفت فى سخرية :

ـ قل له ييجى ياكل به ممبار .

واحتد سيد وقال صارخا :

ـ هو ما بيكلش ممبار .. احنا عايزين الريال .

ولم تجب امراة السوء .. بل تشاغلت باعطاء أوامر إلى صبيها « جاد » ، وصاح « سيد » فى حدة وغيظ :

ـ احنا عايزين الريال .. هاتى الريال .

ونظرت المراة إلى « سيد » نظرة حنق وتهديد عندما رات انه بدأ يلفت نظر الزبائن بصياحه ، ونهرته قائلة :

ـ امشى يا واد من هنا بلاش زيطه .

ولكن سيد اجاب فى عناد :

ـ مش حامشى إلا لما آخد الريال .. هاتى الريال بقول لك .. احنا عايزينه عشان نجيب دوا لابويه .. أبويه عيان .

ـ ما يعيا والا ينفلق .. ان شالله حتى يموت .. أنا مالى وماله .

ولم يطق « سيد » سماع قولها فاندفع بأقصى قوة واطبق بيديه الصغيرتين على عنقها صائحا وصوته يختنق بالبكاء :

ــ هاتى الريال يا بنت الكلب .. أن شاالله تموتى انتى .

وذهلت المرأة من تهجم الصبى عليها وما لبثت حتى دفعته فى صدره دفعة قوية طرحته ارضا .

وعلا بكاء الصبى ، ونهض من وقعته محاولا الهجوم عليها مرة ثانية ، ولكن تلقاه هذه المرة صبيها « جاد » فلطمه بيمناه لطمة قوية على صدغه ألقته أرضا ، وحاول الوقوف مرة ثانية فضربه « مشط » بقدمه فهوى إلى الأرض ، وظل كلما حاول القيام أعاده إلى الأرض ، والصبى يصرخ من فرط الألم والبكاء والعجز حتى تطوع أحد الزبائن بانقاذه من بين براثنه .

ولم يجد « سيد » بدا من الانصراف والدمع ينهمر من عينيه وقطرات الدماء تسيل من شفتيه على جلبابه ، وقلبه يفيض بالمرارة والحقد والألم وبغض الناس .

ولم يعرف كيف يعود إلى البيت دون أن يحضر الدواء إلى أبيه ولم يعرف كيف ينتقم من « زمزم » وصبيها « جاد » ، وهو عاجز ضعيف .

وسار « سيد » يضرب على غير هدى ، ونظر إلى السماء مسائلا نفسه : أهناك حقا يوجد رب مطلع على كل شىء ؟ قدير على كل شىء عادل رءوف رحيم ؟

ــ وهل رأى كل ما حدث واقره . وسكت عليه .. لا .. لا .. لابد انه سيفعل شيئا .

واخذ عقل الصبى الباطن يجرى بما يود من الله ان يفعل محاولا التنفيس عن كربته واخراج الغضب المكبوت والانتقام فى أفكاره من خصمه بعد أن عجز عن الانتقام فى الواقع .

أجل .. ان الله القدير الرءوف لن يرضيه هذا .. انه سينتقم له . ولكن باية وسيلة ؟ وعلى أى نمط ؟

يفعل « جاد » ما يغضب « الحاجة زمزم » .. فتسبه وتنهره وتقذفه بالشومة التى فى يدها ، تصيب الشومة رأس « جاد » فيفقد أعصابه ويندفع فى ثورة عنيفة هاجما على المرأة ممسكا سكينه التى يقطع بها المبار والكرشة فيدفعها فى بطنها ويظل يمعن فيها القطــع والطعن والتمزيق حتى يجعلها جثة هامدة ، ولا يكاد ينتهى من جريمته حتى تزلزل الأرض زلزالها فتهتز جدران المصمت.وينقض سقفه فوق رأس « جاد » فيهشمه ويسحق جثة المرأة .

وتنهد « سيد » وأحس بالكثير من الراحة ، وهو يصل إلى هذه النتيجة من الانتقام الإلهى .

ولم لا يحدث هذا ! . أليس الله قديرا على كل شىء ؟

❋❋❋

وفى تلك اللحظة كان المعلم شوشة يتململ قلقا ويسأل أم آمنة :

ــ هو سيد لسه ما جاش ؟

ــ لسه .

ــ هوا غاب كده ليه ؟!

ــ أما اطلع بره أشوفه .. يمكن ألاقى حد من الولاد يدور عليه ويستعجله .

وخرجت العجوز إلى باب الدار ، ووقفت صامتة برهة ثم أخذت تنادى بعض الصبية من أصحاب « سيد » صائحة :

ــ يا محمود .. يا دقدق .. يا زكى .. ياولاد حد منكم يشوف لى سيد .

ولم يجبها مجيب ، ولم تسمع ردا سوى قرقعة أتت من ورائها أعقبها دوى شديد جعلها تجثو على الأرض .

وكان شوشة يرقد فى فراشه .. فسمع نفس القرقعة والدوى ، وكان الشق الذى فى جدار الحمام قد أخذ يتسع ، وبدأ ركن الجدار ينهار والسقف من فوقه لا يجد ما يستقر عليه فيهبط فى قرقعة شديدة .

وهم شوشة بالنهوض متجها إلى باب الحجرة ولكنه سمع قرقعة فوقه ووجد بعض الحصى والاتربة تنهار من بياض سقف الحجرة وفجأة أحس كأن جدران الحجرة تتمايل ثم انقض عليه حجر من أعلى فتلقاه بيده واقيا منه رأسه .. وتقدم خطوة أخرى .. ليتلقى قدرا متتاليا من الحجارة تصيب رأسه وكتفيه وتصرعه أرضا .

وصرخ شوشة وأخذ يتلقى بيده الحجارة المنهارة وقد سالت الدماء من رأسه فاختلطت بالتراب والثياب وظلت الاتربة والحجارة تنهار عليه كالسيل واحس بنفسه يضيق وبالأتربة تملأ خياشيمه ، وجاهد فى القيام حتى يرفع رأسه من بين الأتربة ، ولكنه أحس بالعجز وشعر بالأتربة تتكاثر ، ولم يعد يبصر شيئا وتعذر عليه التنفس كأنه غريق ، وتملكه ضيق شديد وتمنى لو قتله الحجر الأول أو استطاع هو أن يخنق نفسه ، ولكنه كان عاجزا عن كل شيء إلا الارتجاف تحت الركام ، وأخيرا فقد الاحساس بكل شيء ، وانتهى العذاب .

وفى الخارج كانت صيحات العجوز تشق أجواز الفضاء وكانت ترفع يديها إلى أعلى صائحة :

ـــ يارب .

وحاولت أن تتلمس طريقها إلى الداخل لتتفقد المريض الراقد ، ولكنها لم تكد تصل إلى الباب حتى كانت أكوام الركام والرماد والأنقاض تسده بعد أن انهار ركن البيت الذى يضم دورة المياه وحجرة الصحارة وجزء من القاعة .

وتجمهر الناس وعلا الصياح والضجيج .

وكان « سيد » ما زال يضرب فى الطريق ، وهو يتصور المسمط متهدما على رأس « زمزم » و « جاد » ، مستشهدا بذلك على قدرة الله

وعدله ، ومرت به سيارة الحريق ، وهى تقرع الجرس وتندفع مسرعة ..
فساءل نفسه :

ـ يا ترى حصلت حريقه فين ؟

ووجد السيارة فى اتجاه بيتهم ، فحث الخطا ليتمتع بمشاهدة الحريق واطفائها .

وعندما وصل إلى قرب البيت كان الزحام قد سد منافذ درب القط ، وكانت عربة الحريق تنتظر فى خارج الدرب لعجزها عن الدخول منه لضيقه ، واخذ الصبى يصيح متسائلا وسط الزحام ، وقد تملكه الدهش ، وهو لا يرى اثر الدخان :

ـ ايه ده ؟ إيه اللى جرى ؟ هى غين الحريقه ؟ أنا مش شايف لها أثر .

وكان الناس فى شغل عن الصبى ، ولكن « المعلم شيحه » أبصره فصاح به فى جزع :

ـ تعالى يا سيد هنا .. ماتروحش البيت .. لحسن البيت اتهد .

وصاح « سيد » :

ـ اتهد .. بيتنا احنا اتهد ، وابويا ؟

وكان الجمع قد التفتوا إلى الصبى وعرفوه ، وكان بينهم « المعلم على الحمى » الذى أمسك بيده وأبعده عن الزحام قائلا له :

ـ تعال يا سيد .. ما تخافش تعال .. أهم الرجاله دخلوا بطلعوه .

وكان « سيد » مذهولا .. مبهوتا .. فانساق مع الرجل ووقف واياه بجوار بقالة « المعلم شيحة » .

واخذ رجال الشرطة يبعدون المحتشدين عن البيت ويفسحون الطريق لرجال المطافى الذين اخذوا فى رفع الأنقاض والبحث عن المصابين .

وبين صخب الناس وضجيجهم استطاع « سيد » أن يسمع صوت « جدته » يعلو بين الناس أشبه بأنين جريح . وكان يقف وسط الزحام

امام البقالة ، وقد أمسك بيد « المعلم على الحمى » ، ولكنه لم يكد يسمع صياح « جدته » حتى تخلص من قبضته واندفع يشق طريقـــه وسط الأجســاد المتزاحمة حتى وصل إلى مقربة من البيت ، وكانت واجهة البيت سليمة لم يبد عليها أثر للانهيار الذى حدث فى الداخل اللهم إلا آثار الاتربة المتصاعدة من النوافذ ورجال المطافىء المتكأكئين حول البيت ، وفى داخله ، الدائبين فى حركة مستمرة .

وأبصر « سيد » « جدته » ، وقد تهالكت امام باب البيت المواجه .. فاندفع إليها مرتميا فى أحضانها ، وضمته هى إليها فى لهفة كأنها غير مصدقة انه قد عاد وصاحت بصوت منتحب :

ــ ابوك يا سيد ! ..

ــ ماله يا ستى ؟ هو فين ؟

ــ جوه يا سيد ، وقع عليه البيت .. أنا خرجت اشوفك لما استغيبتك وقعدت أنادى على حد يدور عليك ويدويك جيت أخش سمعت صوت زى الرعد ، فضلت أصرخ وأنادى وجيت أخش أطلعه لقيت الباب مسدود بالحجارة والتراب .

وقبل أن تتمم العجوز حديثها الباكى تركها الصبى واندفع فى جنون إلى باب البيت وحاول رجال المطافىء حجزه ، ولكنه افلت منهم واندفع إلى الداخل صائحا :

ــ أبويه .. عايز أشوفه .. آبا .. آبا .. انت فين يابا ؟

وعندما وصل إلى الفناء وصيحاته ترن فى أجواز الفضاء فوجىء برجال المطافىء يخرجون من باب الشقة حاملين إحدى النقالات وعليها شىء مغطى ببطانيته التى يتغطى بها ، وقد أخذوا يشقون طريقهم بين الاتربة والحجارة .

واندفع الصبى فى صياحه :

ــ آبا .. آبا .

وربت عليه احد الرجال بعطف ، وقال له فى صوت يقطر اشفاقا :

ـــ بس يابنى بس .. قضا ربنا .. حانعمل فيه إيه ؟

وتذكر « سيد » جثة « شحاتة » المغطاة .. التى حملها الرجال ووضعوها فى الصندوق ، ولم يعودوا بها أبدا ، وتذكر الضياع بلا أمل فى استرجاع ، والفقد بلا رجاء فى استعادة ، وأصابته رجفة شديدة واندفع إلى الجسد المسجى على النقالة وارتمى عليه صائحا :

ـــ آبا .. آبا .. حايودوك فين يابا .. مش حاخليك تخرج ابدا .. دول مش حايرجعوك تانى .. انا عارف .. آبا .. آبا .. رد على يابا .. انت مش فاكر انك قلت لى امبارح انك مش حاتموت أبدا ، فاكر والا مش فاكر ، آبا .. ما تخرجش والنبى يابا .

وأحس الرجال الشداد الغلاظ الذين يحملون الجثة فى المحفة .. بالدمع يترقرق فى مآقيهم ، وهم الجافو المآقى الجامدو الشعور المتعودون على مناظر الموت ومآسيه .

وامسك أحدهم بالصبى فأبعده عن النقالة وساروا بها فى طريقهم إلى خارج البيت ، وكانت عربة الاسعاف تقف بين الزحام على مقربة من البيت ، ولكن حملة النقالة تهامسوا مع رجالها برهة عادوا بعدها بعربتهم تاركين الجثة .

وبرز بين الزحام « على الحمى » و « المعلم شيحه » وكان بيت « الحمى » أقرب البيوت إلى البيت المهدوم فصاح الرجل :

ـــ هاتوه عندى هنا .. اوعى يا جدع انت منك له .. وسع .

ورفع الرجال الجسد بالنقالة واختفوا بها داخل بيت الحمى .

وارتمى « سيد » يتمرغ على الأرض باكيا ، فحمله أحد الرجال ووضعه فى أحضان « جدته » .

وبدأ الرجال يحضرون بعض العروق الخشبية لسند جدران البيت حتى لا تنهار بقيتها .

وبدا الزحام يخف رويدا رويدا عندما اقبل المعلم خشت وعائلته من زيارتهم ، ولم يكد يبلغهم الخبر حتى اندفعت امرأته وابنه إلى

« أم آمنة » يولولان ويبكيان .. واخذ الرجل يضرب كفا بكف ، وقد دمعت عيناه وأخذ يصيح :

— يا ساتر يا رب .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا ساتر يارب .

ووقف « على » يرقب « سيدا » مرتميا على عتبة بيت « الحمى » ، وقد أخذ ينشج باكيا .. ونظر إليه فى ذهول وتذكر القول الذى كان يعايره به هو وبقية الصبية « أبوك السقا مات » ، واحس بحزن شديد كأنما كان هو المسئول عن كل ما حدث .

وبدا كأنما يحاول ان يرفع عبء ضميره ويحدث نفسه قائلا انه هو وزملاؤه إنما كانوا يهزلون .. وانه لم يخطر ببالهم قط أن يموت السقا حقا .. ويترك ابنه المسكين وحيدا فى الحياة بلا عائل ولا معين .

ولم يشعر إلا والدمع ينهمر من عينيه واقترب من « سيد » وضمه إليه وصاح ، وهو يهتز من البكاء :

— معلهش يا سيد .. متزعلش يا سيد .. ماكانش تصدى أبدا .. لو كنت أعرف .. ماكنتش قلت لك كده أبدا .. حقك على يا سيد .

واقبلت زوجة « على الحمى » على الجمع .. وهى تكفكف دمعها قائلة :

— تعالوا يا جماعه خشوا من السكه .. تعالوا اتعدوا عندنا لغاية ما نعمل اللازم .

ومرت الليلة بين البكاء والترحم وقراءة القرآن والعزاء ، ولم يكن يمكن لأحد من أهل الدار المهدومة المبيت بها .. خشية أن يحدث انهيار آخر ، فقضت عائلة « الخشت » ليلتها عند نسيبهم « المعلم عز » .. وقضت « أم آمنة » و « سيد » ليلتهما مع الجثة فى بيت « على الحمى » .

وكانت ليلة عجيبة تلك التى مرت « بسيد » .. ليلة كانت لا تكف اذناه خلالها عن سماع النحيب والولولة آتية من كافة النواحى منبعثة من جميع الجهات .. وفى اللحظات التى كان ينعس فيها لم تكن تفارق احلامه صورة تلك الصرة المشئومة والبدلة المنحوسة .. و « شحاتة »

تارة مسجى ، وتارة يعدو راقصا .. ثم صورة أبيه يجلس فى الحمام ، ليؤكد له أنه لن يموت ، وأنه لن يرتدى البدلة ، ولكنه لا يلبث حتى يراه هابطا فى المغطس ، ولا يلبث حتى يرى المستحمين جميعهم يرتدون حللا مثلها ويمسكون المجامر والقماقم ثم يعدون وراءه صائحين : « أبوك السقا مات » .. فيأخذ فى رجمهم بالطوب .

وقبيل الفجر تملكه نعاس طويل استيقظ منه على أثر ضجة فى البيت وحركة ، وشاهد نفس المناظر التى شاهدها يوم أن رحل « شحاتة » عن الدار محمولا فى صندوقه ، وأبصر نفس اللوفة البيضاء الشعر ، وقد امسك بها رجل ، ثم أبصر برجل آخر يحضر نفس الصندوق الخشبى .

عجبا لهذه الدنيا ! .. أبوه حقا .. هو الذى تعد له كل تلك الإجراءات الرهيبة ؟

أبوه حقا هو الذى هدم البيت عليه .. فمزق جسده اربا ؟ وجاد ؟ والحاجة زمزم ؟ الم يهدم عليهما شىء ؟ . ألم ينقض عليهما حجر ؟ . اما زالا يرتمان فى بحبوحة من السفالة والظلم والخسة والحطة والدناءة ؟

حقا .. ان الله قدير على كل شىء .. ولكن قدرته تبدو وكأنها قد انحرفت فوضعت فى غير موضعها واتجهت اتجاها غير مطلوب ولا متوقع . أو هو قدير حتى على ما يراه العبد ظلما وحتى على فعل ما لا يقبله عقل المخلوق .. وما لا يقره منطقه .. ولا ما يراه الانسان حكمة وعدلا ؟ .

لقد ظلمه جاد وزمزم فدعا الله أن يظهر قدرته ويرد كيدهما ، ويهدم المسمط على رأسيهما ، ولقد أظهر الله قدرته وهدم بيتا فى نفس اللحظة التى دعاه سيد إلى ذلك ، ولكن يبدو أنه أخطأ البيت ، خطأ مقصودا أو غير مقصود .. وكانت نتيجة الخطأ ان اصابه بشر ما يمكن أن يصاب به .. لقد أخذ منه أباه .

لم ؟ ! وأين سيذهب به ؟ ! إذا كان سيأخذه إلى السماء فما حاجته به ؟ أليس هو أشد منه حاجة إليه ؟ أهو محتاج إليه لكي يصرف عليه ويضمه إليه ؟ إذا فلم صعد به إلى السماء ؟

إذا كان سيهبط به إلى باطن الأرض فأى شيء سيفيده منه ؟

وأطلق « سيد » زفرة حارة . وعاود البكاء والنشيج وهو يبصر الصندوق يدخل إلى الحجرة التى بها أبوه ... ثم يخرج محملا بحمله الثمين .. الضائع .. المفقود .

انتهى .

لا فائدة .. انهم يخرجون به إلى الفناء ثم إلى الطريق ، وبعد لحظة سيتحركون به .. ثم يعودون وحدهم .

لم لا يسير معهم ، حتى يبقى بجواره إلى اللحظة الأخيرة ؟

لم لا يرى الطريق الموحش .. الذى تعود ابوه السير فيه ؟

وفجأة قفز « سيد » من جلسته التى شرد خلالها بذهنه .. وبدا كأنه نوى أمرا . ثم اندفع يعدو إلى الطريق متجها نحو بيتهم .. خائضا بين الأتربة والحجارة حتى وصل إلى حجرة الصحارة .. المليئة بأكوام الأتربة المنهارة ، ولم يتعب فى الحصول على بغيته .. فقد وجدها كائنة أمامه فوق الصحارة كأنها تناديه : « ها أنذا » .

ومد يده فأخذ الصرة .. وأسرع يفتحها وأخرج منها البدلة ، فدسر ساقيه فى البنطلون الطويل المهرول ، وادخل ذراعيه فى الجاكتـا الواسعة الفضفاضة ، ثم وضع الطربوش على رأسه فهبط حتى استقر على أذنيه ، وعندما هم بالخروج لمح إحدى اللافتات التى كانت معلقة على الحائط ـــ اللافتة التى حاول شحاتة ان يشرحها له ـــ قد وقعت على الأرض بين الاتربة ووقع بصره عليها ، فاستطاع لأول مرة قراءتها بسهولة .. وخيل إليه انه يسمع صوت شحاتة يقرؤها ويعيد شرحها له :

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وحمل « سيد » اللافتة وطبقها ووضعها فى جيب الجاكتة ، ثم أسرع إلى الخارج ، فوجد الموكب على وشك التحرك .

وفوجىء القوم وهم يرون قزما ، يهرول فى بدلة سوداء فضفاضة وطربوش قد غطى أذنيه وكاد يغطى عينيه ، وقد اندفع يعدو حاملا القمقم ، متخذا مكانه أمام النعش .

وحدق القوم بأبصارهم فى ذلك المخلوق العجيب فإذا به سيد قد ارتدى حلة الأفندية .

وغلب القوم التأثر ، وتفجرت الدموع من مآقيهم .. واقترب المعلم خشت من « سيد » وهو ينشج باكيا .. وأخذ يربت عليه بحنان شديد مواسيا مترفقا طالبا منه ألا يسترسل فى الحزن ، مؤكدا له أن كل أهل الدرب آباؤه ، سائلا إياه أن يبقى مع الصبية حتى يفرغ المشيعون من تشييع الجنازة .

وازاح « سيد » الطربوش الواسع عن عينيه ، ونظر إلى الرجل وقد بدا عليه التجلد والصبر والهدوء ، والإيمان وقال فى صوت هادىء وكأنه يردد قطعة محفوظات حفظها عن ظهر قلب :

ـــ انى اود ان اكرمه .. كما اكرم سواه ... وانا لست حزينا .. انه ليس بأول اب يموت .. ولا كنت بأول يتيم يفقد اباه .. هذه اشياء تحدث كثيرا فى الحياة ، فيجب الا ننظر إليها على أنها مآس قد خصنا بها القدر ، يجب ان نعرف أن هذه هى سنة الحياة وطبيعة الأحداث فيها .. يجب الا نعتبرها مفاجأة .. بل نتقبلها بالصبر .. والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون . يجب ان نصبر ونواصل السير فى الحياة لنقوم بواجبنا نحو الخالق والمخلوقات .. حتى يصيبنا قضاء الله » .

وذهل المشيعون .. ولم يملكوا سوى أن يتركوا الصبى يسير ، وبدأت الجنازة سيرها .. والصبى على رأسها .. وقد بدا عليه مظهر التجلد .. لولا دمعتان تجريان فى صمت على خديه .. ولولا

همسات كان يهمس بها إلى نفسه وكأنه يتمم بها الجزء الباقى من قطعة المحفوظات :

« بهذا احسست بالسكينة والاستقرار ، لولا ذلك القلب الذى لا يحتمل صبرا ولا يقبل منطقا : القلب النائح بين الضلوع الباكى فى الحنايا المقطر فى الصدر بدل الدمع دما » .

واستمرت الجنازة فى السير ، وما زال الهاتف يهتف فى نفس الصبى : « انها مسألة ترويض لا اقل ولا اكثر .. ان كل حدث على الأرض يهون بالتعود .. لقد نزلت إلى ساحة الأموات فوجدتها سخريات فى سخريات » .

وأشرفت الجنازة على المقابر وبدات اجراءات الدفن ، ووقف « سيد » يرقبها وهو ذاهل شارد لا يحس بما حوله .. ولا يسمع سوى الصوت الهاتف يردد :

« كنت اشيعها فى كل جنازة أسير امامها .. وكنت أراها فى كل ميت أواريه الثرى ، انى أحس بمتعة من تشييع الجنازات .. فهى تقربنى إليها وتمتعنى برفقتها وذكراها وتهون على نفسى مسألة الموت وتعدنى لاستقباله غير وجل ولا هياب .. وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة » .

وهبط القوم بالجثة إلى باطن الأرض فواروها الثرى ثم صعدوا وحدهم ووضعوا الحجارة فوق الحفرة وسويت الأرض فعادت كما كانت .

ورجع القوم وبينهم الصبى والصندوق الفارق .. بعد أن افرغ حمولته فى باطن الأرض فزاد ساكنو القبور ساكنا .. ونقص الأحياء حيا .

الأحياء !!

يا لسخرية الأرض من الحى والأحياء !

كل ما على الأرض ابقى من الحى .. وبقايا الحى .. ومخلفات الحى .

كم اختال عليها من قبلنا كل مختال فخور .. وكم مشى على ظهرها مرحا كل منتفخ الأوداج مغرور .. وكم تثنت عليها الغيد وتمايلت الحور .. فاين ذهب المختال وراح المغرور .. واين صارت الغيد وآلته الحور !

ذهبوا كلهم .. كانوا يملئون الأرض ضجة وحركة .. وكانوا هم الأحياء وغيرهم عدم .. وفى غمضة عين صاروا هم العدم وغيرهم الحياة .

كل جامد فى الأرض أبقى من الحى .

هذه الصخرة الجامدة أبقى على الأرض من هذا الرأس الحى المفكر .. هذا الحجر الجامد الصلد أثبت فى موضعه من صدر الحسناء المكتنز بالحياة .. الصائر إلى ضمور المنتهى إلى فناء . هذا الينبوع البارد الجارى فى الوهاد أكثر استمرارا فى التدفق من الدماء الحارة الجارية فى العروق الصائرة إلى جفاف وجمود .

يا للحى التعس المسكين .. حتى قبوره ومخلفاته إلى الزوال مصيرها ، وإلى الفناء مآلها ومنتهاها .

« صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد » .

ما أوهى خيط الحياة .. واضعف مادة الأحياء .

حى واحد .. هو الباقى القوى .. هو « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » .

وما أقل ما يشاء وأكثر ما لم يشأ .

الخاتمــة

والصــابرين فى البأســاء

فى اليوم التالى كان سيد يتربع امام الحنفية متخذا مكان ابيه ، وقد كسا وجهه مظاهر الجد والحزم ، واصطف القوم امامه فى صمت ورهبة وخشوع .. بلا ضجيج ولا صخب ، ولا صياح ولا ضحك ، اللهم إلا كلمة « البقية فى حياتك » أو « البركة فيك » يلقونها على الصبى فى تأثر وخشوع كأنهم يخاطبون شيخا كبيرا .

وفى نهاية اليوم .. حمل الصبى كيس النقود إلى مكتب الشركة بالفجالة وهناك سلم العهدة ، وسأله الصراف أن يحضر صباحا لمقابلة المدير .

وفى الصباح نظر إليه الرجل فى دهشة ثم صافحه معزيا ، وأنبأه انه سيستمر فى عمل أبيه .. وانه سيجعله خليفة على الحنفية .

ومنذ ذلك اليوم وسيد قد حل محل أبيه وظل ضيفا هو وجدته فى بيت « على الحمى » حتى رممت دارهم وعادا إليها .

ومرت الأيام والصبى يسير فى الحياة حاملا عبئها بجلد وصبر قائما بواجبه نحو الخالق والمخلوقات ، ولم ينس يوما ، واجبه نحو شىء عزيز .. كان يرى فيه .. صورة الغائبين ، ويشم منه عبقهما .. لم ينس يوما سقية .. التمرحنة .

وماتت « أم آمنة » ، واضحى « سيد » رجلا وتزوج وانجب ولدا ، وفى كل صباح يحمل صبيه القربة الصغيرة ليسقى الشجرة العزيزة .. لتزيد ايناعا وخضرة .. بين قفر يباب كأنها واحة للتذكر والوفاء .. في صحارى النسيان والقطيعة والاهمال .

وفى الكشك الخشبى جلس « سيد .. جلسته منذ ثلاثين عاما ووراءه قد علق فى داخل الكشك لافتة أحالت الشمس لونها ، ولكن الكتابة ما زالت بها جلية واضحة يقرؤها كل وارد على الصنبور .

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

الفهرست

للمــؤلف

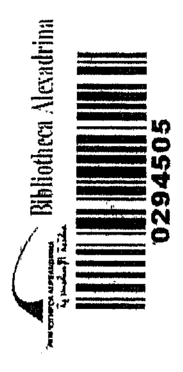
العنوان	النوع	السنة
اطيــاف	قصص قصيرة	١٩٤٧
نائب عزرائيل	رواية	١٩٤٧
اثنتا عشرة امراة	قصص قصيرة	١٩٤٨
خبايا الصدور	قصص قصيرة	١٩٤٨
يا امة ضــحكت	قصص قصيرة	١٩٤٨
اثنــا عشر رجلا	قصص قصيرة	١٩٤٩
أرض النفاق	رواية	١٩٤٩
فى موكب الهوى	قصص قصيرة	١٩٤٩
من العالم المجهول	قصص قصيرة	١٩٤٩
هذه النفوس	قصص قصيرة	١٩٥٠
انى راحــلة	رواية	١٩٥٠
مبكى العشاق	قصص قصيرة	١٩٥٠
بين ابو الريش وجنينة ناميــش	قصص قصيرة	١٩٥٠
اغنيــات	قصص قصيرة	١٩٥١
ام رتيبة	مسرحية	١٩٥١
هذا هو الحب	قصص قصيرة	١٩٥١
صور طبق الأصل	قصص قصيرة	١٩٥١
بين الأطــلال	رواية	١٩٥٢
الســقا مات	رواية	١٩٥٢
سمار الليالى	قصص قصيرة	١٩٥٢
الشيخ زعرب	قصص قصيرة	١٩٥٢
نفحة من الايمان	قصص قصيرة	١٩٥٢
وراء الستار	مسرحية	١٩٥٢
ست نساء وستة رجال	قصص قصيرة	١٩٥٣
هذه الحيــاة	قصص قصيرة	١٩٥٣

البحث عن جسد	(رواية	١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية	١٩٥٣)
فديتك يا ليلى	(رواية	١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
همسة عابرة	(قصص قصيرة	١٩٥٣
رد قلبى	(رواية فى جزأين	١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة	١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية	١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات	١٩٥٧)
من حياتى	(مقالات	١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(مقالات	١٩٥٩)
ناديـة	(رواية فى جزأين	١٩٦٠)
جفت الدموع	(رواية فى جزأين	١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات	١٩٦١)
ايام وذكريات	(مقالات	١٩٦١)
أيام من عمرى	(مقالات	١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين	١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية	١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين	١٩٦٨)
لست وحدك	(رواية	١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات	١٩٧٠)
ايام عبد الناصر	(مقالات	١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية	١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات	١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة	١٩٧٣)

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة

سعيد جوده السحار وشركاه